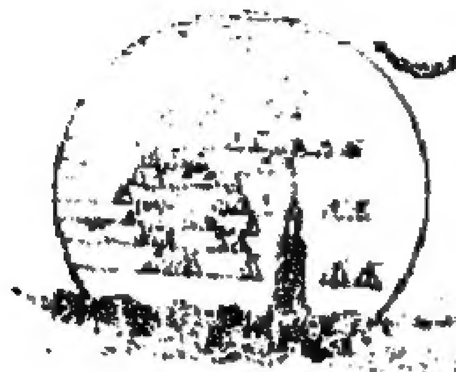




قيام الدولة الأيوبية

في مصر



تأليف

علي بيومي

الطبعة الأولى
يناير ١٩٥٢

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر الحديث للطبع والنشر
٤٠ شارع خيرت بلاظوغلي

تصـــدير

لحضرة صاحب العزة الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة بك
رئيس قسم التاريخ بجامعة فؤاد الأول

يقترب الباحث من ميادين الحوادث التوجيهية فى الشرق الأوسط فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وهى كثيرة ، فتشغله من حركاتها ، وتملأ عينه وعقله ، حركة الدولة السلجوقية نحو السيطرة على غرب آسيا كله ، حتى إذا اتخذت هذه الدولة بغداد العباسية عاصمة لها أواسط هذا القرن ، وخلع الخليفة العباسى على سلطانها ملك شاه لقب أمير المؤمنين سنة ١٠٧٢ م (٤٦٥ ﻫ) ، وأقام وزيرها نظام الملك فى كل من بغداد ونيسابور جامعة سمّاها النظامية ، لم يستطع الباحث إلا أن يرى فى هذه الدولة حركة إحيائية بعيدة الآفاق والمرامى فى حلبات السياسة والحرب والمعرفة .

وقبيل هذه السنة المتقدمة زحفت الدولة السلجوقية زحفاً ضخماً نحو ممتلكات الدولة البيزنطية فى الأناضول ، وألحق سلطانها ألب أرسلان أبو ملك شاه بالبيزنطيين وإمبراطورهم رومانوس ديوجينيس (أرمانوس فى القلقشندى) هزيمة ساحقة عند مانزكرت سنة ١٠٧١م (٤٦٣ﻫ) ، وغدا جزء كبير من الأناضول تابعاً للسلجوقيين ، وهذا هو أصل دولة السلاجقة بالروم .

ثم ضوى السلطان ملك شاه إليه معظم الشام وفلسطين من الفاطميين، ولم يلبث الفرع السلجوقى الذى أقامه هناك أن أعد العُدة لغزو مصر، وبدت الدولة السلجوقية أواخر هذا القرن الحادى عشر الميلادى كأنها أعادت الدولة الإسلامية سيرتها الأولى، من حيث التماسك السياسى والطاقة التوسعية، فضلا عن المستوى الحضارى الذى ارتفعت إليه بفضل الغزالى والشيرازى والتبريزى والخيام.

ثم توفى السلطان ملك شاه سنة ١٠٩٢م (٤٨٥هـ)، فدبت الانفصالية دبيبا سريعاً ذريعاً فى أوصال الدولة السلجوقية، وعمل كل سلجوقى على الاستقلال بما تحت يده من البلاد، كما عمل بعض أتابكتهم وكبار موظفيهم على التمكين والتكوين الاستقلالى لأنفسهم. على أن هذه الانفصالية السياسية لم تعطل الحركة الإحيائية التى ملأت الشرق الأوسط وقتذاك، بقدر ما ساعدت أصحاب القدرة والمواهب والجرأة على تحقيق أطماعهم وأحلامهم المحلية الضيقة، ولذا بدا الشرق الأوسط — ولاسيما الشام وفلسطين — عدداً من إمارات ودويلات متنافرة متحاسدة غمرتها حروب تافهة بين بعضها بعضاً، وذلك حين قدم الصليبيون الغربيون إلى الشرق. ولذا كانت انتصارات الحملة الصليبية المعروفة بالأولى على المسلمين فى نيقية ودوراليوم وأنطاكية وبيت المقدس هينة سهلة إلى حين، برغم ما تعثرت به زعامات هذه الحملة وجيوشها من معاثر كفيلة بالفشل، وهى فى طريقها من غرب أوربا إلى الشرق.

غير أن انتصارات الصليبيين على المسلمين فى هذه المعارك الكثيرة

لم يفت في عضد القوى السياسية رغم انفصام عراها وأوصالها ، لم يخمد الحركة الإحيائية رغم ذهاب شخصياتها ، بدليل قيام عباقرة عسكريين وسياسيين بالدعوة لتوحيد الجبهة الإسلامية بعد سنوات معدودات من مقدم الصليبيين إلى الشرق وانتصاراتهم به ، ومن أولئك أنر ، وباق ، وزنكى ، وكان مبلغ توفيق أولئك فى تحقيق بعض دعوتهم وفى تكوين دول مستقلة لأنفسهم ما شجّع أتباعهم أن يحلموا أحلامهم السياسية الخاصة ، وأن يعملوا على البناء لأنفسهم كذلك ، وأهمهم هنا شيركوه القائد العام للجيوش الزنكية ، وأخوه أيوب نائب زنكى بمدينة بعلبك قرب دمشق .

ظلّ هذان الأخوان فى خدمة زنكى مدة غير يسيرة ، وأسهما فى حروبه وتحقيق سياسته وأطماعه . وبقيا بعد وفاته فى خدمة ابنه محمود — وهو نور الدين محمود — حتى صار شيركوه نائب السلطنة النورية فى عاصمتها حلب ، وأخوه أيوب نائب نور الدين فى مدينتها الثانية دمشق . ثم تطورت الحوادث بين الجبهتين الإسلامية والصليبية إلى سباق الاستيلاء على مصر من الفاطميين ، ولم تكن أهمية مصر خافية على أحد الطرفين . وأرسل نور الدين قائده شيركوه ومعه يوسف ابن أخيه أيوب على رأس الحملة إلى مصر ، فرأى شيركوه ما بمصر من علامات الانهيار فى أذيال دولة فاطمية محتضرة ، فألفى فرصته واضحة فاهتبلها ، وألح على نور الدين فى إنفاذه ثانية وثالثة إلى البـــلاد المصرية لمدافعة الصليبيين ومساعدة الفاطميين . ثم لم يلبث شيركوه أن صار وزير الدولة الفاطمية ، وهو فى

نفس الوقت قائد عسكرى تابع للدولة النورية ، ولم يبق لديه سوى أن يستغل هاتين الوظيفتين لنفسه ولبيته ، ولكنه توفى بعد قليل . فلا الوظيفتين بعده يوسف ابن أخيه أيوب ، وهكذا ورث الشاب صلاح الدين يوسف ما اجتمع إلى عمه من سلطة ومسئولية،وبارك له أبوه فى إرثه بعد أن حضر بجميع أهله إلى القاهرة بإذن من نور الدين ، وأخذ يعمل فى دأب هادىء على استقلال يوسف بمصر ، وحرص على إخفاء هذا الهدف حتى « تندرج الأيام » (انظر ما يلى ص ١٨٤) .

وعلى هذا لم يكن تفكير صلاح الدين يوسف فى الاستقلال بمصر بعد وفاة العاضد الفاطمى سنة ١١٧٢ م (٥٦٧هـ) — والسلطان نورالدين على قيد الحياة — شيئاً مفاجئاً أو عجيباً ، كما لم يكن تفكير صلاح الدين فى أنه الوريث العملى للسلطان نور الدين بعد وفاته سنة ١١٧٤م(٥٦٩هـ) شيئاً جريئاً أو غريباً . ولعل أوضح الأدلة على ذلك أن صلاح الدين لم يستقل بمصر فحسب ، بل امتد سلطانه إلى الشام وفلسطين ، والشرق الأوسط كله من العراق الأعلى وكردستان إلى برقة والنوبة وشبه جزيرة العرب بما فى ذلك اليمن ، وأنه قام بدور لا يقل كثيراً عن دورالسلطان ملك شاه السلجوقى من حيث التفكير الإمبراطورى والحركة الإحيائية ، كما قام وزراؤه بشبه ماقام به الوزير نظام الملك ، ولاعجب، فإن اثنين من رجال العصر الصلاحي الأيوبى — وهماالعماد الأصفهانى الكاتب وبهاء الدين بن شداد القاضى — تخرجا من جامعة النظامية ببغداد .

على أن المؤلف لم يوغل فى موضوع الدولة الأيوبية إلى أوج أيام

صلاح الدين ، بل اقتصر بحثه على قيام هذه الدولة ، وهذا الاقتصار مما جعل لبحثه صفة الابتكار القيم ، فإن حوادث صلاح الدين المسيطر على جبهة إسلامية ، متحدة المجاهد ضد الصليبيين الشرقيين والغربيين ، كلها معروف واضح بقدر ما يحيط حوادث قيام دولته من قلة معرفة وغموض ، وهو ما نصّب المؤلف نفسه على استجلائه وشرحه وتحقيق مراحله.

ويحضرني في كتابة هذا التصدير ما لقي المؤلف من عناء في جمع براهينه وربط حقائقه ، والتجائه إلى قراءة ما بين السطور في مختلف المراجع لعله واجد طلبته ، لا قفزاً خاطفاً من مرجع إلى آخر ، بل سيراً تؤدة على هدى العوامل البيئية التي خلقت فكرة بناء دولة في رؤوس الأيوبيين. وأعتقد أن المؤلف نجح نجاحاً مشكوراً في إعداد هذا البحث ، تحت إشرافي للماجستير بقسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول . ذلك أن معظم المؤرخين في العصور الوسطى في الشرق والغرب عنوا بالأخبار لا بأسبابها وعلّيتها، وربما حرص بعضهم على إخفاء الأسباب رغبة منهم في تنزيه أعمالهم عن الدنيويات ، وهو حرص معقول مفهوم لدى مؤرخي تلك العصور وأشباههم ، لا العصور الحديثة وأهلها الذين يسلطون العقل على معظم الأشياء . واختار المؤلف أن يكون من هذه الفئة الحديثة ، وسلّط من عقله على حوادث إخبارية جافة جفاء ، تأليفه مبتكراً قيماً كما قلت، وهو في غير شك يسدّ فراغاً في المعرفة بجزء هام من تاريخ مصر — العصور الوسطى .

وللمؤلف أسلوب سهل هادىء ، لا يثب ولا يرسب ، وهو أسلوب النغمة الوسطى فى فن الكتابة ، وهو أصلح الأساليب فى التاريخ ، ولعل قدرة المؤلف فى الشعر هى التى ساعدته على التزام هذه النغمة التى تضفى على النثر الفنى شاعرية ، وتجعل هذا الكتاب جديراً بالمكتبة الحديثة فى اللغة العربية .

مصر الجديدة { ١٨ صفر سنة ١٣٧١ هـ.
١٨ نوفمبر سنة ١٩٥١ م. } محمد مصطفى زيادة

بعض مصادر الكتاب

المراجع التاريخية التي تعرضت للكلام عن موضوع « قيام الدولة الأيوبية فى مصر » كثيرة — أفرد لها ثبت خاص — ولكن الحقائق التى وردت فيها لا تكاد تشفى غلة الباحث فى هذا الموضوع . ومرد ذلك إلى مادرج عليه المؤرخون العرب من أخذ الواحد منهم عمن سبقه أخذاً قد يكون حرفيا فى كثير من الأحيان . وبالرغم من أن هذه الطريقة — طريقة النقل عن السابقين — قد أفادت فى حفظ كثير من النصوص الهامة التى لم يعثر على مراجعها الأصلية كاملة بعد ، كالبرق الشامى لعماد الدين الكاتب الأصفهانى ، وكنز الموحدين فى سيرة صلاح الدين ليحيى ابن أبى طى . فإن عيبها — من ناحية أخرى — أن الباحث يقرأ الكثير من المصادر فلا يخرج منها جميعاً إلا بصورة واحدة هى الصورة التى رسمها المصدر الأصلى .

على أن ذلك ليس السبب الوحيد — فيما يبدو — لقلة الحقائق التى وردت فى موضوع هذا البحث . إذ ربما يرجع السبب فى تلك القلة أيضاً إلى عامل آخر هو تكتم الأيوبيين عن نواياهم وأغراضهم وحرصهم حرصاً تاما على ألا يبدو من سلوكهم ما يدل على حقيقة تلك النوايا والأغراض ، ولهذا لم يجد المؤرخون المعاصرون بدا من أن يقتصروا فى كتاباتهم على ذلك السلوك الظاهرى دون أن يحاولوا تفسيره وبيان السر فيه . فبدا قيام الدولة الأيوبية فى مصر — نتيجة لذلك — وكأنه قد جاء بمحض الصدفة ولا دخل لإرادة الأيوبيين فيه . وقد كان

الأيوبيون محقين فى تكتمهم خوفا من أن يصطدموا بزنكى أو ابنه نور الدين وهما اللذان قاما يعملان على توحيد القوى الإسلامية لمقاومة الصليبيين . ومن هنا أصبح واجباً حتمياً على الباحث أن يحكّم بجانب النصوص التاريخية ـ المنطق والتفكير فى غير إسراف أو تبذير .

على أنه هناك بالرغم من ذلك عدد لا بأس به من المراجع الأصلية وأهمها ما كتبه ابن القلانسى وعمارة اليمنى وأسامة بن منقذ وابن الجوزى وابن الأثير ، وابن شداد ، وابن أبى طى . وعماد الدين الأصفهانى ، وابن خلكان . وابن واصل ، وابراهيم الحنبلى ، وابن الفرات ، والمقريزى وغيرهم .

أما ابن القلانسى فيعتبر كتابه «ذيل تاريخ دمشق» مرجعا أصليا فى تاريخ الشرق الأدنى منذ بداية القرن السادس الهجرى ، وقد انتهى فيه إلى سنة ٥٥٥ ﻫ (١١٦٠ م) متخذاً مدينة دمشق محوراً للحوادث . وبالرغم من أن هذا المصدر لم يتعرض للكلام عن الحوادث الهامة فى قيام الدولة الأيوبية ، فإنه قد أفاد فى تصوير المسرح الذى مثل الأيوبيون عليه أدوارهم الأولى أى قبل مجيئهم إلى مصر . وقد ألقى ابن القلانسى ضوءاً على كثير من الحقائق الهامة الغامضة كغزو السلاجقة للشام . وبداية عهد الصليبيين بتلك البلاد . ودفع مصر لهم مالا سنويا ثمنا لسكوتهم إلى غير ذلك . وإذن فإن كتاب « ذيل تاريخ دمشق » مصدر لا غنى للباحث عنه فى تاريخ الشرق الأدنى فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى .

أما عمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ ﻫ (١١٧٤ م) فكان ـ كما هو معروف ـ شاعراً واسع الحيلة . إذ استطاع أن يكسب ثقة الوزراء

الفاطميين المتأخرين فيعهدى الفائز والعاضد . وأن ينال هباتهم جميعا بالرغم مما كان بينهم من خلاف وتنافس . وقد صور فى كتابه «النكت العصرية» العهد الفاطمى المتأخر تصويراً يعطى فكرة واضحة عنه . والشىء الهام عن هذا المصدر أن الباحث يستطيع أن يستخلص من شعر عمارة العوامل النفسية الأساسية التى أدت إلى برم مؤامرته التى قام بها ضد الدولة الأيوبية فى إبان نشأتها .

وهناك مصدر آخر أثار كثيراً من الشك حول نشأة صلاح الدين وهو كتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ (١١٨٨ م) فإن ذلك المؤرخ الذى كان على صلة وثيقة بكل جهة فى الشرق الأدنى فى النصف الأول من القرن الحادى عشر ، لم يذكر شيئا عن صلاح الدين بالرغم من أنه قصر هذا الكتاب على ذكرياته الاجتماعية والحربية ومشاهداته فى الشام ومصر فى تلك الفترة الهامة . وقد تعرض الفصل الثانى من هذه الرسالة لهذه النقطة فلا داعى للكلام عليها هنا(١) أما أهمية هذا المصدر فترجع إلى أن أسامة تكلم عن الحوادث التى شاهدها بنفسه فى مصر والشام وأهمها فرار رضوان الولخشى والنزاع بين الوزيرين ابن السلار وابن مصال ، وقتل الخليفة الحافظ مما كان بداية لنهاية الدولة الفاطمية .

أما أبو الفرج بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ ﻫ (١٢٠٠ - ١٢٠١ م) فلم يذكر فى كتابه «المنتظم» شيئا هاما عن موضوع هذا البحث اللهم إلا فيما يتعلق بإطلاق سراح رايمند الثالث أمير طرابلس . إذ قال إن ذلك الأمير الصليبى قد أطلق سراحه فى حياة نور الدين نفسه .

---

(١) راجع الفصل الثانى .

ومضمون كلامه أن نور الدين أراد أن يحيط ابنه اسماعيل - أثناء نزاعه مع صلاح الدين - بمجموعة من الجيران الحلفاء . وهذا ما يمكن أن يقال أيضاً عن « مرآة الزمان » لسبطه ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٧ م) إذ لم ينفرد هو الآخر بشيء جديد .

وقد كتب ابن الأثير فى موضوع البحث كتابين هما : « الكامل فى التاريخ » وهو الموسوعة التاريخية المشهورة وتاريخ « الدولة الأتابكية » الذى قصره ابن الأثير على البيت الزنكى ، ولكنه تعرض فيه بالضرورة لما جرى حول ذلك من حوادث . وأهمية هذا المؤرخ أنه ولد(١) سنة ٥٥٥ هـ (١١٦١ م) وتوفى سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) أى أنه عاصر الدولة الأيوبية فى خطوات قيامها النهائية . واستمع إلى من عاصروا الحوادث الأولى التى أدت إلى قيامها .

ولهذا فقد جاءت كتابته صورة صادقة لما حدث . والنقطة الهامة أنه ليس هناك من القرائن والأدله ما يثبت أن ابن الأثير كان متعصباً فى روايته لفريق دون فريق . ومما يؤيد ذلك أن العماد الأصفهانى ذكر أن جيش غازى (الثانى) فى موقعة تل السلطان كان عدده عشرين ألفا فتصدى ابن الأثير لتفنيد هذا الرأى وقال إن جيش غازى لم يزد على ستة آلاف ثم علق على ذلك بقوله « وإنما قصد العماد أن يعظم من أمر صاحبه (صلاح الدين) بأنه هزم بستة آلاف عشرين ألفا ، والحق أحق أن يتبع » (٢) .

وقد كان من المنتظر أن يذكر ابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ فى كتابه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » الشيء

---

(١) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٤٨ .
(٢) راجع الكامل جـ ١١ ص ١٩٤ .

الكثير عن نشأة الأسرة الأيوبية لما كان بينه وبين صلاح الدين من صلة وثيقة(١) . ولكنه لم يفعل واكتفى بأن يملأ الصفحات الأولى من كتابه بالكلام عن أخلاق صلاح الدين ، وشدة تمسكه بدينه إلى غير ذلك . وهكذا جارى ابن شداد غيره من المؤرخين فى عدم التعرض بالتفصيل لنشأة الأسرة الأيوبية .

وهناك مصدر آخر يعتبر بحق من أهم المراجع التى تعرضت للكلام عن تاريخ الأيوبيين وهو كتاب « كنز الموحدين فى سيرة صلاح الدين » ومؤلفه يحيى بن أبى طى وأصله من حلب وتوفى سنة ٦٣٠ ه (١٢٣٢م) وكان والده من أشراف تلك المدينة(٢) . وبالرغم من أنه لم يعثر على النص الكامل لهذا المصدر بعد ، فإن أبا شامة المتوفى سنة ٦٦٥ ه (١٢٦٧ م) قد أورد منه كثيراً من المقتطفات الهامة الكاملة فى كتابه « الروضتين » ومما يجدر ذكره أن أبا شامة يتهم ابن أبى طى بتحيزه للشيعة . وتعصبه ضد نور الدين السنى والواقع أن كلام ابن طى لا يفهم منه مطلقاً أنه كان متحيزاً لفريق دون فريق وإلا لوجب أن يتعصب ضد صلاح الدين أيضا ، وهو الذى هدم الدولة الفاطمية الشيعية من أساسها . على أن هناك مؤرخا آخر يتفق مع ابن أبى طى فى كثير من الحوادث والروايات وهو ابن الفرات صاحب كتاب « تاريخ الأمم والملوك » مما يدل على أن اتهام أبى شامة لابن أبى طى قائم على أساس غير سليم . وبالرغم من هذا فإن أبا شامة قد خدم التاريخ خدمة جليلة بإثباته لكثير من النصوص التى فقدت مصادرها الأصلية ككتاب ابن أبى طى السابق الذكر وكتاب « البرق الشامى » لعماد الدين الكاتب الأصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧ ه (١٢٠١ م) .

---

(١) حسن إبراهيم الفاطميون ص ١٥ .

(٢) حسن إبراهيم . الفاطميون ص ٢٩٩ حاشية رقم ٢ .

وهناك مرجعان آخران يعتبران من أهم المراجع التى كتبت عن تاريخ الدولة الأيوبية . ولا يزالان — مع الأسف — مخطوطين . وهما شفاء القلوب لإبراهيم الحنبلى .

«ومفرج الكروب» لابن واصل المتوفى سنة ٦٩٧هـ (١٢٩٧ - ١٢٩٨م) أما الحنبلى فقد تكلم عن الأيوبيين كطبقات بترتيب الحروف الأبجدية وبذلك أعطى صورة واضحة عن كل شخصية من شخصيات الأسرة الأيوبية . وأما ابن واصل فمرجع هام ، وليس من المبالغة أن يقال إنه لاغنى عنه لباحث فى تاريخ الدولة الأيوبية .

على أنه لا يمكن الكلام عن مصادر هذا البحث دون أن يذكر ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨١ م) وصاحب كتاب « وفيات الأعيان » فقد ضم هذا المصدر تراجم واضحة وافية عن صلاح الدين وشيركوه والعاضد وغيرهم ممن لعبوا أدواراً هامة فى قيام الدولة الأيوبية . معتمداً فى ذلك على ما كتب قبله من مؤلفات أو سمعه بنفسه عمن عاصروا تلك الحوادث .

ومن هنا كان كتابه مرجعاً هاما بالنسبة للباحثين فى التاريخ الإسلامى .

الفصل الأول

الشرق الأدنى قبيل قيام الدولة الأيوبية

الغرض من هذا الفصل ، عناصره ، نظرة عامة فى العالم الإسلامى ، انقسام الخلافة الاسلامية ، انحلال الامبرطورية ، ضعف الخلافة العباسية ، بداية ضعفها ، عوامله ، بنو بوية ، السلاجقة ، الأمارات العربية بالشام ، القبائل الكرديه ، غزو السلاجقة الشام ، أثرهم فى الشرق الأدنى ، النظام الإقطاعى السلجوقى ، ماهية ذلك النظام ، السلاجقة بعد نظام الملك ، النزاع على السلطنة ، انحلال الدولة ، الدولة الأتابكية .

الخطر الصليبي ، تاسيس الأمارات اللاتينية ، أفاقة المسلمين ، عماد الدين زنكى ، نشأته ، موجز عن سيرته ، بداية اتصاله بالأيوبيين ، حركاته الحربية بالشام ، فتح الرها .

الدولة الفاطمية فى مصر ، ضعفها ، عوامل ضعفها ، الحافظ ، الدعوة الطيبية ، الظافر ، مقتله ، الفائز ، وزارة زريك ، مصر والصليبيين ، سياسة ابن زريك ، مقتله ، العادل بن زريك .

تعقيب :

هل كانت الحالة فى الشرق الأدنى ملائمة لقيام دولة جديدة ؟ وكيف ؟

قامت الدولة الأيوبية فى مصر قياماً رسمياً خلال الربع الأخير من القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) ، وتعاون على قيامها

وتأسيسها نجم الدين أيوب وإليه تنسب ، وأخوه أسد الدين شيركوه وهو الذى تم على يديه فتح مصر باسم نور الدين ، وصلاح الدين يوسف ابن نجم الدين أيوب ، وهو الذى استطاع بفضل ما أوتى من مهارة ومقدرة ، وبفضل ما تلقى من تربية وتدريب وإعداد ، أن يحسن استغلال ما خلفه له أبوه وعمه ، وأن يبنى على أساس ما بنيا ، ويسير على رسما ، دون أن ينسى ما أحاط به من ظروف وأحوال .

لم يولد صلاح الدين يوسف ولا أبوه أيوب ولا عمه شيركوه فى مصر ، ولم ينشئوا فيها ، وإنما جاءوا إليها كبارا ، ولم يقتصر ميدان مغامراتهم على مصر وحدها ، بل شمل الشرق الأدنى كله ، وذلك قبل أن يعرفوا مصر .

ولهذا وجبت دراسة الأحوال العامة بالشرق الأدنى فى تلك الفترة التى عاش فيها أولئك المؤسسون للدولة الأيوبية قبل مجيئهم إلى مصر ، لأن هذه الدراسه إنما تساعد على فهم روح العصر ، والمثل العليا التى كان يتطلع إليها المعاصرون ، وتعطى التحليل النفسى والتفسير التاريخى لأطماع الطامعين ومغامرات المغامرين . على أن الغاية من كتابة هذا الفصل لا تقتصر على أن يكون تمهيداً لهذا البحث فحسب ، بل أن يكون الحجر الأساسى فى بناء الموضوع والخطوة الأولى التى لابد من معالجتها لفهم ما يتلوها من خطوات .

وكما أن العالم النباتى - مثلا - يحاول أن أراد أن يدرس نباتاً معينا ، أن يدرس « البيئة » التى ينمو فيها هذا النبات من تربة ومناخ ، فيحللها تحليلا كافياً ويرجعها إلى عناصرها المختلفة التى تتكون منها ، ويعرف العوامل التى قد تعوق هذا النبات على النمو أو تساعد عليه . ثم يدرس بعد ذلك خصائص « البذرة » التى سيودعها باطن هذه التربة ، وما ينتظر

أن يصادفها من نجاح أو إخفاق فإن واجب المؤرخ أن يسلك نفس هذا السبيل ، ما دام يتعرض لقيام دولة جديدة وعلى تلك القاعدة يمكن أن تقوم الدراسة على أساس منطق ومبدأ علمي سليم .

والبيئه التي تجب دراستها في هذا الفصل ، وهي البيئة التي نشأت فيها الدولة الأيوبيـة لا تقتصر على مصر وحـدها ، وإنما تشمل الشرق الأدنى كله . وهـذا الفصل هو موضع دراستها كلها . أما البـذرة فهي أسرة أيوب نفسها ، وسيكون لدراستها فصل آخر هو الفصل الثاني ، ثم تتلو ذلك دراسة لعملية النمو أي الخطوات العملية التي سلكتها الأسرة نحو تحقيق أهدافها .

والمقصود بالشرق الأدنى هنـا ، بلاد الاقليم المعتمد من البحر الأسود شمالا إلى بلاد النوبة وشبه جزيرة العرب جنوبا ، ومن فارس شرقا إلى برقة والصحراء الليبية غرباً ، وهذا هو الاقليم الذي بدأ يزخر بالحوادث منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي ، بل هو الاقليم الهام منذ القدم ، والذي سيستمر محافظا على أهميته على مر القرون .

ولعل أول ما يتطلع إليه الباحث في هذا المجال هو أن يعرف ما انتهت إليه حال الخلافة الاسلامية وما استقرت عليه أمورها بعد أن انقسمت وتعددت إلى خلافة عباسية في بغـداد ، وأخرى فاطمية في القاهرة وثالثة أموية في الأندلس – والأخيرة لا دخل لها في هذا البحث لا عن قرب ولا عن بعد – . ثم لا بد للباحث من أن يتطلع إلى معرفه ما أصبحت عليـه بعض الدول التي عاشت في جوف الخلافة العباسية كالدوله السلجوقيـة ، وهي الدولة التي اكتسحت في طريقها جميـع الامارات التي تكونت وانتشرت بالشرق الأدنى والتي ورث ملـكها الحـكام والقواد والشخصيات البارزة من رجالها ومن غير رجالها ثم حالة

الصليبيين الذين جاءوا من وراء البحار لتخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين ، ولمآرب أخرى فى نفوسهم ، لعلها أعمق مما يتواتر فى الكتب وأدق بكثير . وإذا تعرض الباحث لذلك كله ، فلابد من الكلام عن تلك القبائل العربية وغير العربية المنتشرة بالجزيرة والشام ، ومعرفة ما انتهى إليه حالها أيام مجىء السلاجقة ، وبعد تفكك دولتهم . وهذا بالاضافة إلى الدولة الفاطمية لأنها الدولة التى قامت على أنقاضها الدولة الأيوبية .

ومن ذلك يتضح أن موضوع هذا الفصل محدود بأربعة عناصر رئيسية وهى الخلافة العباسية فى بغداد منذ النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى ، ثم السلاجقة وسياستهم بالشرق الأدنى وأثرهم فى تاريخه ، ثم الصليبيون وتأسيسهم الأمارات اللاتينية بالشام على حساب المسلمين ، ثم الخلافة الفاطمية فى أواخر أيامها بالبلاد المصرية .

أما الخلافة العباسية فقد بدت فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) مختلفة تمام الاختلاف عما كانت عليه زمن العباسيين الأولين ، إذ اقتصرت سلطتها على ركن واحد من أركان العالم الاسلامى الواسع ، ولم تعد هذه السلطة أن تكون سلطة إسمية ، بل أن تلك السلطة الاسمية أصبحت لا تتعدى جدران قصر الخلافة . أما السلطة الفعلية فقد باتت فى أيدى الترك من بنى بويه الشيعيين الذين أقاموا إلى جانب الخلفاء فى بغداد نفسها منذ عام ٩٤٥ م إلى عام ١٠٥٥ م (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) .

وتجرأ أولئك المستبدون بالخلافة جرأة لم تكن معروفة من قبل . فطمعوا فى مصاهرة الخليفة يقصدون من وراء ذلك أن يقووا مراكزهم أمام المسلمين وحمل عضد الدولة بن بويه الخليفة الطائع لله (٩٧٤-٩٩١م)

(٣٦٣ — ٣٨١هـ) على أن يتزوج من من ابنته(١) ليكون لبنى بويه صلة من النسب والقربى بالخلفاء العباسيين وخطا السلاجقة خطوة أخرى فى ذلك السبيل حين تزوج السلطان طغرل بك السلجوقى من ابنة الخليفة القائم بأمر الله(٢) الذى حكم بين عامى ١٠٣١ - ١٠٧٥م (٤٢٢ - ٤٦٧هـ) وكان السلاجقة ـ وهم ترك أيضا ، قد حلوا محل بنى بويه فى القيام إلى جانب الخلفاء العباسيين فى بغداد منذ عام ١٠٥٥ م (٤٤٧ هـ)(٣) .

على أن الذى يدعو إلى الالتفات من هاتين الظاهرتين أن البيوت الاسلامية التى لم تكن من العرب أو الفرس أو الترك المتعلقة أسماؤهم

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ج ٨ ص ٢٥٧ .

(٢) انزعج الخليفة أول الأمر من ذلك الطلب ولكن لم يسعه أخيرا إلا القبول وبالرغم من ذلك فان طغرل بك ظل يقبل الأرض بين يدى عروسه عدة أيام هيبة وإجلالا . عماد الدين الأصفهانى ـ مختصر البندارى ـ دولة آل سلجوق ص ٢٤ .

(٣) مما تجدر ملاحظته أنه بالرغم من ضعف الخلفاء ذلك الضعف الشائن فى الداخل والخارج ، فان سلطتهم الروحية ظلت مرعية الجانب على أساس أنهم خلفاء النبى عليه السلام وأن الأحكام لا تكون شرعية إلا إذا صدقوا عليها ، ولذلك لم يستطع الأمراء والحكام الذين استقلوا عن الدولة سياسيا أن يستقلوا عنها دينيا ، فاذا كون أحدهم لنفسه اضطر أن يرسل إلى الخليفة يبايعه ويطلب أن يقلده حكم ولايته وذلك تثبيتاً لسلطته أمام الجمهور من المسلمين فعضد الدولة البويهى بالرغم من استبداده بالخليفة ومخالفته له فى المذهب ومغالاته فى التشيع فانه أمر بعمارة دار الخلافة . أما السلطان السلجوقى محمود فقد مرض مرة عقب نزاع بينه وبين الخليفة العباسى المسترشد بالله فظن أن مرضه يرجع إلى معاداته للخليفة ولذلك أمر بأن يحمل فى محفة ويمر به على قصر الخليفة ليطلب صفحه ورضاءه ودعاءه . والقصص التى تشبه ذلك كثيرة .

ابن الأثير ، الكامل ج ٨ ص ٢٨٣ ، الحسينى أخبار الدولة السلجوقية ص ٩٨

بالدول الاسلامية فى عصورها الأولى قد أخذت ترنو إلى مركز الصدارة فى العالم الاسلامى كله وليس عجباً أن يرنو غيرها إلى مثل ذلك أو ما يشبهه كإقامة دولة مستقلة بإقليم من الأقاليم وهو ما استطاعه الكثير من الرجال من قبل ومن بعد ومنهم بنو أيوب .

أما السلاجقة الذين أخذوا مكان البويهيين فى القيام إلى جانب الخلفاء العباسيين ، فكانوا سنيين ، بل مغالين فى تعصبهم للمذهب السنى ، ومن ثم باتوا يعتقدون أن من أهم واجباتهم أن يعيدوا إلى حظيرة السنة ما استولى عليه الشيعة من الأقطار(١) ، وأن يسحقوا المذهب الشيعى أنى وجدوه ، ويدل على ذلك أنهم لم يلبثوا إلا قليلا حتى انحدر فريق منهم إلى الشام(٢) فى عام ١٠٧٠م (٥٦٤٢) وحتى استولى أحد قوادهم وهو آتسز على دمشق عام ١٠٧٥م (٤٦٧هـ) وسار آتسز بعد ذلك صوب الحدود المصرية يريد أن يهاجم الشيعة فى عقر دارها وأحدث اقترابه من مصر ضجة كبرى بين المصريين لما عرف عن آتسز من الجور والعسف والطغيان ، ولأن الجيش المصرى كان فى ذلك الوقت فى الصعيد يحارب بعض الخارجين على الخلافة الفاطمية فى القاهرة واستعد بدر الجمالى للقاء آتسز استعداداً طيباً بأن أفسد عليه بعض قواده وكاتب جنوده يغريهم بالخروج عليه ، كما أعطى المال والسلاح لثلاثة آلاف من المصريين الخارجين إلى الحج ، وأقنعهم بأن جهاد

(١) اعتبر السلاجقة أنفسهم حماة للخلفاء العباسيين ومن هنا وضعوا أنفسهم موضع الأعداء الألداء للخلفاء الفاطميين فى القاهرة وحاولوا أن يستولوا على أملاكهم فى الشام وأن يهدموا دولتهم نفسها فى مصر Gibb The Damascus Chronicle of the Crusade P. 19-20

(٢) نفس المصدر ص ٢٠ .

العدو أفضل من الحج(١) فلما التقى الفريقان ظاهر(٢) القاهرة فى عام ١٠٧٦م (٤٦٩ هـ) هزم آتسز وافلت فى نفر يسير من أصحابه إلى الرملة ومنها إلى دمشق(٣) .

وكانت الشام قبـل مجىء السلاجقة مقسمة بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية الأولى فى الجنوب والثانية فى الشمال(٤) ، وتنتشر فى ربوعها القبائل العربية المختلفة ، فأقامت قبيلة طىء فى الجزء الجنوبى من صحراء الشام ، وسكنت قبيلتا عقيل وكلاب فى الجزيرة وكانت قبيلة كلاب تحت قيادة صالح بن مرداس(٥) ، وبفضله استولت على حلب سنة ١٠١١ م ، ولـكنها فقدتها عام ١٠٧٩م للسلاجقة فتفرقت القبيلة بعـد ذلك إلى أن استطاعت أخـيراً أن تحتفظ بقلعة جعبر على نهـر الفرات بالقرب من

---

(١) سبط بن الجوزى — مرآة الزمان حوادث سنة ٤٦٩ هـ .

(٢) يذكر ابن القلانسى أن آتسز تقدم حتى ظاهر القاهرة حيث دارت المعركة (ص ١٠٩—١١١) بينما يقول لين بول أنه لم يتقدم إلى أكثر من غزة والعريش (ص ١٦١ تاريخ مصر فى العصور الوسطى) ، والمفاضلة بين المرجعين تدعو إلى ترجيح ماجاء بابن القلانسى ، ولعل لين بول لم يطلع على ذلك المرجع .

(٣) ذكر ابن القلانسى أن السلطان ملكشاه أراد أن يغزو مصر سنة ٤٨٥هـ وكان حين عزم على ذلك مقيما فى أصفهان ، فلما وصل إلى همذان وثب رجل ديلمى من الباطنية على وزيره نظام الملك فقتله فحزن عليه السلطان حزنا شديدا ولم يلبث ملكشاه أن توفى بعد وزيره بقليل .

ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١ .

(٤) Lamonte P. 163 .

(٥) كان صالح بن مرداس يسكن حوالى سنة ١٠١١ بالقرب من حلب وقد حدث سنة ١٠٢٣ م (٤١٤ هـ) أن ثار سكان تلك المدينة على حاكمها الفاطمى واختاروا صالحا حاكما عليهم وهذا هو منشأ حكم ذلك البيت فى تلك المدينة Laue-poole, The Mohammadan Dynastics P. 114.

حلب . وكذلك استقل عين الدولة بن أبي عقيل قاضي صور بتلك المدينة حتى استعادها الفاطميون(١) ثانيـة سنة ١٠٨٩م (٤٨٢ هـ) ، وسلك حسن بن عمار قاضي طرابلس السبيل نفسها على حساب الفاطميين حتى أجلاه عنها الصليبيون . أما على بن منقذ فقد كون لنفسه أمارة عربيـة هامة فى شيزر(٢) سنة ١٠٨١ م (٤٨٤ هـ) واستمرت تلك القلعة فى أيدى ذلك البيت حتى الزلزال المشهور الذى حدث سنة ١١٥٧ . وفى حمص استقر خلف بن ملاعب سنة ١٠٨٢ م (٤٧٥ هـ) نائباً عن الأمير العقيلي صاحب حلب وكان غرض ذلك الأمير أن يكون ابن ملاعب حاجزاً بينـه وبين دمشـق ولـكن الفاطميين أجـلوه عنها(٣) سنة ١٠٩٠ م (٤٨٧ هـ) .

تلك هى القبائل العربية التى انتشرت فى الشام قبل مجىء السلاجقة إلى تلك البلاد فلم يكن بد من أن تتلقى الصدمة السلجوقية الأولى ، وأن تفقد استقلالها الـكامل على أيديهم . ويقال مثل ذلك بصدد القبائل الـكردية التى استطاع بعض البارزين من رجالها أن يكون لنفسه دولة أو أسرة حاكمة ، سقطت جميعها على أيدى السلاجقة أيضاً .

وتاريخ الأكراد ـ فى الواقع ـ تاريخ طويل(٤) ، لا دخل له فى هذا

(١) كان عين الدولة قد توفى فلم يستطع أبناؤه مدافعة المصريين فسلموها لهم انظر ابن القلانسى ص ١٢٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١١٣ (اشترى ابن منقذ حصن شيزر من الصليبيين) .

(٣) نفس المصدر ص ١١٥ ، ١١٠ ، ١٢١ .

(٤) هناك مصدران عربيان عن تاريخ الأكراد أولهما «خلاصة تاريخ الـكرد وكروستان تأليف أمين زكى بك باللغة الـكردية وترجمه إلى العربيـة محمد على عونى .
والثانى «من عمان إلى العمادية أو جولة إلى كردستان الجنوبيـة» تأليف على سيدو الـكورانى . وأغلب الظن أنهما المرجعان الوحيدان باللغة العربية عن هذا الموضوع .

الموضوع إلا فيما يختص بتلك الأمارات والدويلات التى أقامتها القبائل الكردية المختلفة مع تبعيتها لبنى بويه والخلافة العباسية أحياناً فى القرن الحادى عشر الميلادى أو بقليل ، كدليل يوضح إلى حد كبير مدى نشاط ذلك العنصر ويعطى صورة عن الحالة العامة بالشرق الأدنى فى ذلك الوقت وهو الغرض الأساسى من كتابة هذا الفصل .

ومن الإمارات الكردية . تلك الإمارة التى أسسها حسنوية بن الحسن والتى دام حكمها أكثر من نصف قرن من سنة ٩٥٩ إلى سنة ١٠١٥ م (٣٤٨ – ٤٠٦ هـ) وشملت ديناور وهمدان ونهاوند وقلعة سرجاح وغيرها(١) . وقد كان حسنويه زعيما لقبيلة البرزكانية التى انتشرت فى كردستان(٢) . وقد بلغت قوته حدا جعل بنى بويه لا يتعرضون له ولا يحاولون الانتقاص من ملكه . ولما توفى حسنويه سنة ٩٧٩ م (٣٦٦ هـ) خلفه ابنه بدر . وهو الذى منحه الخليفة العباسى لقب ناصر الدولة . ثم توفى بدر هذا سنة ١٠١٤ م (٤٠٥ هـ) وجاء بعده ابنه الظاهر إلا أنه لم يبق فى الحكم إلا عاما واحدا . إذ استولى بنو بويه على ملكه ، ثم قتلوه بعد ذلك بقليل(٣) .

وكذلك أسس باذين دستك أمارة كردية أخرى فى ديار بكر منذ أواخر القرن العاشر الميلادى . وكان ذلك الرجل زعيما لقبيلة الأكراد الحميدية التى انتشرت بضواحى الموصل(٤) . وكما كان للهذبانيه قلعة

---

(١) Lanc Poole. The Mo hammadan Dqnastiss. P. 138 .

(٢) ابن خلدون — العبر ج ٤ ص ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٥٤ .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ج ٢ ص ١١٣٧ مادة .

(٤) ابن خلدون ، العبر ج ٤ ص ٢٥١ .

أربل وصاحبها أبو الحسن بن موشك وهكذ (١) . ولما توفى عضد الدولة بنى بويه سنة ٩٨٢م (٣٧٢هـ) وآنس باذ من نفسه القوة استولى على آمد وميافارقين و نصيبين . وخشى صمصام الدولة الذى خلف عضد الدولة ـ ازدياد نفوذ باذ فأرسل حملة حربية للقضاء عليه . ولكن الحملة هزمت . واضطر قائدها إلى الالتجاء إلى الموصل التابعة لبنى بويه فثار عليه أهلها وعندئذ دخلها باذ سنة ٩٨٣ م (٣٧٣ هـ) ، ولم يكتف بذلك بل فكر فى القضاء على البويهيين وإنهاء حكمهم فى بغداد(٢) . إلا أن صمصام الدولة هزمه فى السنة التالية ، وحال بينه وبين تحقيق مشروعه الجرىء ، وخلعه من ديار بكر . وضمها إلى أملاك أبى المعالى بن حمدان صاحب حلب ، غير أن ابن حمدان لم يستطع دخول ديار بكر ، ولذلك دارت المفاوضات بين صمصام الدولة وبين باذ ، بقصد الصلح وانتهى الأمر فعلا بأن أصبح لباذ ديار بكر(٣) على أن يترك بقية ما استولى عليه من البلاد .

ثم أراد باذ أن يستولى على الموصل . فجمع عدداً كبيراً من الأكراد البشنوية(٤) وهاجمها واستعان الحمدانيون ـ أصحابها الأصليون ـ ببنى عقيل وبالبويهيين . فلما دارت المعركة بين الفريقين هزم باذ(٥) ، وقتل عند أسوار تلك المدينة .

---

(١) نفس المصدر ص ٢٦٣ .

(٢) دائرة المعارف جـ ٢ ص ١١٣٧ مادة Kurds ، ابن خلدون جـ ٤ ص ٢٥١ .

(٣) ابن خلدون ، العبر جـ ٤ ص ٢٥٢ .

(٤) دائرة المعارف الاسلامية جـ ٢ ص ١١٣٧ مادة .

(٥) ابن مسكوية ، تجارب الأمم جـ ٣ ص ١٧٦ ـ ١٧٨ .

وعند وفاته أسرع ابن أخته أبو على مروان بن دستك إلى حصن كيفا حيث كانت تقيم زوج خاله المتوفى فتزوجها(١) ثم تجهز وهاجم الموصل وأسر أبا عبد الله الحمدانى(٢)، وانصرفت همته بعد ذلك إلى العناية بإقليم ديار بكر فأقام فيها دولة نسبت إليه وهى الدولة المروانية التى دام حكمها أكثر من مائة سنة فيما بين عامى ٩٩٠ - ١٠٩٦ م (٣٨٠ - ٤٨٩ هـ). وقد اكتسب بعض أمراء تلك الدولة شهرة مستمدة من الحوادث التى صادفتهم كأبى نصر أحمد بن مروان(٣) (٤٠٢-٤٥٣ هـ) الذى بدأت طلائع السلاجقة فى عهده تغزو ذلك الإقليم فدخل نصر فى طاعة طغرل بك السلجوقى سنة ١٠٥٠ م (٤٤٢ هـ).

تلك هى أهم الإمارات والدويلات الكردية التى قامت منذ القرن العاشر والتى استقرت ببعض بلاد الشرق الأدنى قبيل الدولة الأيوبية الكردية فى مصر.

أما قبيلة الروادية — وهى القبيلة الكردية التى انبعثت منها الأسرة الأيوبية فهى بطن من بطون الهذبانية. وقد انتشرت تلك القبيلة حول جنزة(٤) زمن زعيمهم شداد بن كرتو(٥) حوالى سنة ٩٥١ م (٣٤٠هـ) وفى سنة ١٠٧٩ م (٤٦٥ هـ) اشترى أحد رجالها البارزين وهو المدعو سوار مدينة آنى(٦) ومنذ ذلك الوقت انقسمت الروادية شعبتين إحداهما

---

(١) نفس المصدر ص ١٧٨، ابن خلدون، العبر ج ٤ ص ٢٥٣.

(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ١٧٨ (ابن مسكويه).

(٣) لأبى نصر ترجمة موجزة فى وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٧.

(٤) اسم مدينة بأران وهى بين شروان وآذربيجان وهى التى تسميها العامة كنجه. راجع ياقوت، معجم البلدان ج ٣ ص ١٥١.

(٥) Ency. Isl. vol II P. 1138.

(٦) قلعة حصينة ومدينة بأرض أرمينية بين خلاط وكنجة. ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ٦٥.

فى جنزة والأخرى فى آنى . وهذا هو أهم ما يمكن استخلاصه عنها من المراجع .

على أن هدم استقلال القبائل والدويلات العربية وغير العربية لم يكن كل ما أحدثه السلاجقة بالبلاد التى دانت لهم ، بل ينسب إليهم شيوع النظام الاقطاعى ببلاد الشرق الأدنى . وهذا هو أهم ما يتصل بموضوع البحث من تاريخ الدولة السلجوقية كله لأنه يفسر كثيراً من المبادىء والحوادث والأطماع التى كان المعاصرون ومنهم بنو أيوب يتطلعون إلى تحقيقها .

ذلك أن الدولة السلجوقية نشأت حربية ، واعتمدت إلى حد كبير على الجيش فيما هو حربى وغير حربى من نواحى الحكم والإدارة . وقد تكوّن ذلك الجيش من نوعين من الجنود أحدهما مرتزقة والآخر أرقاء(١) ومن النوع الثانى كان معظم القواد الذين عمل السلاطين على تنشئتهم وإعدادهم لولاية زمام الأمور الحربية وغير الحربية على اعتبار أن نشأتهم فى البلاط السلجوقى يزيد فى إخلاصهم للدولة(٢) ، وفناء شخصياتهم فى شخصيتها ، وهذا هو ما سار عليه الأتراك العثمانيون فيما بعد .

والوقع أن سياسة السلاطين السلاجقة جرت على قاعدة ألا يعهدوا بالوظائف الأساسية فى الدولة لرجال من الأحرار(٣) لأن إخلاصهم لابد أن يكون موضع الشك . وكذلك فعلوا بالنسبة للجيش ، فانهم لم

---

(١) Lanc Poole, Saiadin. P. 15. Yibl P. 32-33.

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢١٦ .

(٣) Lane. Poole, The Nohammadan Dynastics P. 159.

يعتمدوا على جنس واحد فى تكوينه بل عملوا على أن يشمل أجناس الدولة جميعاً (١). وعلى ذلك تكوّن الحرس الخاص للسلطان من الأرقاء، وأصبح منهم كبار الموظفين (٢)، ووضع لتعيينهم وترقيتهم نظام خاص يلائم مواهبهم واستعدادهم الفطرى ويشمل سلك وظائفهم من منشئهم حتى يعتقوا فى النهاية ويصبحوا أحرارا (٣).

ولكن ما هو الأجر الذى يتقاضاه أولئك الرجال بعد عتقهم وإسناد الوظائف الرئيسية المختلفة إليهم فى مقابل ذلك بحكم القلاع والمدن بل بحكم الأقاليم فى بعض الأحيان يحكمونها باسم السلطان ويورثونها لأولادهم من بعدهم (٤). ولم يكن الأمر كذلك — على حد قول المقريزى — قبل السلاجقة وإنما كان الخلفاء من بنى أمية أو بنى العباس يقطعون الأراضى لنفر من خواصهم، ينفقون من خراجها على الجند وغير ذلك من باقى الكلف. ويحمل ما يبقى إلى بيت المال، أما الأرض فتبقى فى يد مقطعها (٥).

نشر السلاجقة ذلك النظام فى الاقاليم التى وضعوا أيديهم عليها (٦).

(١) Siaset Naméh, Traduit Par Charles Schefer P. 135 .

(٢) Saladin P. 15 .

(٣) Ibid. .

(٤) دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) المجلد الثانى العدد السابع ص ٤٧٨ .

(٥) المقريزى الخطط ج ١ ص ١٥٦ .

(٦) قبل ظهور السلاجقة انتشر ذلك النظام فى بعض أرجاء الدولة العباسية كنتيجة حتمية لضعف السلطة المركزية إذ كان يعهد لكبار القواد وهم من الأرقاء بحكم بعض الاقاليم وتكوين جيوش خاصة بهم إلى غير ذلك .

أى أن جزءاً كبيراً من الشرق الأدنى ، بل الشرق الأدنى كله ما عدا مصر التى لم يمتد سلطانهم إليها أصبح محكوما بأولئك الضباط الأرقاء ، بعد أن يمنحهم السلطان تفويضاً بذلك ، محتفظاً لنفسه بالحق فى منعهم من مباشرته متى أراد . ثم أصبحت لهم حقوق وأصبحت عليهم واجبات فمن حقهم أن يحكموا اقطاعاتهم وأن يفرضوا على سكانها الضرائب إلى غير ذلك من مظاهر الحكم والسلطة . ومن واجباتهم أن يؤدوا التزاماتهم الحربية للسلطان إذا طلب منهم ذلك . وعلى ذلك المبدأ قامت الدول الأتابكية فى دمشق والموصل وأذربيجان وغيرها . وهى الدول التى ورثت دولة السلاجقة عندما تفككت بعد سلاطينها العظام(١) .

ثم سار أولئك الحكام بدورهم على نفس تلك السياسة ، فمنحوا بعض الأجزاء لأتباعهم يحكمونها مقابل إمدادهم بالجنود — كما هو الحال بينهم وبين السلطان ، فإذا حدث ما يدعو إلى القتال استطاع السلطان أن يجمع الجنود من أنحاء مملكته الواسعة ، فإذا انتهت المعركة رجعوا إلى بلادهم ليمضوا فصل الشتاء ثم عادوا كرة أخرى إلى القتال فى الربيع التالى إذا استدعى الموقف ذلك(٢) .

المنتظر أن يؤتى ذلك النظام ثمرته المرجوة ما دام السلطان قويا حازما يستطيع إذا جدّ الجد أن يوقف اتباعه عند حدهم ، أما إذا عجزت السلطة المركزية عن أداء وظيفتها الطبيعية وفشلت فى إخضاع المغامرين وذوى الأطماع فإن النتيجة المحتومة أن يكون النظام الاقطاعى عاملا من عوامل الهدم والانحلال لا من عوامل القوة والتماسك ، فان أولئك

---

(١) أنظر Lane Poole, The Mohammadan Dynasties. P. 160 .

(٢) Lane - Poole, Soladin. P. 16 .

الحكام عندئذ يهتمون بالتكوين لأنفسهم ولأسرهم كما حدث فعلا فى الشرق والغرب على السواء .

ولذلك أدى النظام الإقطاعى ما يرجى منه من خدمات فى الوقت الذى ظل السلاطين السلاجقة فيه أقوياء . قابضين بأيد قوية على نظام الحكم والإدارة المركزية ، فلما ضعفوا وانقسموا على أنفسهم كان ذلك النظام عاملا هاماً من العوامل التى هدمت دولتهم وانتهت بها إلى الانحلال(١) .

والنتيجة الهامة التى يمكن الوصول إليها مما تقدم كله والتى يمكن أن تعلل إلى حد كبير أطماع الأسرة الأيوبية وغيرها هى أنه كان طبيعياً ومألوفاً أن يصل إلى أعلى المراتب رجال من عامة الناس بل من الأرقاء ممن فهموا روح العصر الذى يعيشون فيه ومبادئه السائدة وأرادوا أن يفيدوا منها . والبيت الزنكى الآتابكى نفسه دليل على صحة هذا القول فإن آقسنقر مؤسس ذلك البيت لم يكن إلا من الرقيق الذين نشأوا فى البلاط السلجوقى وأفادوا من الظروف المحيطة بهم إذ كان من أتراب السلطان ملكشاه فى صغره(٢) وقد تقلب آقسنقر فى الوظائف المختلفة حتى عينه ملكشاه حاكما على مدينة حلب وأعمالها سنة ١٠٨٧ م (٤٨٠ هـ) بإشارة من وزيره نظام الملك(٣) فبقى بها إلى أن قتل وهو يدافع عنها سنة ١٠٩٤م

(١) Lane Poole, Saladin P. 22 .

(٢) الروضتين جـ ١ ص ٢٤ ، ابن خلكان ، الوفيات جـ ١ ص ٧٩ .

(٣) الظاهر ان نظام الملك خشى ازدياد نفوذ آقسنقر فأراد أن يبعده عن السلطان ولذلك أشار بتولية مدينة حلب Dictionaire des Croisades p. p. p. p. 77 - 1037.

(٤٨٧ هـ) وذلك أثناء حروب السلطان بركيا روق(١) بن ملكشاه ضد عمه تتش بن ألب أرسلان(٢) . ومثله ظهير الدين طغتكين أيضاً ، وارتق التركمانى وغيرهما من الشخصيات التى سيرد ذكرها بعد قليل فإذا قيل بعد ذلك إن نجم الدين أيوب كانت له ولأسرته أطماع وإنه فهم جيداً روح العصر الذى عاش فيه وأدرك ما ينبغى أن يسلكه من خطوات لتحقيق تلك الغاية التى حققها من قبل بعض الأفراد من العنصر الكردى نفسه ومن قبيلة أيوب ذاتها لم يكن فى ذلك القول شىء غريب وإنما هى طبيعة الحياة فى ذلك الوقت وطبيعة المعاصرين المغامرين .

وقد جاءت الفرصة الصالحة المناسبة لتحقيق أغراض أولئك المغامرين إذ توفى السلطان السلجوقى الحازم ملكشاه سنة ١٠٩٢ ومن بعده قام النزاع العنيف بين أبنائه وأخوته على السلطنة وتبع ذلك بالضرورة ضعف السلطة المركزية فتعرضت الدولة لخطرين كبيرين أحدهما من الداخل والآخر من الخارج .

أما الخطر الداخلى فهو أن الإقطاعات التى أنشأها السلاجقة بقصد الدفاع عن امبراطوريتهم قد تحولت إلى عامل هام من عوامل القضاء عليها ، وتحول حكامها وأمراؤها إلى أوصياء أو أتابكة على أبناء السلاطين وتحولت تلك الحقوق المكتسبة التى منحهم إياها السلاطين عن طيب خاطر إلى سلطة فعلية ووراثية فى أيدى أولئك الحكام والأمراء يورثونها

(١) كان آفتقر أول الأمر من المؤيدين لتتش ثم انفصل عنه وانضم لبركياروق فقصده تتش وفى المعركة التى دارت بينهما أسر افتقر وقتل ، ابن القلانى ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٦ .

(٢) طلب آفتقر النجدة من بركياروق فلم ينجده وظل عاكفا على شرابه ولهوه . الحسينى — أخبار الدولة السلجوقية ص ٧٦ .

أبناءهم من بعدهم ، وعلى ذلك الأساس قام كثير من الأسر الحاكمة بالشرق الأدنى وهى دول لاينتمى مؤسسوها - كما هو واضح - إلى بيت واحد أو نسب واحد . وإنما يجمعهم مبدأ الخدمة فى بلاط السلاطين السلاجقة وغالبيتهم من الرقيق الذين نشأوا فى ذلك البلاط وظهروا على أيدى أولئك السلاطين . فأتابكة الموصل ينتمون إلى عماد الدين زنكى بن آقسنقر وهو مملوك لملكشاه ، وأتابكة دمشق ينتمى نسبهم إلى ظهير الدين طغتكين أحد مماليك تتش بن ألب أرسلان(١) والدولة الأرتقية تنسب إلى أرتق التركمانى أحد مماليك السلطان ملكشاه(٢) أيضا وهكذا . وقد جاء قيام تلك الدويلات والأسر الحاكمة مثلا عملياً واقعياً أمام ذوى الأطماع من المغامرين الذين عملوا على أن يسلكوا سلوكهم ويؤسسوا لأنفسهم بيوتاً حاكمة مثلهم ، ومن أولئك نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين شيركوه والأسرة الأيوبية الكردية بوجه الاجمال .

أما الخطر الخارجى فيتمثل فى الحروب الصليبية وهى تلك الحروب التى يتفق المؤرخون الآن جميعاً(٣) على أن أهم عامل فى نجاحها إنما يرجع إلى عدم وجود قوة موحدة إسلامية تستطيع أن تقف فى طريقهم وعلى

---

(١) عين تتش ظهير الدين طغتكين اتابكا لابنه دقاق ، وأسر طغتكين فى موقعة الرى وهى الواقعة التى قتل فيها تتش ولكنه استطاع ان يهرب وأن يعود إلى دمشق سنة ٤٨٨ هـ وبعد سلطته هناك كأتابك للأمير دقاق بمساعدة صفوة الملك أم ذلك وزوجة تتش .

انظر ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٠ — ١٣٢ .

(٢) ذكر لين بول نبذا مختصرة وواضحة عن تلك الدولة فى كتابه The Mokammadan Dynasties ص ١٥٩ وما بعدها .

(٣) The Orab Heritage; Lamonte, Crusade & Jihad P. 163

زيادة مصر والحروب الصليبية ص ٢ .

ذلك الأساس استطاعوا بسهولة أن يكونوا أماراتهم اللاتينية الأربعة فى الرها وأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس فيما بين عامى ١٠٩٨-١١٠٩م .

وقد وضح لبعض أمراء الشرق الأدنى أمثال قربوجا أتابك الموصل وطغتكين أتابك دمشق وغيرهما – بعد أن وضحت أغراض الصليبين الحقيقة – أنه لا سبيل إلى مدافعة تلك الدول الصليبية إلا بتكوين جبهة إسلامية متحدة ذات قوة حربية كبيرة . ومن أولئك الشخصيات أيضاً عماد الدين زنكى .

أما عماد الدين زنكى فهو ابن آقسنقر أتابك حلب(١) والذى توفى سنة ١٠٩٤م (٤٨٧ ﻫ) تاركا ابنه زنكى طفلا لا يتجاوز العاشرة من عمره . وقد كفل زنكى صديق من أصدقاء أبيه المخلصين ، وهو قربجا حاكم الموصل وأعظم الشخصيات الحاكمة بالجزيرة فى ذلك الوقت فقدم لابن صديقه الراحل كثيراً من الخدمات واستدعاه واستدعى مماليكه إلى بلاطه وإشرف بنفسه على تربيته(٢) ودربه على الحرب والقتال . وفى البلاط الموصلى قضى زنكى بضعة أعوام من حياته ، كان فيها موضع رعاية قربجا حتى وفاته سنة ١١٠١م (٤٩٤ ﻫ) وموضع عطف خلفائه(٣) كذلك اشتهر زنكى بالشجاعة والجرأة وبقى حيث هو حتى بلغ الثامنة والثلاثين من عمره وبالرغم من أن الظروف لم تسمح له بان يقوم بدور هام خلال تلك الفترة من حياته ، إلا أنه لا يمكن القول بأنها مرت عبثاً ، إذ شاطر فى تلك الحروب المتصلة بين المسلمين والصليبيين فكان نشأته

(١) انظر ص ١١ من الرسالة . وراجع ترجمة زنكى فى ابن خلكان الوفيات جـ ١ ص ١٩٣ .

(٢) أبو شامة ، الروضتين جـ ١ ص ٢٧ .

(٣) ملك بعد قربجا موسى التركمانى ثم شمس الدولة جكرمش وهو من مماليك ملكشاه أيضا ثم جاولى ثم مودود – الروضين جـ ١ ص ٢٧ .

فى تلك البيئة اثرت فى تكوين شخصيته وتحديد أهدافه وسياسته فيما بعد كزعيم للجهاد ضد الصليبيين .

وفى سنة ١١٢٢م (٥١٦ هـ) أقطع السلطان مسعود السلجوقى الأمير زنكى إقليم واسط(١) وقد أثبتت الحوادث التى تلت أنه جدير بما نال من ثقة إذ تدخل فى النزاع الذى ثار بين الخليفة و بين دبيس بن صدقة أمير الحلة(٢) وكان زنكى على ميمنة جيش الخليفة ، ولولا أنه قام بحركة التفاف حول جيش الأعداء لاستمر جند الخليفة فى ارتدادهم وولوا منهزمين ، ولكنه أدرك الموقف المناسب فارتد دبيس وجيشه ثم فر ، وكان لزنكى فضل غامر فى ارتداده وفراره . ثم أخذ زنكى من بعد ذلك يغامر فى حوادث العراق حتى أصبح مستحفظا لبغداد وحاكما على العراق . وفى سنة ١١٢٧م (٥٢١هـ) اختاره المسترشد العباسى حاكما على الموصل والجزيرة(٣) ثم سلم إليه السلطان ولديه محمود وفروخشاه ليربيهما فمنح على ذلك لقب أتابك .

وقد أصبح زنكى بحكم موقعه وموقع أملاكه الجغرافى زعيم المسلمين فى النزاع القائم بينهم وبين الصليبيين ، فتجرد لحمل تلك الرسالة ، واتبع ليحققها سياسة رشيدة فبث العيون والإرصاد(٤) فى بلاط أتباعه وأعدائه

---

(١) الروضين ج ١ ص ٢٩ ، Stevenson, The Crusades in the East P. 122.

(٢) ابن خلدون ، العبر ج ٣ ص ٤٠٣ ، أبو شامة الروضين ج ١ ص ٢٩ .

(٣) ابن خلكان ، الوفيات ج ١ ص ١٩٣ — الروضين ج ١ ص ٢٩ — ٣٠ .

(٤) تلك بعض تعاليم ملكشاه ونظام الملك . وكانت عند المعاصرين كالنبوية المتبعة — كما يقول أبو شامة « ج ١ ص ٢٩ » وعلى نفس المبدأ سار صلاح الدين فيما بعد فى مصر فأمن شر أعدائه وأحبط كل محاولاتهم التى قاموا بها ضده .

على السواء ، بل بث عيونه فى بلاط السلطان السلجوقى نفسه ، وحرص أشد الحرص على أن تصل إليه أخبار الصليبيين وفى نفس الوقت ألا يصل إليهم من أخباره شىء . وكما أن نشأة زنكى فى البلاط الموصلى قد ساعدته على أن يسير وفق السياسة التى سار عليها فيما بعد فإن شخصيته من ناحية أخرى كانت ذات أثر فعال فى نجاح تلك السياسة إذ كان مهابا ـ والقصص التى تدور حول ذلك المعنى كثيرة ـ عليما بأقدار الرجال فتأتى له بذلك أن يجمع حوله ثلة من الرجال المخلصين الأقوياء كنجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه وغيرهما .

ومبدأ اتصال زنكى بالأخوين أيوب وشيركوه أنه أخذ يتدخل فى النزاع بين السلاطين السلاجقة بعضهم وبعض ، أو بينهم وبين الخليفة ، وفى نزاع من ذلك النوع انضم زنكى إلى السلطان محمود ضد الخليفة العباسى المسترشد بالله ولكنه هزم فأصبح عليه أن يعبر نهر دجله ، وسهل له نجم الدين أيوب ـ وهو حاكم تكريت ـ وقتذاك ـ هو وأخوه شيركوه طريق العبور ـ وسيأتى ذلك أكثر تفصيلا فى موضعه من الفصل الثانى .

وحاول الخليفة ـ بعد أن هزم زنكى أن يستولى على الموصل ولكنه ردّ عنها مخفقا(١) . أما زنكى فقد وجد ألا بدله من الاستيلاء على دمشق كخطوة حازمة لازمة لجهاده ، ويقال أن شمس الملوك اسماعيل أتابك تلك المدينة كاتبه ليسلمها إليه(٢) . وأدرك الصليبيون مايهددهم من خطر أن نجح زنكى فى الاستيلاء على دمشق فساعدوها ضده(٣) . أما شمس الملوك فقد ثار عليه مماليكه وغضبت عليه والدته فقتل بعلم

(١) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ٢ .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ٩ .
(٣) Stevenson P. 134 .

منها(١) وتسلم مقاليد المدينة بعده أخوه شهاب الدين محمود فلما حاصر زنكى المدينة فى يوليو سنة ١١٣٩ (جمادى الأولى سنة ٥٣٤) لم يفز منها بطائل ، فاكتفى بالاستيلاء على بعلبك(٢) فى نفس العام ثم عاد إلى الموصل ليجرب حظه فى ميدان جديد .

لم يكن ذلك الميدان الجديد سوى مدينة الرها وقد اتبع زنكى - لكى يتم له الاستيلاء عليها - سياسة عميقة فأخذ يراسل مانويل كمنين امبراطور الدولة البيزنطية يحذره من الصليبيين ويراسل الصليبيين فيحذرهم جانب الإمبراطور(٣) .

ويبدو أن تلك السياسة آتت أكلها فنشب النزاع بين الفريقين(٤) بالإضافة إلى أسباب أخرى .

ثم أخذ زنكى يطهر المدينة مما قد يعوق هجومه عليها ، فاستولى على شهزور وعلى حصون الأكراد(٥) المنتشرين فى تلك الجهات ، وصاهر شاه أرمينيا وراح يستولى على مدن العراق الأعلى مدينة تلو مدينة حتى انتهى به المطاف إلى حصار آمد . ولكن زنكى لم يكن يقصد آمد لذاتها ، وإنما اتخذها سلماً لفتح الرها ، ونجح فى فتحها فعلا

---

(١) يقول ابن الأثير « الكامل ج ١١ ص ٩ » أنه لما انتشر الخبر بمكاتبة شمس الملوك لزنكى بقصد تسليم دمشق إليه امتعض مماليك أبيه وجده وأظهروا ذلك السخط لوالدته فأمرت غلمانها بقتله ، فقتلوه وأمرت بالقائه فى موضع من الدار يشاهده فى غلمانه وأصحابه ، فلما رأوه قتيلا سروا لمصرعه واستراحوا من شره .

(٢) نفس المصدر ج ١١ ص ٣١ — ٣٢ .

(٣) الروضتين ، ج ١ ص ٣٢ .

(٤) Stevenson p. 149 .

(٥) الروضتين ج ١ ص ٣٦ .

سنة ١١٤٤ م (٥٣٩ هـ) فجاء نجاحه هذا تتويجاً لأعماله الحربية كلها(١)

وهز سقوط الرها جميع القوى الصليبية بالشرق والغرب فجردت لاستردادها الحملة الصليبية المعروفة بالحملة الثانية وهى الحملة التى انضم إليها ملكان متوجان هما لويس السابع ملك فرنسا وكنراد الثالث امبراطور الدولة الرومانية المقدسة إلا أن الأجل لم يمتد بزنكى ليقوم بنصيبه فى مقاومة تلك الحملة إذ توفى قتيلا فى سبتمبر سنة ١١٤٦ (٥٤١ هـ)(٢) . تاركا أربعة أولاد منهم سيف الدين غازى ونور الدين محمود وموضع الحديث عن ذلك كله فى الفصل الثانى(٣) .

هذا ما كان من أمر الهيئة التاريخية التى عاش فيها أيوب وشيركوه مؤسسا الدولة الأيوبية وحسب الخلافة العباسية ما تقدم من إشارات عما بلغته من ضعف وانحلال وقلة نفوذ . على أن ما قيل بصدد الخلافة العباسية يمكن أن يقال مضاعفاً بالنسبة للدولة الفاطمية فى القاهرة ، فان من الخلفاء العباسيين المتأخرين من شن الحروب ، وقاد الجيوش ، وأحيا من هيبة الخلافة مثل المسترشد(٤) والمقتفى(٥) بينما لايجد الباحث مثلا لتلك الإفاقة عند الفاطميين ، إذ تضافرت على إضعافهم عدة عوامل أهمها أن أمورهم كلها قد صارت بيد وزراء مستبدين قصيرى

(١) Lamonte p. 171 .

(٢) ابن القلانسى ص ٢٨٤ — ٢٨٥ ، Stevenson p. p. 151 - 152 .

(٣) انظر ما يلى .

(٤) يقول أبو شامة ، « وأما المسترشد فان استبد بالعراق بعد السلطان محمود ، ولم يكن للسلطان معه فى كثير من الأوقات سوى الخطبة ، واجتمعت عليه العساكر وقاد الجيوش وباشر الحروب » ، الروضتين جـ ١ ص ٣١ .

(٥) يقول ابن خلدون عن المقتفى ، « هو أول من استبد بالعراق منفردا عن سلطان يكون معه » . العبر جـ ٣ ص ٥٢٢ .

النظر(١) ، وسيطر أولئك الوزراء على الخليفة الفاطمى سيطرة تامة وحجبوه عن الناس ، وأوجدوا بينه وبين الشئون العامة حجاباً كثيفاً، واقتصروا على أن يختاروه من بين الأطفال حتى لقد فكر مرة أحد الوزراء وهو طلائع بن رزيك أن يولى من الفاطميين رجلا مجرباً فلامه أصحابه واضطروه إلى أن يعدل عنه إلى طفل صغير(٢) .

ومما زاد الطين بلة أن كثيراً من أولئك الوزراء العظام(٣) كانوا على غير مذهب الدولة فأساءوا إلى المذهب الفاطمى بدلا من أن يخدموه وتسببوا فى ضعفه وواجبهم أن يعملوا على تقويته .

ويضاف إلى ذلك أن الانشقاق العنيف أخذ يسود بين أنصار المذهب الشيعى ، وأصبح كل فريق لا ينى عن محاربة الآخر بالسيف واللسان ، فهناك المستعلوية أنصار الدعوة القديمة وهناك النزارية أنصار نزار بن المستنصر(٤) الذى فرّ عقب تولية أخيه المستعلى إلى

(١) وصف ابن الأثير « ج ١١ ص ٨٣ » الدولة الفاطمية فى ذلك القرن وصفا فيه بلاغ إذ قال « كانت الوزارة فى مصر لمن غلب ، والخلفاء وراء الحجاب ، والوزراء كالمتملكين وقل إن وليها أحد بعد الأفضل إلا بحرب وقتل وما شاكل ذلك » .

(٢) نفس المصدر ج ١١ ص ١١٤ .

(٣) تعتبر وزارة بدر الجمالى حدا فاصلا بين نوعين من الوزراء ، إذ كان الغالب قبل ذلك العهد أن يتولاها رجال مدنيون ، اللهم إلا فى حالات قليلة أما بعد ذلك فقد انتقلت إلى رجال السيف كنتيجة حتمية إلى حاجة الدولة إلى من يحميها . القلقشندى ج ٣ ص ٤٨٩ .

(٤) يظهر مدى افتئات الأفضل بن بدر الجمالى على حقوق الخلفاء من موقفه إزاء تنصيب خليفة بعد المستنصر ، فقد أقصى نزار بن المستنصر وأكبر أبنائه عن الخلافة وبايع بدله أخاه المستعلى بالله وقد أقصى نزارا لسببين أولهما أن نزارا كان رجلا كبيراً وله حاشية وكان يعارضه فى أيام أبيه ويستخف به فخشى منه على سلطته وثانيهما صلة القرابة التى تربط الأفضل بالمستعلى . انظر المقريزى ، الخطط ج ٢ ص ٢٧٧ .

الاسكندرية(١) ، حيث ادعى لنفسه الخلافة والامامة معا ، وتسمى باسم المصطفى لدين الله . وإلى جانب أولئك وهؤلاء يقوم « الطيبية » نسبة إلى الطيب ابن الخليفة الآمر الذى قيل إنه لم ينجب ذكرا ، ولكن أهل دعوته يقولون إنه مات عن الطيب وأنهم أخفوه وأن الدعوة بعده انتقلت إلى اليمن وإلى الهند . هذه المذاهب المختلفة شاطرت بنصيب كبير فى إضعاف الدعوة الفاطمية ثم فى إضعاف الدولة الفاطمية نفسها. وسهولة سقوطها بعد ذلك بقليل .

ومن بين العوامل التى ساهمت فى ضعف الدولة وسقوطها أيضا ما كان يحل بمصر فى العصور الوسطى من المجاعات والأوبئة والطواعين ، واضطراب الحالة الاقتصادية فيها (٢) . وإذا كانت مصر قد انتابتها تلك النوائب فى عصور غير مصر الدولة الفاطمية فإنه يبدو مما جاء فى وصف عبد اللطيف البغدادى للجماعة التى حدثت فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر لم يكن له نظير فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى كلها (٣) .

---

(١) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٨ ، ابن خلكان ، الوفيات جـ ١ ص ٥٨ ، Lane Poole, A Hist of Egypt in the Middle Ages p. 162

(٢) من نتائج اضطراب الحالة الاقتصادية عجز الخليفة عن دفع رواتب الجند وقد حدث فى عهد المستنصر الفاطمى « ١٠٣٥-١٠٩٤م » « ٤٢٧-٤٨٧هـ » إن ناصر الدولة بن حمدان مقدم الأتراك استغل تلك الحالة وفرض كلمته على الجميع حتى ليذكر المقريزى أنه خطب للخليفة العباسى القائم بأمر الله عقب نزاع بينه وبين المستنصر — فى الاسكندرية ودمياط وعامة الوجه البحرى — وقطع خطبة المستنصر فى هذه الجهات . انظر المقريزى ، الخطط جـ ٢ ص ١٤٠ .

(٣) راجع عبد اللطيف البغدادى .

يضاف إلى ذلك أن أولى الأمر فى مصر فى ذلك الوقت بدءوا يمدون أيديهم إلى الخارج يطلبون من الأجنبي العون والمساعدة ضد منافسيهم ، والدولة المستقلة التى تلجأ إلى غيرها لتسوى لها مشاكلها دولة مقضى عليها وعلى استقلالها . وقد ظلت الدولة الفاطمية تعانى تلك الحالة السيئة طويلا ، لا لأنها كانت قادرة على البقاء ، ولكن لأن جيرانها الراغبين فى القضاء عليها كانوا قد اضمحلوا أيضا ، فالسلاجقة وهم أعداؤها الألداء ، الذين انتزعوا معظم أملاكها فى الشام ، قد انتهى الأمر بهم إلى الانقسام والحروب الداخلية . أما الصليبيون الذين فكّر بعضهم فى الاستيلاء عليها ، فقد ظلوا يحلمون بتلك الفكرة أحلاماً متقطعة حتى أواسط القرن الثانى عشر .

وليس أدل على أحوال الدولة الفاطمية من تتبع حوادثها الداخلية منذ وفاة الخليفة الآمر سنة ١١٣٠ (٥٢٤ هـ) فقد توفى ذلك الخليفة دون أن يكون له ولد ، ولكن زوجه كانت حاملا ، فأصبح الوصى على الخلافة الأمير عبد المجيد الذى عرف فيما بعد باسم الحافظ لدين الله ثم أنجبت زوج الخليفة وما فى ذلك خلاف ، وإنما الخلاف على نوع المولود أذكرا جاء أم أنثى ؟ فأنصار الدعوة القديمة يقولون إنها أنجبت بنتا ولذلك أصبح الحافظ خليفة شرعيا . والبعض الآخر يقول إنها وضعت ذكراً هو الطيب نخشى أنصاره أن يقتل ولذلك أخفوه ولم يعرف عنه بعد ذلك شيئاً وسميت دعوته باسم الدعوة الطيبة (١) . وسواء أرجح الرأى الأول أم الرأى الثانى ، فالمهم هنا هو أنه وجدت دعوة جديدة أخذ

(١) يذهب ابن ميسر إلى أن الآمر أنجب ولداً فى ربيع الاول سنة ٥٢٤ هو الطيب وأنه جعله ولى عهده ، فلما قتل كتم الحافظ أمر ذلك الولد فبايعه الناس بولاية العهد . راجع تاريخ مصر ص ٧٢ ، ٧٤ .

أنصارها على عاتقهم أن يحافظوا على المذهب الاسماعيلى ، بل أن يقاوموا الخلفاء الفاطميين بعد أن سلبوا الطيب حقه فى الخلافة — كما أصبحوا يعتقدون — وبعد أن تسلط عليهم الوزراء العظام من الامامية أو السنيين (١) .

ولم يستطع الحافظ أن يقبض على دفة الخلافة إلا سنة ١١٣١ (٥٢٦هـ) أى بعد مقتل وزيره الأفضل (٢) ، إذ ظل حتى ذلك التاريخ قانعا بولاية العهد وكان الأفضل أماميا فاستبد بالخليفة وسجنه وعمل على نشر المذهب الاثنى عشرى بل لقد ضرب الدراهم باسمه (٣) وعين القضاة من الشافعية والمالكية والاسماعيلية والامامية بعد أن كان المذهب الاسماعيلى هو هو المذهب الرسمى للدولة (٤) .

وبعد أن قتل الأفضل أسند الحافظ الوزارة لأبى عبد الله بن البطائحى (٥).

---

(١) إدريس عماد الدين بن الحسن ، زهرة المعانى (نشر الهمذانى) Islamic Culture p. 21

(٢) قتل الافضل بتدبير من الخليفة . حسن إبراهيم حسن الفاطميون فى مصر ص ٢٧٩ — ٢٨١ .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك جـ ٢ ص ٢٠٠ .

(٤) لعل تلك الحال هى التى دعت أبا المحاسن أن يقول « إن الخلفاء مع هذا البيت (بيت بدر الجمالى) كانوا تحت الحجر والضيق ... أما هم فكانوا أصحاب مصر . . . وإنما كان يطلق عليهم الوزراء لأنها العادة جرت بأن الملك للخليفة وليس لهم » النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٤٨ .

(٥) استوزر الخليفة الحافظ ابنه الحسن سنة ٥٣٦ هـ ومن الطريف أن الابن استبد بالأمر دون أبيه وارتكب معه من الأخطاء مثلما ارتكب غيره من الوزراء المستبدين وكانت النتيجة أن مات مسموما بعلم أبيه — كما يقال — لأنه كان سىء السيرة جريئاً على سفك الدماء وسلب أموال الناس حتى لقد هجاه بعضهم فقال :

فلم يكن أقل استبداداً بالدولة وبالخلفاء حتى قبض عليه وعلى إخوته سنة ١١٣٤ (٥٢٢ هـ) وتلاه فى الوزارة بهرام الأرمنى . وكان بهرام وقت سقوط البطائحى والياً على الغربية . فلما سمع بخاتمته ، قدم إلى القاهرة وحاصرها فولاه الحافظ الوزارة ، ثم أخذ الوزير الجديد يعيث فى الأرض فساداً ، فأقصى المسلمين عن الوظائف وأحل الأرمن محلهم حتى ضاق ذرع المسلمين ، فبعثوا يستغيثون برضوان بن الولخشى(١) — والى الغربية بعد بهرام — وحضر إليهم رضوان سنة ١١٣٦ (٥٣١ هـ) .

وسرعان ماشق رضوان طريقه إلى الوزارة وفق الأساليب المعروفة فعزل بهرام وكثيراً من صنائعه الأرمن . وقضى بهرام بقية حياته راهباً(٢) .

ولكن العلاقة بين الخليفة ورضوان لم تلبث أن ساءت . فهرب رضوان من القاهرة فى شوال سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) ، وقصد إلى صرخد(٣) . وهناك حاول أن يتصل بزنكى ، لولا أن عاقه عن ذلك

= لم تأت يا حسن بين الورى حسناً ولم تر الحق فى دنيا ولا دين
قتل النفوس بلا جرم ولا سبب والجور فى أخذ أموال المساكين
لقد جمعت بلا علم ولا أدب تيه الملوك وأخلاق المجانين

ابن الأثير : ج ١١ ص ١٠ .

(١) انظر حسن إبراهيم حسن . الفاطميون فى مصر ص ٢١٥ .

(٢) هرب بهرام إلى الصعيد وقصد أسوان فحاربه السودان ولم يستطع دخولها فأرسل إلى الحافظ يطالب الأمان فأمنه وعاد إلى القاهرة ، ولكنه سجن بالقصر ثم ترهب وخرج من السجن . ابن الأثير . الكامل ج ١١ ص ٢٢ .

(٣) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٠ وابن الأثير الكامل ج ١١ ص ٢٢ . انظر أيضاً حسن إبراهيم حسن . الفاطميون فى مصر ص ٢١٦ .

الأمير معين الدين أنز وزير دمشق ، وكان رسوله فى ذلك أسامة بن منقذ — كما يحكى هو عن نفسه(١) — وأقام رضوان عند معين الدين مدة ثم عاد إلى مصر فى المحرم سنة ٥٣٤ ﻫ على رأس جيش كبير ، إلا أن الأتراك الذين جاءوا معه غدروا به ، فالتجأ إلى حى من أحياء العرب . وقد قبض عليه الحافظ وحبسه هو وولده ، ثم هرب رضوان من الحبس ، وحاول أن يقوم بمحاولة جديدة للوصول إلى منصبه . ولكنه قتل قبل أن يحقق شيئاً مما أراد(٢) .

ثم توفى الحافظ سنة ١١٤٩ (٥٤٤ ﻫ) وجاء بعده ابنه الظافر وعمره ست عشرة سنة فاستوزر ابن مصال ، وكان شيخاً كبيراً مكروهاً من الناس ، فنازعه ابن السلار ، وبالرغم من تعضيد الخليفة للأول وتحريضه الجند على مساعدته فإنه هزم وقتل ، ولم يبق لابن السلار من ينازعه أو يعانده ويشاققه — كما يقول أسامة(٣) — والنقطة الهامة فى النزاع بين الوزيرين أنه كان فى حقيقة الأمر نزاعاً بين المذهبين السنى والشيعى ، فابن مصال شيعى المذهب ، وابن السلار سنى شافعى(٤) ، وقد شارك فى رجوع المذهب السنى إلى مصر ، فأنشأ مدرسة للشافعية أسند إدارتها

(١) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ص ٣٠ .

(٢) يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن (الفاطميون ص ٢٩٣) . ثم جمع (ابن الولخشى) له أنصاراً كثيرين واستقر فى الجامع الأقمر أمام القصر ، غير أن جنود الخليفة السودانية هزموا أنصاره ، وشتتوا شملهم ثم ظفروا به فقطعت رأسه كما قطع جسمه إربا ، والتهمه الجند اعتقاداً منهم أنهم بذلك يماثلونه فى بأسه وشجاعته . انظر أيضا أسامة ، الاعتبار ص ٣١ ، ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٣ .

(٣) الاعتبار ص ٧ — ٨ .

(٤) الدكتور حسن إبراهيم الفاطميون ص ٢٩٦ .

إلى الفقيه الشافعي الحافظ السلفي (١) . ولعل ذلك يفسر موقف الخليفة العدائي من ابن السلار ، حتى نجح في تدبير أمر اغتياله على يد الأمير نصر بن عباس(٢) سنة ١١٥٣ (٥٤٨ هـ) الذي تولى أبوه عباس الوزارة من بعد ابن السلار . ثم أخذ الخليفة يحرضه على قتل أبيه أيضاً ، غير أن عباساً علم بالخبر فاحترس ، ثم اتفق مع ابنه على اغتيال الخليفة . ونفذ نصر ما أراد أبوه سنة ١١٥٤ (٥٤٩ هـ) ، فقتل الخليفة الظافر وكثير من أفراد أسرته ، وشهد أسامة تلك الحوادث جميعاً ، وأودعها كتابه « الاعتبار(٣) » .

وأعقب الظافر ابنه الفائز سنة ١١٥٤ (٥٤٩ هـ) وكان في الرابعة من عمره طفلا حمله أستاذ من أساتذة القصر يوم استخلافه ، غير أن مقتل الخليفة أحدث كثيراً من السخط بين أهل القاهرة ، فثاروا على الوزير عباس ، ولم يستطع عباس أن يقاومهم ، ففر إلى الشام يصحبه ابنه نصر . وفي طريقهما قابلهما الفرنج فقتلوا عباساً ، وأسروا ابنه الذي بيع بعد ذلك ، ثم أرسل إلى القاهرة حيث مات مصلوباً على باب زويلة بعد أن مثل به(٤) . ومما تجب ملاحظته هنا أن عباساً خرج من

---

(١) ابن خلكان الوفيات جـ ١ ص ٣١ .

(٢) قدم عباس — والد نصر — من المغرب إلى مصر . وقد تزوج ابن السلار من والدته فأحب عباسا ورباه . ويقول ابن الأثير أن نصرا دخل عليه وهو عند جدته وقتله هناك . الكامل جـ ١١ ص ٨٣ .

(٣) الاعتبار ص ١٩ .

(٤) « لما قتل الفرنج عباسا أسروا ابنه ، فأرسل الملك الصالح (طلائع بن رزيك) إلى الفرنج وبذل لهم مالا وأخذه منهم فسار من الشام مع أصحاب الصالح فلم يكلم أحداً منهم كلمة واحدة إلى أن رأى القاهرة فأنشد .

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر »

ابن الأثير : جـ ١١ ص ٨٧ .

مصر قاصداً نور الدين(١) يستنجد به ، وتلك هي المحاولة الثانية التي يفكر فيها بعض وزراء مصر في الاستنجاد بالبيت الزنكي الأتابكي .

ثم وزر الصالح بن رزيك للخليفة الطفل — ابن الفائز — وقد جاء من ولايته في الصعيد تلبية لنداء نساء القصر(٢) . ولكن الوزير الجديد كان إمامي المذهب مغالياً فيه . عدواً للمذهب الاسماعيلي ممعناً في كراهيته له ، ومن ثم نال الدعوة الاسماعيلية على يديه أذى كثير ، كما نال الدولة الفاطمية - بالتالي - نفس ذلك الأذى ، لاسيما وهو رجل يقرض الشعر ويؤلف الكتب تأييداً لرأيه(٣) ، فكانت نهايته أن قتل بتدبير من العاضد وعمته(٤) ، وهاهو ذا عمارة اليمني بالرغم من صلاته الطيبة به ، فإنه يشهد بنقائصه التي يحصيها في تعصبه لمذهبه وحبه المال ، وكراهيته للجند(٥) ، وللملاحظة عمارة الأخيرة أهميتها وتأثيرها في ضعف مصر من الناحية الحربية ، إذ لم تستطع أن تقاوم هجوم المغيرين عليها بعد أن فقدت صفوة رجالها وأبطالها ، ومما يدل على تعصب الصالح لمذهبه ما ذكره عمارة من إغراء الصالح له حتى يعتنق مذهبه في أبيات من الشعر كتبها وأرسلها إليه(٦) .

---

(١) أسامة الاعتبار ص ٢١ .

(٢) ابن خلكان ، الوفيات جـ ١ ص ٢٣٨ ، ٣٩٥ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل جـ ١١ ص ١٣٢ .

(٤) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٤٥ ، ابن خلكان ، الوفيات جـ ١ ص ٢٣٩ ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ١٢٣ .

(٥) عمارة اليمني النكت العصرية جـ ١ ص ٤٨ .

(٦) كتب الصالح إلى عماده يقول :

قل للفقيه عمارة ياخير من أضحى يؤلف خطبة وكتابا

وهناك نقطة أخرى هامة تتعلق بالصالح ، وهى موقفه إزاء الحوادث الجارية بالشام بين نور الدين والصليبيين ، ولفهم ذلك الموقف لابد من الرجوع قليلا إلى الوراء ، ذلك لأن الفاطميين قد رحبوا بالصليبيين(١) عند نزولهم بالشام ، وظنوا أنهم يستطيعون أن يستعينوا بهم ضد السلاجقة على أن يكتفي الصليبيون بسوريا ، ويتركوا فلسطين لتستولى عليها مصر . وكان الوزير المتصرف فى شئون الدولة الفاطمية فى ذلك الوقت الأفضل بن بدر الجمالى . ودارت من أجل ذلك الغرض مفاوضات(٢) بين الفريقين بالقرب من مدينة أنطاكية فى يونية سنة ١٠٩٨ ، ولكنها لم تنته إلى نتيجة واضحة . وانتهز الفاطميون فرصة الاضطراب الذى أثاره الصليبيون ، واستولوا على بيت المقدس(٣) فى أغسطس من تلك السنة (٤٩١ هـ) ، وكانت من أملاك السلاجقة ، إلا أن حكمهم لها لم يدم طويلا إذ لم يلبث أن حاصرها الصليبيون بعد ذلك بعام واحد واستولوا عليها ، وذبحوا من أهلها سبعين ألفاً كما تقول المراجع(٤) .

= اقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى   قل حطة وادخل إلينا البابا
تلق الأئمة شافعين ولا تجد   إلا لدينا سنة وكتابا .

النكت المصرية جـ ١ ص ٤٥ .

(١) زيادة مصر والحروب الصليبية ص ٢ .

(٢) Lamonte, Crusade and Fihad. P. 165

زيادة ، مصر والحروب الصليبية ص ٢ — ٣ .

(٣) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٥ ، Lane Poole, A Hist, of Egypt in the Middle Ages P. 146

(٤) Lane Poole (Jbid) P. 146 .

ثم ألقى الصليبيون درسهم الثانى على الأفضل ، إذ فاجأوه بحصار عسقلان ، فتركها ، وأبحر إلى مصر . وأصبح ذلك السلوك من جانب الصليبيين كافياً لأن ينبه الفاطميين إلى حقيقة موقفهم ، ففطنوا إلى الغرض الذى جاء أولئك الغزاة من أجله ، ومنذ ذلك الوقت أخذت أساطيلهم وجيوشهم تهاجم القوات الصليبية فى فلسطين ، كما حاول الأفضل أيضاً أن يكوّن حلفاً بين مصر ودمشق ، لمهاجمة الصليبيين من الشمال والجنوب وهى الفكرة التى نجح فى تنفيذها نور الدين محمود فيما بعد ، عندما وحد تحت حكمه مصر والشام(١) ونال الفاطميون بعض الانتصارات فهزموا — مثلا — الصليبيين بالقرب من عسقلان سنة ١١٠٢ ، كما استردوا الرملة ثم دب النزاع فترة على تلك المدينة بين المسلمين والصليبيين ، وتحالف طفتكين أتابك دمشق مع مصر للدفاع عنها ، ولكن الطرفين هزما فى معركة(٢) دارت رحاها بين يافا وعسقلان سنة ١١٠٤ . وقد دفع ذلك كله جودفرى دى بويون أن يفكر فى الاستيلاء على مصر ليقضى على مصدر ذلك الخطر ، ولكن عاجلته المنية قبل المعركة السالفة بأربعة أعوام أى سنة ١١٠٠(٣) . وحاول أخوه وخليفته على عرش

(١) مما يدل على ظهور روح التعاون بين المسلمين أن الصليبيين هاجموا صور فكتب ظهير الدين طفتكين إلى الأفضل يقول : « إن (بويون) قد جمع وحشد للنزول على صور ، وإن أهلها استنجدوا بى عليه ، والتمسوا منى دفعه عنهم فبادرت بارسال من أثق بشهامته لحمايتها والمراماة دونها ، ومتى وصل إليها من مصر من يتولى أمرها ويذب عنها ويحميها بادرت بتسليمها إليه وخروج نوابى منها وأنا أرجو ألا يهمل أمرها وإنفاذ الأسطول بالغلة إليها والتقوية لها . ابن القلانسى ص ١٨٢ .

(٢) ابن القلانسى ص ١٤٨ — ١٤٩ .

(٣) زيادة ، مصر والحروب الصليبية ص ٣ .

بيت المقدس بلدوين الأول نفس المحاولة فعمل على أن يستكشف جنوبي فلسطين ووصل إلى أيلة ، وسار حتى بلغ شبه جزيرة سينا(١) ، ولكنه رجع إلى فلسطين ، ثم عاد مرة ثانية إلى الحدود المصرية وتوغل فيها سنة ١١١٧ ، فدخل الفرما ونهبها ، وتقدم إلى تنيس ولكنه مرض هناك ، واضطر إلى الرجوع فتوفى فى طريق عودته عند العريش سنة ١١١٨ . ومنذ تلك الرحلة الاستكشافية عدل المصريون سياستهم فأصبحت دفاعية(٢) .

وقد كان من المنتظر أن يواصل الصليبيون سياستهم الجديدة إزاء مصر ليضفوا على منبع الخطر فيها ، ويفيدوا من موقعها فى حروبهم ، ولكن يبدو أن ظهور زنكى وإفاقة المسلمين لأغراضهم ونواياهم الحقيقية ، قد حال بينهم وبين المضى فى تنفيذ تلك السياسة . على أن الحوادث التى تلت ذلك لم تلبث أن جعلت من مصر موضع التنافس بين نور الدين الذى خلف أباه عماد الدين زنكى وبين الصليبيين . وضح ذلك التنافس والاندفاع نحو الجنوب فى أوائل النصف الثانى من القرن الثانى عشر . ففى سنة ١١٥٣ اندفع الصليبيون جنوباً فاستولوا على عسقلان بعد أن هزموا حاميتها المصريه ، وقد ضاعت تلك المدينة وهى آخر المعاقل الفاطمية فى فلسطين فى غمار التنافس الذى دب بين المستوزرين فى مصر عقب مقتل ابن السلار ، فكان رد نور الدين على الصليبيين أن استولى على دمشق فى السنة التالية . وهنا ظهر على مسرح الحوادث فى مصر الوزير طلائع بن رزيك .

---

(١) Stevenson P. 66.

(٢) Lane - Poole, A. Hist, of Egypt in the Middle Agee P. 165.

رأى ابن رزيك أن لا بد من التحالف مع نور الدين(١) لإنقاذ مصر وبقية بلاد الشرق الأدنى من خطر الصليبيين ووسّط فى ذلك أسامة ابن منقذ عند نور الدين(٢) . وكتب أشعاراً كثيرة فى هذا المعنى ذكرها أبو شامة فى كتابه « الروضين » (٣) . كما أمّل أن يجمع كلمة المسلمين ويزيل ما بينهم من تنافس ونزاع(٤) ، ثم أرسل رسلاً آخرين إلى نور الدين محملين بالهدايا . ويبدو أن نور الدين لم يشأ أن يخطو

---

(١) Stevenson p. 180 .

(٢) يظفر القارىء لابن شامه بمحصول وافر من الشعر الذى كتبه ابن رزيك وأرسله إلى أسامه وهو بالشام وفيه يستحثه على السعى لاتمام المحالفة بينه وبين نور الدين ومن ذلك على سبيل المثال :

قد كتبنا إليك ماوضح الآن ... بماذا عن الكتاب تجيب
قصدنا أن يكون منا ومنكم ... أجل فى مسيرنا مضروب
وعلينا أن يستهل على الشام ... مكان الغيوث مال صبيب

وقوله :

بلغوا قولنا إلى الملك العادل فهو المرجو والمأمول
قل له كم تماطل الدين فى الكفار فاحذر أن يغضب المملول
سر إلى القدس واحتسب ذاك فى الله فالسير منك يشفى الغليل

(٣) الروضين جـ ١ ص ١١٥ — ١٢٠ .

(٤) مما يدل على ذلك أن نزاعا قام بين نور الدين محمود وقليج ارسلان سلطان الروم السلاجقة سنة ٥٦٠ هـ كان أن يؤدى إلى الحرب بينهما ، فكتب ابن رزيك إلى قليج أرسلان قصيدة طويلة منها :

رجعتم إلى حكم التنافس بينكم ... وفيكم من الشحناء نار تضرم
أما عندكم من يتقى الله وحده ... أما فى رعاياكم من الناس مسلم
تعالوا لعل الله ينصر دينه ... إذا مانصرنا الدين نحن وأنتم
وننهض نحو الكافرين بعزمة ... بأمثالها تنجو البلاد وتقسم

ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ١٤٢ .

تلك الخطوة وهو مشغول بحروبه فى الشام ، فقتل ابن رزيك فى سنة ١١٦١ (٥٦٦ هـ) قبل أن تحقق له الأيام تلك الرغبة . وخلفه فى الوزارة ابنه رزيك .

إلى ذلك العهد لم تكن مصر قد فكرت أن تدفع أموالا سنوية للصليبيين بقصد إسكاتهم عنها . وفكرة دفع تلك الأموال لابد أن تكون قد نبتت فى عهد رزيك ، أو فى عهد وزارة شاور الذى جاء بعده ، وقد مر ستيفنسن ولين بول على تلك المسألة دون أن يحققاها(١) إلا أن ابن القلانسى ذكر فى حوادث سنة ٥٥٠ هـ ما يفيد أنها حدثت فى عهد رزيك ، وأن أجناده ثاروا عليه عندما فاتحهم فى أمر تلك الأموال(٢) مما يدل دلالة واضحة على أن مصر بدأت تدفعها منذ ذلك العهد على الأقل ، ولعل فى ذلك مايوضح إلى أى حد بلغ ضعف مصر ، وارتباك أحوالها الداخلية ، مما جعلها مستعدة لشراء العافية والسلام بالمال .

* * *

هذا استعراض عام لأحوال الشرق الأدنى قبيل قيام الدولة الأيوبية وهذه هى البيئة التى قامت فيها تلك الدولة ونمت . فهل كانت تلك البيئة

---

(١) انظر Stevenson p. 186
Lane Poole, A Hist, of Egypt in the Middle ageo p' 177

(٢) قال ابن القلانسى « وفى أيام من شعبان من السنة (٥٥٠ هـ) ورد الخبر من ناحية مصر بأن المنتصب فى الوزارة فارس الاسلام بن رزيك لما استقام له الأمر عزم على مصالحة الفرنج وموادعتهم واستكشاف شرهم ومصادقتهم بمال يحمل إليهم من الخزانة وما يفرض على إقطاع المقدسين من الأجناد » ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣١ .

صالحة حقاً لقيام دولة جديدة ، وخاصة فى بلد كمصر تقوم فيها دولة يذيع خلفاؤها على الملأ أنهم من سلالة النبى عليه السلام ؟ وهل كان شيئاً غريبا أن ينحدر الأيوبيون من الشام — مع جيش نور الدين — فيؤسسوا فى مصر دولة قوية على أنقاض تلك الدولة الفاطمية ؟

لو أن الأيوبيين أرادوا ذلك فى عهد الخلفاء الراشدين أو الأمويين أو العباسيين الأولين ، لو فرض أنهم وجدوا فى تلك العهود لما أصابهم إلا الإخفاق ، ذلك لأن الدولة الاسلامية كانت وقتئذ وحدة متماسكة ، ولأن السلطة المركزية كانت قوية ، فلم تكن الظروف ـ والحال كذلك ـ تسمح بالانفصال أو الاستقلال .

أما فى القرن الثانى عشر الميلادى فقد تغيرت الحال بل أصبح الوضع منذ قرون على خلاف ما كان عليه أولا ، وهذا هو ما دعا إلى الكلام عن العباسيين ، وهم الخلفاء الذين يعتمدون فى حكمهم على حق شرعى ـ حقا أو باطلا ـ والذين كان فى مكنتهم أن يوقفوا أولئك المغامرين عند حدهم ، وأن يحاولوا بينهم وبين الاستقلال والانفراد بالحكم . فلما أصبحوا ولا حول لهم فى الأمر ولا قوة لم يعودوا حاجزاً أو عائقا — أمام من يريدون التأسيس لأنفسهم — بعد أن استبد بهم وزراؤهم وقوادهم من الأتراك ثم من البويهيين ، ثم من السلاطين السلاجقة .

وبمجىء السلاجقة تبدأ صفحة جديدة فى تاريخ الدولة الإسلامية فإن النظام الاقطاعى الذى نشروه أدى إلى أن يرث دولتهم بعدهم قوادهم

وضباطهم ومربو أولادهم وهم الأتابكة(١) . وعلى ذلك الأساس قامت الدول الأتابكة فى الموصل ودمشق وسنجار وأربل وأذربيجان وغيرها أى أن الشرق الأدنى شهد خلال النصف الثانى من القرن الحادى عشر قيام كثير من الدول التى لا ينتمى مؤسسوها إلى بيت من بيوت الملك . ولا يعتمد على حق من حقوق الحكم ، وتلك فى الواقع ثورة على نظام الحكم الذى ساد الشرق الاسلامى قبل ذلك الوقت . وكلمة ثورة هنا يقصد منها تغيير كلى فى نظام من الأنظمة السائدة . ومعنى ذلك أن أصحاب النفوذ الفعلى فى الدولة العباسية لم يستطيعوا إلا أن يتركوا تلك الامارات والدويلات تنمو دون أن يقفوا فى طريقها . ومن هنا أزيلت عقبة السلطة المركزية من طريق كل قادر أو طموح .

وإذن فقد وجد المبدأ الذى تستطيع أن تركن إليه أية دولة تريد أن تشق طريقها إلى الحكم . ولكن بقيت نقطة أخرى وهى : هل كانت ظروف المجتمع الاسلامى فى الشرق الأدنى تساعد أمثال تلك الأسر على شق ذلك الطريق ؟ الجواب على ذلك بالايجاب وها هو ذا الدليل : فقد جاء الصليبيون من وراء البحار يعلنون عداءهم للمسلمين ، ويقتطعون من أملاكهم ليؤسسوا لأنفسهم ، ونجحوا فى تكوين

(١) منشأ ذلك النظام أن السلاطين السلاجقة كانوا يعينون لأبنائهم قوادا يكونون مسئولين عن تربيتهم الحربية والادارية . وهؤلاء يمنحون لقب أتابكة ومفردها أتابك — ولكنهم لم يقفوا — بعد انحلال الدولة السلجوقية — عند حد التربية والاشراف ، بل اتسعت سلطتهم ، واستأثروا بالأمر دون الأمراء ، وسلكوا لذلك طرقا كثيرة ، فأصبح من المعتاد أن يتزوج الأتابك من والدة الأمير ، وأن يزوج الأمير من ابنته — إن كانت له ابنة ثم استأثروا بعد ذلك بامارات سادتهم وكونوا لأنفسهم اسرات مالكة انظر Yibb. P. 23 .

إماراتهم اللاتينية الأربعة المعروفة ، لأن الوحدة الاسلامية قد تفككت ولأن الزعامه القوية المستنيرة لم تكن قد وجدت . ولأن الغرض من تلك الحملات الصليبية لم يفهم على حقيقته ، بل ظنه المسلمون مجرد محاولة لتأسيس دولة إلى جانب الدول التى امتلأ بها الشام والشرق الأدنى كله فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى(١) .

ثم ظهر عماد الدين زنكى ، والتف المسلمون حوله ، وقد ثارت حماستهم الدينية(٢) فوقف الصليبيون عند حدهم ، ثم لم يلبثوا إلا قليلا حتى ارتدوا على أعقابهم . وقد نجح زنكى فى ذلك ، لأن الظروف جميعها كانت تؤيد زعامته ، وتنتظر ظهوره ، فروح الحماسة التى بناها السلاجقة فى نفوس المسلمين كانت لاتزال تضطرم بها جوانحهم ، فتدفعهم إلى أن يلتقوا حول أى زعيم يقودهم إلى الجهـــاد والحرب أو الغنم والكسب . ثم أعقب ذلك الفوج الأول من الصليبيين أفواج جديدة متحمسة متعصبة(٣) راغبة فى تحقيق مختلف الأغراض المادية ، وهذه العوامل مجتمعة هى التى ساعدت زنكى على الظهور والزعامة ، فلما قضى فى ميدان الجهاد قام بدله ابنه نور الدين محمود فلعب نفس الدور واتجه إلى ذات الهدف ، وقد نجح لا لأنه ابن زنكى ، ولكن لأنه « مجاهد »

(١) تحدث Lamonte عن تلك الأغراض التى لم تكن دينية بحتة والتى كانت تشوبها منذ اللحظة الأولى الأغراض الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى الفصل الذى كتبه فى The Arab Heritage تحت عنوان Jihad & the Crusades ص ١٦١ — ١٦٢ .

(٢) يقول لين بول أن الحماسة التى أثارها السلاجقة قد خلقت جيلا من المسلمين يرجع إليه الفضل الأول فى إخفاق الحملات الصليبية أكثر مما يرجع إلى أى عامل آخر The Mohammadan Dynasties P. 150 .

(٣) أسامة بن منقذ — الاعتبار ص ١٣٤ — ١٣٥ .

له مبدأ واضح هو حرب الصليبيين وإجلاؤهم عن بلاد المسلمين . فإذا انتهت حياته لاح أن مكانه قد أصبح شاغرا ، وأن أحداً من أبنائه أو سلالته لن يستطيع أن يملأ كرسيه لأن المسألة باتت تتطلب موهبة واستعداداً لا أسما ولا لقبا . وأغلب الظن أن صلاح الدين لو بقى فى دمشق ولم يغامر فى مصر لكان من المرجح أن يلعب نفس الدور الذى لعبه نور الدين لأنه أصبح الشخصية الوحيدة القادرة على سد ذلك الفراغ .

وعلى ذلك فمن الممكن أن يقال إن الظروف كانت ملائمة لظهور ذوى الكفاية والمواهب وتشجيعهم ومساعدتهم ، أى أن المبدأ قد وجد ووجد معه الجو الصالح لتحقيقه ، وهذه هى الحالة خارج الحدود المصرية فماذا كانت داخلها ؟

أما الدولة الفاطمية فقد ظلت قائمة فى مصر ، لا لأن فيها مايساعدها على الحياة ، ولكن لأن أعداءها الذين طمعوا فيها يوما ما لم يعودوا قادرين على تحقيق ما كانوا يطمعون فيه ، إذ بلغت من الضعف حداً ليس بعده حد لضمان نجاح أى مهاجم قوى . فالحالة الاقتصادية بلغت حداً عنيفاً فى الارتباك وشاطرت الأحداث الداخلية والتنافس الطاحن على منصب الوزارة بنصيب كبير فى ضعف الدولة . وإذا كان المقريزى(١) قدقرر أن العامل الاقتصادى كان له يد فى نجاح الفاطميين فى فتح مصر ، فما أحق أن يذكر ذلك العامل بين عوامل سقوطها ، إذ رغب المصريون فى حكومة جديدة حازمة ، يستقر معها حالهم ويزول على يديها ما تعانه من فوضى واضطراب . ثم أصبحت أمور الدولة بأيدى

---

(١) المقريزى — كشف الغمة ص ١٣ .

وزراء أكثرهم من أعداء مذهبها ، ولم تعد تحركهم إلا المطامع الشخصية وابتزاز المال والوصول إلى كرسى الوزارة مهما تكن الطريقة إلى ذلك الكرسى حتى ولو أدى ذلك إلى الاستعانة بدولة أجنبية ، كما فعل رضوان ابن الولخشى ، وكما فعل من بعده عباس .

وزاد الطين بلة أن أنصار المذهب الاسماعيلى أنفسوا على أنفسهم ، وراحوا يحارب كل فريق منهم الفريق الآخر بالسيف وباللسان ، وهذه العوامل جميعاً أخذت تنخر فى جسم الدولة الفاطمية ، حتى أحالها إلى هيكل ليس فيه روح ينتظر من يهزه ليسقط على الأرض هشيما .

وخلاصة هذا كله أن حالة الشرق الأدنى سواء فى مصر أو من خارج حدودها أصبحت ملائمة كل الملائمة لقيام أية دولة جديدة ، إذا قدر لمؤسسيها أن يحسوا برغبات المعاصرين وأن يفهموا روح العصر ، والطرق المثلى المؤدية إلى النجاح .



الفصل الثاني

الأسرة الأيوبيـــة

الغرض من هـذا الفصـل ـ نسب الأسرة الأيوبيـة ـــ مفارقتها موطنها الأصلى ـــ اختلاف المؤرخين فى ذلك ـ ولاية أيوب لقلعـة تـكريت ـ بداية اتصال أيوب بزنـكى ـــ رحيل الأسرة عن تـكريت ـ سبب رحيلها ـــ التجاؤها إلى زنـكى ـ ولاية أيوب بعلبك ـــ وفاة زنـكى ـــ الأحوال العامة لمملـكته بعـد وفاته ـــ خدمات شيركوه لنور الدين ـــ استرداد أنر أتابك دمشق لمدينة بعلبك ـ انضواء أيوب فى خـدمة أنر ـــ استقرار أيوب بدمشق ـــ الحملة الصليبية المعـروفة بالثانية ـــ مجهودات شيركوه فى حروب نور الدين ـــ رغبة نور الدين فى فتح دمشق ـــ دور أيوب فى فتحها ـــ دخول نور الدين دمشق .

نشأة صـلاح الدين ـــ مساهمته فى الحياة الاجتماعيـة ـــ ولايته شحنة دمشق ـــ تأثر الأسرة الأيوبية بروح العصر ـــ أطماع الأيوبيين ـ إعداد صلاح الدين ـــ الأسرة الأيوبية فى خدمة نور الدين .

* * *

النصوص التاريخية الدالة على أصل الأيوبيين وحركاتهم الأولى قليلة ، وفهم هذه النصوص يختلف باختلاف وجهات النظر ، ولعل ذلك راجع

إلى أن الأسرة الأيوبية نشأت نشأة عادية ، فلم تجذب إليها أنظار المؤرخين ، ولم تحظ من عنايتهم فى تاريخها الأول بمثل ما تحظى به الأسر الحاكمة[١] ، ذوات الملك الموروث والنفوذ الواسع .

ومحور البحث فى هذا الفصل هو متابعة الأدوار المختلفة التى مرت فيها الأسرة الأيوبية قبل مجيئها إلى مصر ، فربما يستطيع الباحث فى ذلك الدور من تاريخها أن يصل إلى شيء من الحقيقة بصدد قيامها فى مصر ، وهل جاء تفكير شخصياتها البارزة فى الملك عفوا ومصادفة . أو كان نتيجة لتدبير سابق وخطة موضوعة ، أو كان الأمر وسطا بين الرأيين ؟ بمعنى أن الأيوبيين كانوا يريدون حقا أن يؤسسوا لأنفسهم ، ولكنهم لم يستقروا على مكان معين أو إقليم بالذات ، فلما رأى شيركوه مصر لأول مرة ، ودرس حالتها وعرف مميزاتها ، وجد أنها المكان الملائم لتحقيق أهداف الأسرة .

فهذا الفصل إذن لا يقصد منه أن يكون مجرد ترجمة لحياة أيوب أو شيركوه أو صلاح الدين ، وإنما هو بحث أريد به أن يكون وسيلة لفهم العوامل المختلفة التى حركت أولئك الأشخاص ، والأهداف التى سعوا إلى تحقيقها .

والأسرة الأيوبية تنتسب — على كل حال — وكما هو ظاهر من تسميتها إلى أيوب وهو ابن مروان بن شادى ، وإلى هنا ينتهى نسبها المعروف . فإذا حاول البعض أن يرتفع بذلك النسب إلى عدنان أو آدم عليه السلام ، أو إذا حاول آخرون أن يدخلوا مروان فى زمرة الأمويين ، فإن أمثال تلك المحاولة لا ترضى إلا العقول التى تأبى إلا أن تربط بين المجد الباذخ والأصول الملكية السامقة . وقد أورد المقريزى فى ذلك

الصدد قولا قاطعا حين قال — بعد أن ذكر الآراء المختلفة المتضاربة فى أنساب الأكراد ، وشرح المحاولات التى قام بها بعض المؤرخين لإيجاد نسب معروف للأيوبيين أن تلك الأقوال إنما هى : « أقوال الفقهاء لهم ، ممن أرادوا الحظوة لديهم ، لمّا صار الملك إليهم »(١) . وهذا القول لا يدع مجالا للشك فى صحة ما تواتر فى كتب المؤرخين الثقاة ، من أن الأسرة الأيوبية إنما هى أسرة كردية الأصل ، وإنها من الأكراد الروادية إحدى بطون الهذبانية ، وإن موطنها الأصلى بلدة دوين(٢) الواقعة فى آران فى آخر حدود آذربيجان بالقرب من تفليس(٣) .

ومما يؤيد انتهاء نسب الأسرة المعروف عند ذلك الحد ما ذكره ابن خلكان وابن أبى طى من أنهما وقفا على بعض الكتب الخاصة ببعض أوقاف أيوب وشيركوه فلم يجدوا فيها من حيث النسب ما يزيد عن نجم الدين بن شادى أو شيركوه ابن شادى(٤) . وقد قال ابن أبى طى فى حديثه عن نجم الدين . « هو الأمير نجم الدين أيوب بن شادى . وحدثنى أبى رحمه الله قال : كان تقى الدين عمر يزيد فيقول شادى بن مروان ، وسمعت أنا من يقول شادى بن مروان بن يعقوب . وقد أدعى (اسماعيل) بن سيف الإسلام (طغتكين بن أيوب) لما ملك

---

(١) الخطط ج ٣ ص ٣٧٨ .

(٢) « بلدة من نواحى إران فى آخر حدود آذربيجان بقرب من تفليس » ياقوت ، معجم البلدان ج ٤ ص ١١٢ .

(٣) المقريزى ، الخطط ج٣ ص ٣٧٨ ، ابن خلكان ج٢ ص ٢٧٦ ، ابن الأثير الدولة الأتابكية ص ٢١٣ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣ ، Ency. Isl. Art Dovin ، العينى عقد الجمان ج ٢١ ص ١٢ .

(٤) الروضتين ج ١ ص ٢٦ ، ابن خلكان ، الوفيات ج ٢ ص ٣٧٦ .

اليمن ، إنهم من بنى مروان بن محمد الجعدى المعروف بالحمار يعنى آ
خلفاء بنى أمية ، وقد نقبت عن ذلك ، فأجمع الجماعة من آل أيوب
هذا كذب ، وأن جميع آل أيوب لا يعرفون جدا فوق شادى وك
أخبرنى السلطان الملك الناصر (صلاح الدين) رحمه الله »(١) . وقد
أبو شامه ذلك ، فقال تعليقا على هـذا النص . « ودليل صحة ذلك
وقفت على كتاب وقف الرباط النجمى بدمشق ولم يزد فيه على نجم ا
أبو سعيد أيوب بن شادى العادلى »(٢) .

وإجماع الجماعة من آل أيوب على أنهم لا يعرفون جدا فوق شا
— كما يقول ابن أبى طى — دليل قاطع على صحة الرأى السابق الذ
الخاص بنسبتهم وأصلهم الأول . وأما من خرج على ذلك الإجماع و
أبو الفداء اسماعيل الذى قال إن الأيوبيين إنما هم من نسل الأمويين
فادعاء واضح المرمى ، وهو أنه أراد أن يحقق أطماعه ويوسع مل
بحجة إعادة الخلافة من بنى هاشم إلى بنى أمية . وقد سار أبو الفـ
خطوات فى سبيل تحقيق ذلك الغرض البعيد ، فتقلب فعـلا بالإ
الهادى بنور الله المعز لدين الله أمـير المؤمنين وقال فى ذلك شعر
ومدحـه كثير من الشعراء ، وزينوا له فعله — على حـد ق
أبى شامة(٣) .

---

(١) الروضتين جـ ١ ص ٢١٠ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) يقول أبو شامة (الروضتين جـ ١ ص ٢١٠) ادعى أبو الفداء (اسماعيـ
إنه من بنى أمية ، وعزم على إعادة الخلافة من بنى هاشم إلى بنى أمية ،
فى ذلك أشعار كثيرة ، وتلقب بالامام الهادى بنـور الله المعز لدين
أمير المؤمنين ، ومدحه كثير من الشعراء بذلك ، وزينوا له فعله .

هذا هو إجماع المؤرخين(١) على نسب الأسرة الأيوبية ، لايخرج عن أنها كردية الأصل ، ومعنى كل ما قالوه عنها زيادة على ذلك ، أن ما ينطبق على غيرها من الأسر الأتابكية من حيث الرق لا ينطبق عليها(٢) ، وأن قبيلة الروادية التى ينحدر عنها الأيوبيون من إشراف القبائل الكردية(٣) . وقد مرّ فى الفصل الأول ذكر تلك القبيلة ومدى نشاطها ونشاط غيرها من القبائل الكردية فى جوف الدولة الاسلامية(٤) .

ونقطة البداية فى مساهمة الأسرة الأيوبية فى حوادث العالم الاسلامى بعد مفارقتهم موطنهم الأصلى بقرية دوين موضع خلاف بين المؤرخين . فالبعض يقول إن شادى — جد الأسرة — كان له صاحب فى تلك البلدة اسمه بهروز نشأ وشبا معا ، إلى أن اضطر بهروز ذات يوم تحت ظرف من الظروف القاسية أن يغادر دوين ويلتحق بخدمة أحد السلاطين

= وما هو فيه من شعره :

وإنى أنا الهادى الخليفة والذى ... أدوس رقاب الغلب بالضمر الجرد
ولا بد من بغداد أطوى ربوعها ... وأنشرهـا نشر السماسر للبرد
وأنصب أعلامى على شرفاتها ... وأحيى بها ماكان أسسه جدى
ويخطب لى فيهـا على كل منبر ... وأظهر دين الله فى الغور والنجد

راجع أيضا : العينى ، عقد الجمان ج ٢١ ص ٢٥١ ، شفاء القلوب ص ٤ .

(١) اعترف ابن خلكان نفسه على إجماع المؤرخين على صحة هـذا النسب ، واعترافه بذلك شىء له قيمته القصوى ، إذ ربما يكون قد اطلع على مصادر لم يعثر عليها المؤرخون الحديثون بعد . راجع الوفيات ج ٢ ص ٣٦٧ .

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣ ، شفاء القلوب ص ٣ .

(٣) ابن الأثير ، الدولة الأتابكية ص ٢١٣ .

(٤) انظر الفصل الأول من الرسالة ص ٦ — ٨ .

السلاجقة ، وهو السلطان غياث الدين مسعود بن محمد بن ملكشاه ، ولابد أن يكون ذلك بعد عام ١١٠١ م (٤٩٤ ﻫ) لأن السلطان محمد بن ملكشاه قتل فى ذلك العام ، وخلفه على المطالبة بالسلطنة ابنه مسعود(١) ، ووفق بهروز فى حياته الجديدة حتى أصبح مربياً لأبناء مسعود ، فأحب أن يشرك صديقه القديم شادى فيما استقام له من النعم ، ولذلك أرسل إليه يستدعيه ، ولقى شادى من صديقه ما تؤهله صداقته له من إعزاز وإكرام . ثم زادت مكانة بهروز عند السلطان فجعله والياً من قبله على بغداد سنة ١١٠٨ (٥٠٢ ﻫ)(٢) ، ومنحه قلعة تكريت أقطاعاً له . ثم جعل بهروز صديقه شادى حاكما على تلك القلعة ، واستمر شادى فى وظيفته حتى توفى ، فولى بهروز مكانه ابنه أيوب . هذا هو كلام ابن خلكان(٣) ، ومنه استمد بيكر فيما كتب فى دائرة المعارف الاسلامية حيث يقول : إن شادى رحل بابنيه أيوب وشيركوه إلى بغداد وبمساعدة صديق له — وهو يعنى بهروز — أصبح شادى حاكما على تكريت ، فلما توفى خلفه ابنه نجم الدين أيوب(٤) .

ويدلى ابن أبى طى برأى آخر خلاصته أن أيوباً خدم السلطان محمد ابن ملكشاه ١١٠٤ — ١١١٧ م (٤١٨ — ٥١١ ﻫ) ، فرأى منه أمانة وعقلا وسداداً وحكمة ، فولاه قلعة تكريت . فلما آلت السلطنة إلى مسعود أقطع قلعة تكريت لمجاهد الدين بهروز الخادم شحنة بغداد ومتولى العراق فآثر بهروز الأمير نجم الدين فى ولاية تكريت ، وقرر

---

(١) ابن القلانسى . ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٩ ، Yilb. p. 50 .

(٢) Ency. Isl. Ort Bihruz .

(٣) ابن خلكان . الوفيات ج ١ ص ٨٥ .

(٤) راجع دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) مادة « أيوبيون » .

أمره عند السلطان مسعود(١) ، أى أن نجم الدين أيوب — وليس والده شادى — هو الذى فارق موطنه الأصلى إلى تكريت .

وهناك رأى ثالث يقول إن أيوباً وأخاه شيركوه غادرا موطنهما الأصلى فى دوين إلى بغداد ، حيث خدما مجاهد الدين بهروز شحنة تلك المدينة — أى أنهما لم يخدما السلطان السلجوقى مباشرة — فعين بهروز أيوباً مستحفظا لقلعة تكريت ، وبعث معه أخاه أسد الدين شيركوه(٢) .

ولعل الرأى الأول — الذى يقول بأن شادياً هو الذى رحل من دوين بابنيه أيوب وشيركوه — هو أقرب هذه الآراء إلى الصحة . يرجح ذلك أن الآراء اجتمعت على أن أيوبا عين على تكريت من قبل بهروز ولابد أن يكون ذلك لمعرفة سابقة بين بهروز وبين الأسرة الأيوبية . والراجح أن تكون تلك المعرفة قد وقعت بين بهروز وشادى . ويرجح هذا الرأى أيضا ذلك الكتاب الذى أرسله بهروز إلى أيوب ، بعد أن قتل شيركوه أحد رجال بهروز بقلعة تكريت — مما سيجىء ذكره بعد قليل — وفيه يقول بهروز للأخوين : « لأبيكما علىّ حق ، وبينى وبينه مودة متأكدة ، ما يمكننى أن أكافئكما بحالة سيئة تصدر منى فى حقكما ، ولكنى أشتهى منكما أن تتركا خدمتى ، وتخرجا من بلدى ، وتطلبا الرزق حيث شئتما »(٣) .

---

(١) الروضتين ج ٢ ص ٢١٠ .

(٢) المقريزى ، الخطط ج ٣ ص ٣٧٨ ، السلوك ج ١ ص ٤٢ . وراجع أيضا ابن الأثير . الدولة الأتابكية ص ٢١٣ وابن الفرات تاريخ الدولة والملوك ج ٧ ص ٢٦ .

(٣) ابن خلكان . الوفيات ج ١ ص ٨٥ .

على أن هناك نقطة أخرى غامضة تتعلق بالزمن الذى غادرت الأسرة فيه دوين ، إذ لم يذكر المؤرخون عن ذلك شيئا ، بل إنهم لم يذكروا عمر أيوب أو شيركوه عند وفاتهما — كما هى عادة المؤرخين العرب عند ذكر الوفيات — ولو أنهم فعلوا ، لسهل استنتاج المطلوب . ومن هنا لم يعد أمام الباحث إلا تاريخ تولى بهروز الشحنة ببغداد ، لاقترانه بتاريخ الأيوبيين الأول . فإذا عرف أن بهروز تولى الشحنة ببغداد لأول مرة سنة ١١٠٨ م (٥٠٢ هـ)(١) ، فإن ما يمكن استنتاجه من ذلك أن شاديا غادر دوين بابنيه أيوب وشيركوه قبيل ذلك التاريخ بقليل أى فى بداية القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) .

وخلاصة هذا كله أن نجم الدين أيوبا أصبح حاكما على قلعة تكريت بعد أبيه شادى(٢) قبيل سنة ١١٣٠ (٥٢٥ هـ)(٣) ، وهذه هى النتيجة التى تنتهى إليها الآراء الثلاثة . وهى أيضا الخطوة الأولى من خطوات الأسرة الأيوبية فى حوادث الشرق الأدنى .

استمر أيوب ومعه أخوه شيركوه فى حكم تكريت فترة من الزمن لا تتعرض لها المراجع بشىء من الذكر أو الإيضاح ، إلى أن جر القدر ومجريات الحوادث أيوبا إلى أن يغامر بمستقبله ومستقبل أسرته ويترك حكم تكريت . وبيان ما حدث هو أن زنكى أتابك الموصل هاجم بغداد سنة ١١٣١ (٥٢٦ هـ) ، مظاهراً للسلطان مسعود السلجوقى ضد

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة بهروز (الترجمة العربية) .

(٢) Lane, Poole, Saladin P. 5 .

(٣) السلوك ج ١ ص ٤٠ حاشية ٥ · نشر وتعليق الدكتور زيادة .

الخليفة العباسى المسترشد بالله(١) ، ولكنه هزم على يد القائد قراجه الساقى ، وجرح زنكى فى المعركة ، واضطر إلى التقهقر من الميدان ، وكان لابد لسلامة ارتداده أن يسهل له حاكم قلعة تكريت عبور نهر دجلة ، وقد تقدم حاكم تلك القلعة وهو نجم الدين أيوب ، بأداء تلك المروءة لزنكى(٢) ، بل لقد خدمه هو وأخوه أسد الدين شيركوه وضمدا له جراحه(٣) ، وتقربا إليه طوال المدة التى قضاها بينهما ، ومقدارها خمسة عشر يوما ، وعندما عزم زنكى على المسير إلى الموصل زوداه بكل ما قد يحتاج إليه فى سفره من دواب لحمل متاعه حتى أنهما أعطياه جملة صالحة من البقر — كما يقول ابن أبى طى(٤) — وكان من حسن الطالع أن زنكى لم ينس للأخوين تلك اليد البيضاء ، ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع الصلة بين زنكى وأيوب ، إذ استمرت بينهما المراسلات وتبادل الهدايا(٥) .

---

(١) بعد وفاة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه سنة ١١٣٠-(٥٢٥) خلفه على السلطنة ابنه داود ، فنازعه عليها عمه مسعود . وطلب مسعود من الخليفة المسترشد أن يخطب له ببغداد ، فلما عارض الخليفة فى ذلك عزم مسعود على أخذ السلطنة بالقوة ، وهاجم بغداد وظاهره فى ذلك عماد الدين زنكى . حيث هزم على الضفة الشرقية لنهر دجلة قبالة تكريت . راجع السلوك ج ١ ص ٣٥ ، الروضتين ج ١ ص ٢١٠ ابن الفرات . تاريخ الدول والملوك ج ٧ ص ٢٦ .

(٢) أبو المحاسن . النجوم ج ٦ ص ٢٤ ، ابن خلكان . الوفيات ج ٢ ص ٢٧٧ الدولة الأتابكية لابن الأثير ص ٢١٤ .

(٣) الروضتين ج ١ ص ٢١٠ .

(٤) نفس المصدر .

(٥) نفس المصدر ص ٢١١ ، ابن الأثير الدولة الأتابكية ص ٢١٤ .

وفى الوقت الذى توطدت فيه الصلة بين أيوب وزنكى ، ساءت العلاقات من ناحية أخرى بين أيوب وبهروز ، حتى انتهى الأمر بأن أخرج بهروز أيوبا من تكريت سنة ١١٣٨ (٥٣٢هـ) ، ولا يقتصر السبب فى ذلك على أنه قدم مساعدته لثائر على الخليفة وعلى السلطان السلجوقى القائم ببغداد فحسب ، فإن الفرق الزمنى بين تلك الحادثة وبين رحيل أيوب عن تكريت يقدر بست سنوات ، وإنما المعقول أن تلك الحادثة قد غيرت نفسية بهروز على أيوب وأخيه(١) ، وأوجدت عنده الاستعداد الكافى للاستغناء عن خدماتهما ، وقد بلغ الأمر حده الحاسم عندما ترامت إلى مسامع بهروز الأقوال عن قوة الأخوين ، وتمكنهما من أهل تكريت ، وعن شجاعة شيركوه وجرأته ، وتعقل أيوب وحكمته مما أصبح بهروز يخشى منه ويتوجس خيفة على أقطاعه . وفى هذا الصدد يقول ابن أبى طى : « وحضر عنده (أى عند بهروز) من خوفه جراءة أسد الدين (شيركوه) ، وأنه ذو عشيرة كبيرة ، وأن أخاه نجم الدين (أيوبا) قد استحوذ على قلوب الرعايا ، وأنه ربما كان منهما أمر تخشى عاقبته ، ويصعب استدراكه »(٢) .

وانتظر بهروز حتى حانت الفرصة الملائمة للاستغناء عن خدماتهما وهذه الفرصة يختلف المؤرخون على تفاصيلها ، ولكنها تلخص على كل

(١) يقول ابن خلكان . وبلغ ذلك (أى بلغ بهروز ما فعله أيوب مع زنكى) فسير إليه وأنكر عليه وقال له : كيف ظفرت بعدونا فأحسنت إليه وأطلقته . ولكن ابن خلكان لم يذكر أنه طرده بسبب تلك الحادثة . راجع الوفيات جـ ٢ ص ٢٧٧ وقد أورد تلك الرسالة أيضاً ابن الفرات فى تاريخ الدول والملوك جـ ٧ ص ٢٧ .

(٢) الروضتين جـ ١ ص ٢١١ .

حال فى أن شيركوه قتل رجلا ممن ينتمون إلى بهروز لملاحاة جرت بينهما(١) .

وبالرغم من أن أيوبا تصرف التصرف الحكيم بقبضه على أخيه ، وانتظار أمر مخدومه فيه . فإن بهروز أرسل إلى أيوب كتاباً(٢) يأمره فيه بتسليم القلعة إلى نائبه الذى سيره صحبة الكتاب . وقابل أيوب الأمر بالسمع والطاعة ، فأنزل أهله ومتاعه من القلعة واستعد للرحيل ، وما أن علم أهل تكريت بالخبر حتى استعظموا خروج أيوب حاكمهم المحبوب من بين ظهرانيهم ، حتى إنهم خرجوا جميعاً لوداعه يوم رحيله عنهم . فلم يبق فى المدينة رجل لم يخرج لأداء ذلك الواجب — على حد قول ابن أبى طى(٣) .

وإذن فالقول بأن السبب فى إخراج بهروز الأخوين من تكريت هو أن شيركوه قتل رجلا من أتباعه ، لا يخرج عن أن يكون سببا ظاهريا ، إذ ليس من المعقول أن يخرجهما لمثل هذا السبب بعد أن خدماه تلك المدة الطويلة لاسيما وهما ابنان لصديق عزيز عليه ، كما يعترف هو نفسه(٤) ، بل المعقول أن بهروز لاحظ ازدياد نفوذ أيوب

---

(١) ابن الأثير الدولة الأتابكية ص ٢١٤ ، ابن خلكان . الوفيات ج ١ ص ٨٥ و ج ٢ ص ٣٧٦ .

(٢) ابن خلكان الوفيات ج ١ ص ٨٥ .

(٣) يقول ابن أبى طى (الروضتين ج ١ ص ٢١١) « وأعظم أهل تكريت خروج نجم الدين (أيوب) من بين أظهرهم ، ولم يبق أحد إلا لخرج لتوديعه ، وأظهر البكاء والأسف على مفارقته » ولعل فى هذا النص ما يدل على أن نجم الدين أيوبا نجح نجاحا باهراً كحاكم وإدارى .

(٤) انظر ما سبق ص ٣٢ .

وشيركوه فى تكريت ، والتفاف الناس حولها نخشى أن يستقلا بالقلعة دونه . ولعل هذه هى النقطة الأولى التى توضح أن الأخوين كانا يسعيان منذ ذلك العهد الباكر من تاريخهما إلى التكوين لنفسيهما .

ويلاحظ هنا قبل الانتقال مع أيوب فى حياته الجديدة بعد تكريت أنه لم يحاول أن يرتبط بشخص معين ، بل ارتبط فى كل أعماله بما تمليه عليه الظروف والمصلحة ، بدليل أنه سهل العبور لثائر على ولى نعمته ، وكان واجبه أن يقف مع زنكى عكس ذلك الموقف تماما — كما قال له بهروز — ولما كان نجم زنكى فى تلك الفترة قد بدأ يعلو ويرتفع حتى صار نداً للسلطان السلجوقى ، فالغالب أن أيوباً أراد أن يربط مستقبله بتلك الشخصية ، وربما أنه أراد أن يخرج من عزلته فى تكريت ، ليغامر مغامرة فعلية فى حوادث الشرق الأدنى بخدمة زنكى حيث الحياة والنشاط والمستقبل المأمول . ومما يؤيد ذلك أن أيوبا لم يقم بأى عمل إيجابى يستدل منه على أنه يريد البقاء فى تكريت حتى ليخيل إلى الباحث أنه كان ينتظر تلك النتيجة وأنه كان يستعد لها .

ويلاحظ أيضا أن أيوبا لم يكن رجلا عاديا ، بل دل على أنه حاكم مستنير يعرف كيف يكسب قلوب أهل ولايته بحسن الإدارة وتوزيع العدل بين الناس . كما يصور ذلك ابن أبى طى(١) .

أما شيركوه فهو الرجل العسكرى بعقليته ومزاجه أيضا(٢) ، يقوم على العمل ولا يبالى بعد ذلك بما يتلوه من نتائج ، بدليل أنه هو الذى

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٢١١ .

(٢) فى هذا المعنى يقول أبو شامة (الروضين ج ١ ص ١٣٠) « وكان عنده (يقصد شيركوه) من الشجاعة وقوة النفس مالا يبالى معه بمخافة » .

قتل أحد مماليك بهروز . وهو صاحب القلعة ، وفى يده إقراره عليها هو وأخوه أو إخراجهما عنها . ولقد تصرف أيوب فى تلك الحادثة بالذات بما يؤكد أنه كان رجلا إداريا عميق الغور إذ قبض على أخيه ، وانتظر حكم سيده فيه ، كما سبق القول .

وكيفما كان الأمر فإن أيوبا اتخذ وأهله طريقهم إلى زنكى - كما هو المنتظر - سنة ١١٣٨ (٥٣٢هـ) وفى نفس ليلة الرحيل ولد لنجم الدين(١) أيوب طفل سماه يوسف ، وهو الذى عرف فيما بعد باسم صلاح الدين . وقد رحب بهم عماد الدين زنكى وأكرمهم ، وأمر الموكب بلقائهم خارج مدينة الموصل ، وأقطع الأخوين أقطاعات وافرة فى شهرزور وفى غيرها(٢) . وذلك كله رد لجميلهم القديم ، ولأن زنكى لم يكن ليرد عن ساحته أشخاصا من طرازهم(٣) ، واستخدم زنكى الأخوين فى حروبه وفى شئون أتابكيته(٤) ، وإن كانت المراجع لا تنبىء بشىء كثير من هذا الصدد ، ولا بد أن يكون أيوب قد أظهر فى عمله الجديد ما حمل زنكى على الاعتقاد فى مقدرته وحسن تدبيره ، بدليل أنه لم يكد يفتتح بعلبك بمساعدته ومساعدة أخيه شيركوه(٥) سنة ١١٣٩ (٥٣٤ هـ) حتى

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٧٧ ، المقريزى بالسلوك ج ١ ص ٤٢ ، الروضين ج ١ ص ٢١١ .

(٢) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٥١ بالروضين ج ١ ص ٢١١ .

(٣) Lane Poole - Saladin P. 65 .

(٤) نفس المصدر .

(٥) يقول بيكر (دائرة المعارف الاسلامية بمادة أيوب) إن زنكى استطاع أن يفتتح بعلبك بمساعدة أيوب وشيركوه ، ويضرب بذلك مثلا على مساعدتهما لها فى جهاده وحروبه .

ولاه عليها ، ولو كان الأمر لا يعدو عند زنكي مجرد المكافأة لأيوب على ما أداه من جميل قديم لا كتفى بتعيينه فى وظيفة عادية يستمد منها العافية والعيش الرغد . أو لا كتفى بما منحه من أقطاع عند أول مجيئه إلى الموصل ، ولكنه أسند إليه ولاية هى أقصى ماوصل إليه فى الجنوب أى فى الجهة التى رغب فى التوسع فيها ، وهذا فضلا عما كان بينه وبين معين الدين أنر أمير دمشق من نزاع دائم على تلك المدينة ، مما يدل على الثقة الكبيرة التى وضعها زنكى فى نجم الدين واعتقد أنه أهل لها .

وهكذا اتسع المجال أمام الأخوين ونجحت مغامرتهما الأولى ، وعوضا عن تكريت بما هو خير منها . ولعله قد وضحت الآن بعض ملامح شخصيتى أيوب وشيركوه فأيوب رجل عاقل متزن ، قدير على أن يفرض محبته والثقة فيه على من حوله ، سريع الفهم للجو الذى يعيش فيه . أما شيركوه فرجل لا تختلف عقليته عن عقلية الكثيرين من رجال السيف تغلب عليه صفة الشجاعة التى تبلغ فى بعض الأحيان حد التهور . فيقبل على العمل بوحى الساعة . أما ما وراء ذلك ، وما يترتب عليه فأمر يبدو أن شيركوه لم يكن يهتم به كثيرا . فالأخوان بناء على ذلك يختلفان جد الاختلاف ، ولكن يكمل أحدهما الآخر إلى حد كبير ، وهذا فى الواقع عامل هام من عوامل نجاح الأسرة الأيوبية . وستتضح تلك الحقيقة فيما يلى من حوادث .

ومن حسن الطالع أيضا أن أسد الدين شيركوه انفرد بخدمة الأمير (١) نورالدين محمود فى حياة والده زنكى ، فقربه وقدمه ، ورأى منه شجاعة

(١) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٥٣ . راجع أيضا ابن الفرات — تاريخ الدول والملوك ج ٧ ص ٢٧ .

يعجز عنها غيره — على حد تعبير ابن الأثير(١) ، وأن أوامر الصداقة والأخوة توطدت بين شيركوه وبين جمال الدين أبى جعفر محمد بن على وزير زنكى(٢) واستطاع ذلك الوزير أن يمهد للأخوين الطريق وأن يوطد مركزهما عند زنكى فأخذ يشاطرانه فى حروبه وجهاده ضد الصليبيين وغيرهم حتى توفى زنكى سنة ١١٤٦ (٥٤١) قتيلا على أيدى بعض مماليكه(٣) وهو يحاصر قلعة جعبر وتاركا أربعة أولاد هم سيف الدين غازى ونور الدين محمود وقطب الدين مودود ونصرةالدين أمير أميران .

والتف أتباع البيت الزنكى الأتابكى حول أولئك الأبناء ليحفظوا لهم حقوقهم فى الملك وفقا للتقاليد الاقطاعية السائدة (٤) ولكن يبدو أن السلطان محمود — وهو السلطان السلجوقى المتغلب على بغداد وقتذاك رغب فى أن يستحوذ على أملاك زنكى ، بوصفه المُقطِع الأعلى ، ولعل الظروف كانت ملائمة لذلك ، فإن ألب أرسلان بن السلطان محمود كان مع عماد الدين زنكى وقت أن اغتيل ، ولم تكد

(١) نفس المصدر « ابن الأثير » .

(٢) من مظاهر تلك الصداقة أن الاثنين تعاهدا على الوفاء فى الحياة وفى الممات وأن من يموت منهما أولا يدفنه صاحبه فى المدينة بالحجاز ، فلما توفى جمال الدين سنة ٥٥٩ هـ وبلغ شيركوه نبأ وفاته بعث مالا يبعث به إلى هناك تنفيذا لما بينهما من عهد وينفق منه على جماعة يحجون عنه وجماعة يقرءون عليه . راجع ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٢٧ — ١٣٨ ، ابن الفرات تاريخ الدول والملوك ج ٧ ص ٢٧ .

(٣) الفصل الأول ص ١٥ .

(٤) كان التقليد الاقطاعى السائد فى ذلك الوقت أن يلتف مماليك الأمير المتوفى واجناده حول وريثه راجع Lane-Poole, Saladino p. 18 .

أخبار مقتل زنكى تنتشر حتى اجتمعت العساكر على(١) الب أرسلان وبات الموقف خطيراً يهدد بضياع حقوق أبناء الأمير المتوفى .

إلا أن زنكى لم يترك لأولاده ملكا واسعا وإقطاعات وافرة فحسب وإنما ترك لهم فوق ذلك رجال عملوا منذ اللحظة الأولى على الدفاع عن أبناء سيدهم المتوفى وهم وزيره جمال الدين محمد بن على وحاجبه صلاح الدين محمد الياغسيانى ثم الأخوان نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه . وقد اختص الأولان بغازى وعملا على إقرار الأمر له بالموصل إذ أحاطه(٢) بألب أرسلان بن السلطان محمود فحسنا له الاشتغال باللهو والخمر والجوارى ، فانصرف عن التعرض لغازى حتى دخل غازى الموصل واستقر له الأمر فيها ، أما شيركوه — يؤيده ويساعده أخوه أيوب كما يرجح — فقد أخذ يعمل لصالح نور الدين — وإن كانت المراجع لا تشير . بشىء واضح عن الدور الذى لعبه أيوب — إذ أسرع شيركوه(٣) إلى خيمة نور الدين ، فنصحه بالإسراع إلى حلب ، ثم أخذ على عاتقه تيسير الأمور له فيها حتى دخلها فعلا بعد مقتل أبيه بأيام فى ١٦ سبتمبر سنة ١١٤٦ (٧ ربيع الثانى سنة ٥٤١ ﻫ)(٤) . وحفظ نور الدين لشيركوه ذلك الجميل ، كما حفظ أبوه زنكى من قبل له ولأخيه حسن صنيعهما فى تكريت — وهنا يقول ابن أبى طى . «فكان نور الدين يرى له (اى لشيركوه) ذلك ، وأسد الدين (شيركوه) يمن عليه بأنه كان السبب فى توليته »(٥) .

(١) ابن الأثير . الكامل ج ١١ ص ٥١ .
(٢) نفس المصدر ج ١١ ص ٥١ ، ابن خلدون ج ٥ ص ٢٣٧ .
(٣) الروضتين ج ١ ص ٤٦—٤٧ ، ابن الأثير . الدولة الأتابكية ص ١٥٣ .
(٤) Stevensou P. 156 noje 7. .
(٥) الروضتين ج ١ ص ٤٧ :

وهكذا آل القسم الشرقى من دولة زنكى وعاصمته الموصل إلى ابنه سيف الدين غازى ، كما آل القسم الغربى منها إلى ابنه الثانى نورالدين محمود وعاصمته حلب . وعلى أساس ذلك التقسيم أصبحت مدينة بعلبك — وهى إقطاع أيوب — داخلة ضمن أملاك غازى ، ولعل هذا هو السبب الذى دعا نجم الدين إلى التريث انتظاراً لما ينجلى عنه الموقف .

وقد أصبح على نور الدين — حسب ذلك التقسيم الجديد — إذا أراد أن يتوسع وأن يحترم فى نفس الوقت حدود أخيه ، أن يتجه إلى الغرب وإلى الجنوب ، أى صوب الأملاك الصليبية . وبدا موقفه الجديد مساعداً له على ذلك ، إذ ان كثيراً من المشا كل التى تعرض لها والده زنكى وعاقته إلى حد كبير من التفرغ للصليبيين كالنزاع مع السلطان او مع الخليفة او الأكراد الضاربين فى شمال العراق حول الموصل وديار بكر ، هذه المشا كل جميعها زالت الآن تماما من طريق نور الدين ، لبعده عن مصدرها ، ولارتباطها ارتباطا وثيقا بالقسم الشرقى من دولة زنكى . وهو الذى آل إلى سيف الدين غازى ، ومن هنا كان فى استطاعة نور الدين ان يركز اعماله الحربية ضد الصليبيين(١) .

إلا أن أعداء البيت الزنكى الأتابكى ، ظنوا ان وفاة زنكى فرصة طيبة لاسترجاع املاكهم ، التى انتزعها منهم قبل وفاته ، فحاول جوسلين استرداد الرها التى ذهبت عنه ولايتها على يد زنكى ولكنه فشل ، وكان الدرس الذى لقيه أهلها على يد نور الدين كافيا لعدم التفكير فى أية محاولة أخرى(٢) .

(١) Stevenson. P. 166 .

(٢) راجع ابن الأثير . الكامل ج ١١ ص ٥١ ، ابن خلدون العبر ج ٥ ص ٢٣٨ .

وكذلك حاول رايمند أمير انطاكية أن ينال من أملاك المسلمين فارسل جيوشه لتغير على حماة وحلب ، وقتل الجيش الصليبي وسلب وتمادى فى العدوان ، فلما وصل الخبر بذلك إلى مسامع شيركوه ، خرج فيمن كان بحلب من الجنود ، وجد فى أثر الصليبيين حتى أدركهم ، واستخلص أسرى المسلمين من أيديهم ، ولم يكتف بذلك بل شن الغارة على أملاكهم ، وعاد إلى حلب مظفرا(١) .

ومن أولئك الانتهازيين أيضا معين الدين أنر أمير دمشق إذ قام لاسترجاع بعلبك وحاصرها ، وهى المدينة التى منحها زنكى لنجم الدين أيوب اقطاعا له منذ أن استولى عليها سنة ١١٣٩ ، وقد صارت تلك المدينة داخلة فى مملكة سيف الدين غازى ، كما صار أيوب تابعا له بحكم تقسيم المملكة التركية إلى قسمين ، وقد قام أيوب بدور غريب حتى سلم بعلبك إلى الأمير أنر سنة ١١٤٦ (٥٤١ هـ) دون قتال ، وذلك بعد وفاة زنكى بمدة قصيرة ، بل إنه دخل فى خدمة(٢) أنر بعد أن تعهد له بما طلبه من مال واقطاع(٣) ، وقد قيل فى تعليق ذلك أن أيوبا خشى أن يشب النزاع بين سيف الدين ونور الدين ، فلا يجد سيف الدين الوقت الكافى لمساعدة بعلبك ، وقيل أيضا إنه رأى أن الموصل — عاصمة أملاك سيف الدين ومقره — بعيدة عنه . وأن دمشق قريبة ، وربما

(١) Stevenson P. 156 ، الروضتين ج ١ ص ٤٨ .

(٢) يذكر أبو المحاسن « النجوم ج ٦ ص ٨٥ » أن نجم الدين انتقل هو وأخوه شيركوه إلى دمشق وأن شيركوه اتصل بنور الدين بعد ذلك وهذا يخالف ما تقول به جميع المراجع التاريخية .

(٣) نال نجم الدين نظير تسليم بعلبك إلى أنر مالا وإقطاعا وعشر قرى بالقرب من دمشق . ابن خلدون ، العبر ج ٥ ص ٢٣٨ .

أخذت منه المدينة عنوة وقسراً(١) ، ولذلك سلمها إلى أنر . على أن مايخيل إلى الباحث هنا هو أن أيوباً ربما يكون قد توقع أن سيف الدين غازى رجل لا يرجى منه ـ وقد دلت الحوادث التاريخية المستقبلة على ذلك ـ ولذا لم يعول أيوب كثيراً على الوقوف إلى جانبه ، والواقع أن الشخصيتين القويتين بين المسلمين فى ذلك الوقت كانا نور الدين صاحب حلب وأنر أمير دمشق ، ويحتمل أن أيوباً أراد أن يحتاط للمستقبل ، فانضم هو إلى ناحية أنر ، وترك أخاه حيث كان عند نور الدين ليضمن مصالح أسرته فى الناحيتين معاً ، ولهذا السبب افترق أيوب عن أخيه ، وهذا كله مجرد احتمال ، لأن النصوص التاريخية تقف صامتة عن تفسير تلك الحوادث على أن مايرجح ذلك الاحتمال أنه كان فى استطاعة أيوب أن يسلك مسلكا مختلفاً عما فعل ، فقد كان فى استطاعته مثلا أن يقاوم حتى يصل إليه المدد من غازى أو من نور الدين ، وكان فى استطاعته أيضاً أن يترك بعلبك إن هو فقد كل أمل فى حمايتها ، ويتجه إلى حلب حيث يعيش جنباً إلى جنب مع أخيه شيركوه ، أما تسليمه بعلبك وأخذه نظير ذلك مالا وأقطاعا بالقرب من دمشق وانضواؤه فى خدمة أنر ، فهو سلوك غير مرضى وغير طبيعى ، والدليل على ذلك أن نور الدين نفسه لم يعجبه ذلك المسلك ، إذ كان ينتظر أن ينضم أيوب إليه ، ولذا تغير فترة من الزمن على شيركوه ـ كما يذكر ابن أبى طى(٢) ، وهكذا افترق الأخوان — إلى حين — ليعملا فى خدمة سيدين متنافسين .

على أنه إذا رجع الباحث إلى الوراء قليلا فإنه يجد أيوباً قد تصرف

---

(١) انظر Lane - Poole, Saladin p. 67 .

(٢) الروضتين ج ١ ص ٤٨ .

هذا التصرف فى موقف مشابه ، عندما خدم زنكى عند تكريت وهو عائد من معركة حربية ضد الخليفة والسلطان ، ومغزى الموقفين لا يختلف وهو أن أيوباً كان يعمل لمصلحته الشخصية دون أن يرتبط بأمير معين أو إقليم بالذات ، وسيسلك ذلك المسلك فى موقف قريب ، مما يؤيد تلك الحقيقة ويؤكدها ، ومما يبين بوضوح أنه كان يعمل للتكوين لنفسه ولأسرته تشبهاً بمن اكتظ بهم عصره من الطامعين والمغامرين .

وإذن فقد انتقل أيوب إلى دمشق ، ومعنى ذلك أنه شهد وهو فى تلك المدينة حوادث الحملة الصليبية المعروفة بالثانية ، وهى الحملة التى جاء على رأسها ملكان متوجان هما لويس الرابع ملك فرنسا ، وكنراد الثالث إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، ولا حاجة للباحث هنا إلى تتبع تلك الحملة منذ أن قامت من أوربا إلى أن حطت رحالها بأرض الشام ، ويكفى القول بأنها كانت رد فعل مباشر لسقوط الرها الذى حدث سنه ١١٤٤ على يد زنكى ، وأنها جاءت لاسترداد تلك المدينة من أيدى المسلمين ، فتحولت عن غرضها الأصلى وهاجمت دمشق ، وهى الإمارة الإسلامية التى كانت حليفة لمملكة بيت المقدس اللاتينية منذ سنة ١١٣٣(١) ، وكان ذلك التحول نتيجة حتمية للنزاع والتنافس بين إمارتى أنطاكية وبيت المقدس الصليبيتين(٢) . إذ رغب رايمند أمير أنطاكية أن تهاجم الحملة نور الدين ، وأن تحقق الغرض الأساسى من مجيئها ، وهو استرداد الرها . إلا أن الحملة جنحت عن ذلك الغرض وهاجمت دمشق تلبية لرغبة مملكة بيت المقدس وتحقيقاً لمصالحها الخاصة

(١) زيادة ، مصر والحروب الصليبية ص ٦ (محاضرة ألقيت بنادى الاتحاد الانجليزى المصرى) .

(٢) Stevenson p.p. 159 - 160 .

وكان كنراد قد رسا فى عكا فى أبريل سنة ١١٤٨ (٥٤٣ هـ) ، فأحاط به منذ قدومه جماعة ينادون بمهاجمة دمشق ، أما لويس السابع فقد بقى فى أنطاكية ـ حيث نزل منذ مجيئه ـ حتى شهر يونيه ، حيث غادرها لينضم إلى بقية رجال الحملة ، وفى ٢٤ يوليه بدأ الصليبيون حصار دمشق ، وقد بذل أنر ما يستطيع من حيلة للخروج من ذلك المأزق ، فعمل على إيقاع الفرقة بين الصليبيين ، فأرسل إلى كنراد يهدده بتسليم دمشق إلى سيف الدين غازى ، وأرسل إلى لويس فى نفس الوقت يهدده بتسليم دمشق إلى الألمان ، كما أرسل يطلب المدد من نور الدين وسيف الدين وتحرك المدد المطلوب فعلا(١) ؛ إلا أن حصار المدينة لم يطل أكثر من خمسة أيام تراجع الصليبيون بعدها مخفقين .

والمفروض أن أيوباً قام بنصيب موفور فى جهاد تلك الحملة ، والدفاع عن دمشق ، وإن كانت المراجع لا تذكر شيئاً كثيراً عنه وأقرب مثل على ذلك أن ابن القلانسى صاحب كتاب « ذيل تاريخ دمشق » وهو المرجع الذى استقى منه الأوربيون أنفسهم أخبار ذلك الحصار ، لم يذكر شيئاً عن أيوب(٢) إلا أن المعروف أن أيوباً أصبح القائد الأعلى لجيوش دمشق بعد ذلك الحصار بقليل . فلابد أن تكون ترقيته لتلك الوظيفة نتيجة لمجهود بارز أبداه من قبل ؛ فإذا عرف أن دمشق لم تتعرض فى تلك الفترة لمحنة أقسى من حصار الصليبيين لها ، كأن معنى هذا أن ذلك المجهود البارز الذى كوفئ عليه إنما بذله فى للدفاع عنها ضد الصليبيين .

(١) ابن خلدون ، العبر ج ٥ ص ١٦٠ ، ٢٤١ — ٢٤٢ ، وابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٩ .

(٢) راجع ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ص ٢٩٨ — ٣٠٠ .

وهكذا انتهى المطاف بنجم الدين أيوب حاكم تكريت السابق إلى أن يصبح القائد الأعلى لجيوش أكبر مدن الشام أهمية فى ذلك الوقت وهى دمشق .

أما أسد الدين شيركوه فقد نال فى ميدانه نجاحاً لا يقل عن نجاح أخيه أيوب ، إذ بقى حيث هو فى بلاط نور الدين ، ولا غرابة فى ذلك إذ ترجع الصلة بينهما إلى أيام زنكى نفسه ، وقد أخذ شيركوه يساهم منذ اللحظة الأولى فى جميع أعمال نور الدين الحربية بل هو صاحب الفضل فى إنقاذ دولة نور الدين الجديدة مما حاق بها من أخطار من ناحية الصليبيين منذ أواخر سنة ١١٤٦ إذ رد رايمند أمير أنطاكية عن حماة وحلب - كما سبق القول(١) - ثم إن نور الدين كان قد وجه عنايته منذ سنة ١١٤٨ (٥٤٣ هـ) إلى أنطاكية يريد أن يهدم تلك الإمارة اللاتينية الثانية ، كما هدم والده زنكى من قبل إمارة الرها ، ولكن رايمند فاجأ الجيش النورى عند فاميا وهزمه(٢) .

ثم التقى نور الدين ورايمند فى عناب(٣) فى يونيه من تلك السنة ، وانتصر نور الدين وأسر كثيراً من الصليبيين ، وقتل رايمند فى ميدان

---

(١) انظر ما سبق .

(٢) Stevenson P. 165 .

(٣) المقصود من ذكر تلك المواقع الحربية بين نور الدين والصليبيين إنما هو إبراز مجهودات شيركوه وخدماته لنور الدين ، تلك الخدمات التى اوصلته إلى أن يكون القائد الأعلى لجيوشه . فهى إذن ليست استعراضاً لتلك الحروب . وليست هدفاً لذاته من أهداف البحث . ولو كان الأمر كذلك لوجب ذكر موقعة يغرا وهى التى انتصر فيها نور الدين على رايمند قبل ذلك بوقت قصير . وكان الفضل الأول فيها لشيركوه أيضاً ، الروضتين ج ١ ص ٥٥ .

القتال ، والفضل فى انتصاره يرجع إلى أسد الدين شيركوه حتى ليقال إنه هو الذى قتل رايمند بيديه(١) .

وفى ٢٩ أغسطس سنة ١١٤٩ (٢٣ ربيع الثانى سنة ٥٤٤ هـ)(٢) توفى أنر أتابك دمشق ورجع الحكم إلى حفيد طغتكين وهو آتق ، وهنا يبدو أن نجم الدين أيوب أخذ يحل محل أنر فى تصريف أمور دمشق(٣) ، كما يبدو أيضا أن نور الدين أخذ يعمل من ثم على تحقيق حلم والده القديم وهو الاستيلاء على دمشق ، فهاجمها من أجل ذلك الغرض مرتين الأولى فى ربيع سنة ١١٥٠ ولم يفز منها بطائل ، اللهم إلا ذكر اسمه بالخطبة بعد اسم الخليفة والسلطان ، والثانية بعد ذلك بعام واحد أى فى سنة ١١٥١ فوصل إلى ضواحيها فى أبريل من تلك السنة وبقى هناك حتى يوليه ، ولكنه لم يصل إلى شىء تلك المرة أيضا(٤).

إلا أن الحوادث لم تلبث بعد ذلك أن حفزت نور الدين إلى التعجيل بالاستيلاء على دمشق لأهميتها فى قتال الصليبيين من جهة ولأن نور الدين كان يسعى إلى توحيد القوى الإسلامية من جهة أخرى . ذلك لأن الصليبيين تطلعوا إلى بسط سلطانهم فى الجنوب فاستولوا على عسقلان سنة ١١٥٣ وهى آخر المعاقل المصرية الفاطمية فى الشام فرأى نور الدين أن مهاجمتهم لا تتم على وجه مرضى ، إلا بعد أن يتأكد من

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٥٨ .

(٢) Stevenson p. 166 .

(٣) Lane. Poole; Saladin p. 71 .

(٤) Stevenson p. 167 .

سلامة مؤخرته ، وهذا بدوره لا يتأتى إلا إذا هاجم دمشق(١) .

وفى أبريل سنة ١١٥٤ (المحرم سنة ٥٤٩ ه) أعد نور الدين العدة للاستيلاء على دمشق فجهز لذلك حملة بقيادة أسد الدين شيركوه ، أى أن الأخوين أيوباً وشيركوه أصبح عليهما أن يقفا وجهاً لوجه ، ولكن يظهر أن أيوباً كان قد قبل أن يسهل لنور الدين الاستيلاء عليها(٢) ، ويظهر أيضاً أن أهل المدينة تابعوه واستمعوا لنصحه بتسهيل الأمر لنور الدين ، ففتحوا أبواب المدينة للجيش النورى المهاجم(٣) . وانتهى ذلك بالحسنى بعد مفاوضات واقتراحات(٤) تردد فيها برهان الدين على البلخى رئيس الحنفية(٥) فى ذلك الوقت ، وبذلك سلمت دمشق إلى شيركوه دون قتال واندمجت فى أملاك نور الدين(٦)

(١) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ٨٠ ، ابن خلدون ج ٥ ص ١٦٠ — ١٦١ .

(٢) يقول أبو المحاسن (النجوم ج ٦ ص ٥) أن أسد الدين شيركوه كتب إلى أخيه وقال له « هذا يجب عليك فان مجير الدين قد أعطى الفرنج بانياس وربما سلم إليهم دمشق بعد ذلك » ، فأجابه نجم الدين ، وطلبا من نور الدين اقطاعات وإملاكا فأعطاهما وحلف لهما ووفى بيمينه .
راجع أيضا ابن الأثير ، الدولة الأتابكية ص ٢١٤ — ٢١٥ .

(٣) Lane - Poole, Saladin p. 72 .

(٤) ابن القلانسى ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٦ ، ٣٢٧ والروضتين ج ١ ص ٨١ .

(٥) ذكره ابن القلانسى فقال إنه كان من الفقه على مذهب الامام أبى حنيفة وأنه مشهور بالورع والدين والعفاف والتصون وحفظ قاموس الدين والعلم والتواضع .
انظر ص ٣٢٣ .

(٦) راجع ابن خلدون العبر ج ٥ ص ٢٧٨ .

وهنا يلاحظ أن أيوباً عين حاكماً على دمشق ، أما شيركوه فقد تولى وظيفة نائب السلطنة فى الدولة النورية ، وهكذا اجتمع الأخوان مرة أخرى فى بلاط نور الدين وفى خدمته بعد أن بلغا ذروة القوة والنفوذ .

وموقف أيوب فى فتح دمشق وتسهيله تلك المهمة أمام نور الدين ، يلقى ضوءاً جديداً على مبادئه وسياسته ، ويؤكد مرة أخرى أنه إنما كان يعمل لمصلحته الخاصة ، دون نظر إلى أى اعتبار آخر ، وحسب الباحث دليلا على توفيق أيوب فى تلك المغامرة أنه عين حاكماً على دمشق من قبل نور الدين بالرغم من أن ماضيه بالنسبة له لم يكن يشجع على شيء من الثقة فيه ، على أن توفيقه لم يقف عند ذلك الحد ، بل تجمع المراجع على أن أيوباً بلغ ما لم يبلغه أحد فى بلاط نور الدين ؛ حتى إنه لم يكن ليجلس فى حضرته أمير من غير أن يأمره بالجلوس ، إلا نجم الدين أيوب ، إذ كان يجلس دون أن ينتظر إذنه(١) ، فإذا أضيف إلى ذلك أن نور الدين كان رجلا مهابا إلى أبعد حد ، وأن أيوبا سبق له أن تخلى عن نصرة البيت الزنكى الأتابكى بتسليمه بعلبك إلى أعداء ذلك البيت ، وضح تماما إلى أى حد كان أيوب رجلا قوى الشخصية قديراً على أن يفرض محبته واحترامه والثقة فيه على المحيطين به جميعا ، وليس عجيبا أن يرث عنه ابنه صلاح الدين يوسف كل هذه الصفات .

وقد حظى شيركوه عند نور الدين بالمركز التالى لأخيه أيوب ،

---

(١) أبو المحاسن النجوم ج ٦ ص ٦ ، ابن الأثير الدولة الأتابكية ص ٢١٥ ، الروضتين ج ١ ص ١٠ ، إبراهيم الحنبلى ، شفاء القلوب ص ١٠ .

حتى قيل إن نور الدين لم يكن يعمل عملا إلا بمشورته(١) ، ويؤيد هذا ما ذكره ابن الأثير من أن شيركوه كان أكبر أمير مع نور الدين ، وأن شأن شيركوه عظم ومكانته علت حتى صار كأنه شريك له فى الملك(٢) ، والحقيقة أن شيركوه قدم لنور الدين خدمات جليلة كوفئ عليه بأن أصبح مقدم عسكره ، وهذا فضلا عن الأقطاعات الوافرة التى منحه نور الدين إياها(٣) .

أما صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب - وهو الشخصية الثالثة البارزة فى الأسرة الأيوبية ، فقد ولد بتكريت سنة ١١٣٨ (٥٣٢ هـ) ، وفى نفس الليلة التى غادرت فيها الأسرة الأيوبية تلك القلعة ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك(٤) ، وقضى صلاح الدين عام طفولته الأول فى الموصل ، وبعد ذلك بعام أصبح والده أيوب حاكما على بعلبك التى أقطعها إياه عماد الدين زنكى عندما فتحها سنة ١١٣٩ ، وفى بعلبك قضى صلاح الدين سنوات طفولته الباكرة ، وليس من شك فى أنه تلقى هنا مختلف العلوم الإسلامية التى يتلقاها الطفل المسلم ، ولابد أيضا أن يكون قد لقى عناية لا يتمتع بها أبناء الأوساط من الناس

(١) صاحب هذا القول هو صلاح الدين الأيوبى نفسه . انظر الروضتين ج ١ ص ١٥ .

(٢) ابن الأثير ، الدولة الأتابكية ص ٢١٥و٣٠٥ .

(٣) عبارة ابن الأثير فى هذا الصدد هى : ورأى (نور الدين) منه (شيركوه) فى حروبه ومشاهده آثاراً يعجز عنها غيره لشجاعته وجرأته ، فزاده إقطاعا وقربه حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما وجعله مقدم عسكره . الدولة الأتابكية ص ٢١٤ .

(٤) انظر الفصل الثانى .

بوصفه ابن حاكم المدينة ، فدرس ـ بالضرورة ـ علوم القرآن والحديث والفقه والنحو والأنساب والتاريخ ، وغير ذلك من ضروب المعرفة الإسلامية ، فلما قتل زنكى سنة ١١٤٦ م وارتحل أيوب عن بعلبك ، وانضوى فى خدمة أنر كان صلاح الدين قد بلغ الثامنة من عمره ، وإذن فقد قضى الفترة التالية من حياته فى دمشق حيث شهد حوادث الحملة الصليبية المعروفة بالثانية ، ومحاولاتها المختلفة للاستيلاء على تلك المدينة . وليس من المعقول أن يكون صلاح الدين قد قام بشىء من أعمال الدفاع عنها ، لأن سنه لم تكن تزيد وقتذاك عن الحادية عشرة إذ المعروف أن حصار دمشق حدث سنة ١١٤٩ ، وبعد ذلك بخمس سنوات أى فى سنة ١١٥٤ التقى الأخوان أيوب وشيركوه مرة أخرى فى بلاط سيد واحد هو نور الدين ، بعد أن سهل له أيوب الاستيلاء على دمشق ، وتقلب صلاح الدين فترة السنوات العشر التالية فى بلاط نور الدين .

والمتواتر أن تلك الفترة من تاريخ صلاح الدين ليست من الوضوح فى شىء ، ويستشهد المؤرخون دائما على ذلك بكتاب الاعتبار الذى كتبه أسامة بن منقذ . والواقع أن أسامة كان على صلة وثيقة فى تلك الفترة بالذات بكل جهة فى الشرق الأدنى ، وقد أودع كتابه « الاعتبار » بوجه خاص كثيراً من ذكرياته الحربية والاجتماعية والرياضية ، ومع ذلك فإن القارىء لذلك الكتاب لا يظفر بشىء عن صلاح الدين ، إلا أن ذلك ليس معناه أن صلاح الدين نشأ شاباً خاملا ، وليس معناه أيضاً أن نشأته كانت مجهولة إلى تلك الدرجة التى يصورها بعض المؤرخين ، ذلك لأن تنقلات صلاح الدين مع والده من تكريت إلى بعلبك إلى دمشق معروفة جيداً وبصفة قاطعة ، ومدة إقامته فى كل مدينة من تلك المدن لا يجهلها باحث فى تاريخه كما أن المناهج التعليمية

التى تلقاها معروفة كذلك بالقياس إلى التقاليد الإسلامية المتوارثة فى التعليم ، تلك التقاليد التى ظلت سائدة فى الشرق الأدنى إلى عهد ليس ببعيد .

أما مشاركة صلاح الدين فى الحياة الاجتماعية فإن الباحث لابد واجد ما يلقى بعض الضوء على نصيب صلاح الدين فى تلك الناحية ، فقد ذكر ابن أبى طى أن نور الدين شمل صلاح الدين بعنايته ، وأنه ألحقه بخواصه فكان لا يفارقه فى سفر ولا حضر(١) ، ذلك لأن صلاح الدين كان يفوق الناس جميعا فى اللعب بضرب الكرة ، وكان نور الدين يحب ذلك النوع من الرياضة(٢) ؛ وقد كان صلاح الدين يلعب الكرة ذات مرة مع نور الدين فعثرت فرسه ـ أى فرس صلاح الدين ـ فى الميدان ، فكان ذلك موضوعا لقصيدة نظمها العماد الأصفهانى ، وأثبتها أبو شامة فى كتابه الروضتين(٣) ، وقد ذكر العماد أيضا ولع نور الدين بتلك اللعبة ، وإتقان صلاح الدين لها فقال :

---

(١) الروضتين ج ١ ص ١٠٠ ، راجع أيضا ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٥ .

(٢) الروضتين — نفس الجزء والصفحة .

(٣) فى تلك القصيدة يقول العماد :

لا تنكرن لسابق عثرت به ... قدم وقد حمل الخضم الزاخرا

ومنها :

ضعفت قواه إذ تذكر أنه ... فى السرج منك يقل ليثا خادرا

وفى آخرها يقول :

وأسلم لنور الدين سلطان الورى ... فى الحادثات معاضداً ومؤازرا
فاذا صلاح الدين دام لأهله ... لم يحذروا للدهر صرفا جائرا

انظر الروضتين ج ١ ص ١٤٩ .

« وكان (نور الدين) مولعا بضرب الكرة ، وربما دخل الظلام فلعب بالشموع فى الليلة المسفرة ، ويركب صلاح الدين مبكراً كل بكرة ، وهو عارف بآدابها فى الخدمة وشروطها المعتبرة »(١) ، والمرجح أن صلاح الدين كان من غواة تلك اللعبة ، وممن يهتمون بتدبير أدواتها ولوازمها ، فقد احتاج العماد مرة إلى كنبوش لبغلته ، فولى وجهه شطر صلاح الدين وحصل على ما أراد ، وقال العماد فى لك قصيدة ذكرها أبو شامة أيضا(٢) .

ولعل فى تلك الإشارات ما يكفى للدلالة على أن صلاح الدين لم يكن بعيداً عن الحياة الاجتماعية بالقدر الذى يتواتر فى بعض الكتب . وكل ما يمكن قوله فى ذلك الصدد ، أن صلاح الدين كان بالرغم من ولوعه بالرياضة ، يميل إلى العزلة والاعتكاف عن الناس . ومع ذلك فإن الباحث فى تاريخ صلاح الدين فى تلك الفترة يستطيع أن يصل إلى أنه كان يصطفى جماعة من أصدقائه وخلصائه ، اعتاد أن يؤثرهم بالاجتماع بهم والتحدث إليهم . ومن أولئك الأصدقاء الخلص شاعر يبدو أنه كان على اتصال

(١) نفس المصدر ج ١ ص ١٥١ .

(٢) مطلع تلك القصيدة هو :

أصبحت بغلتى تشكو من العرى وأسراجها بلا كنبوش

ومنها :

وثقى واسكنى بجود صلاح الدين غرس الملوك ملك الجيوش
فهو يجلوك للعيون بكنبوش جديد مستحسن منقوش
كم عدو من بأسه فى عثار وولى بجوده منعوش
والموالى على الأسرة والأعداء تحت الهوان فوق النعوش

راجع أيضا الروضتين ص ١٥١ .

وثيق به وهو حسان بن نمير الكلبى المعروف بعرقلة(١) . والشعر الذى قاله ذلك الشاعر مدحا فى صلاح الدين مرجع هام للتعريف به ، مادامت المراجع التى تعالج تاريخ شبابه قليلة . وأن الباحث ليجد نفسه مضطرا إلى الاستشهاد بشعر عرقلة للتدليل على بعض اتجاهات الأسرة الأيوبية وأغراضها ، مما لم يكتب واضحا فى المراجع الأصلية ، على اعتبار ماقد يصدر من صلاح الدين من تصريح أو تلميح حول تلك الاتجاهات وهذه الأغراض لأصدقاء شبابه ، ومنهم عرقلة الذى يعبر عن ذلك فى شعره .

على أن صلاح الدين لم يشارك فى الحياةالاجتماعية والرياضية فحسب بل بدأ يساهم فى الناحية الإدارية أيضا وهو لايزال فى الثامنة عشرة من عمره ، فقد ذكر أبو شامة فى حوادث سنة ١١٦٠ م (٥٥٥ هـ) أن نور الدين ولى صلاح الدين شحنة دمشق(٢) ، أى أن صلاح الدين تولى هذه الوظيفة الهامة فى تلك السن المبكرة بعد فتح دمشق بعام واحد . ومن المحتمل أن يكون نور الدين رأى من صلاح الدين فى مدة ذلك العام ما يؤهله للقيام بأعباء ذلك المنصب الهام . ويدل على تلك الثقة فى صلاح الدين أن هذه الوظيفة كان يشغلها قبل ذلك تورانشاه عم صلاح الدين ، فلو لم يجد نور الدين فى صلاح الدين ما يؤهله لها ، لما عزل عمه وولاه بدله . وقد مدح الشاعر عرقلة صلاح الدين فى تلك المناسبة

(١) انظر الصلاح الكتبى . فوات الوفيات ص ١٤٤ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٠٠ . (يذكر الحنبلى أن صلاح الدين تولى شحنة دمشق سنة ٥٦١ هـ) راجع شفاء القلوب ص ١٦ .

بمقطوعات شعرية(١) ، تكفي وحدها للدلالة على أن صلاح الدين كان شابا بارزا ، ولو لم يكن الأمر كذلك ، لما انقطع لمدحه شاعر وهو فى تلك الحقبة المبكرة من عمره .

ومما يستلفت النظر هنا أيضا أن صلاح الدين أمسى شابا واسع الآمال(٢) فقد وعـد وهو لايزال بدمشق — كأمير من أمراء نور الدين — الشاعر عرقلة إنه إن ملك مصر أعطاه ألف دينار ، فلما تم له ذلك ـ كما سيجىء فى الفصول المقبلة ـ أخذ عرقلة يطالب صلاح الدين بتنفيذ وعده وقال فى ذلك شعرا يصور تلك القصة . ولا ينبغى أن يعتبر الباحث ذلك الشعر شيئاً خياليا لأنه إنما يصور قصة وقعت حوادثها ،

(١) قال عرقلة :

قلت لحسادك زيدوا فى الحسد   قد سكن الدار وقد حاز البلد
لا تعجبوا أن حـل دار عمه   أما تحل الشمس فى برج الأسد

وقال أيضا :

لصوص الشام توبوا من ذنوب   تكفرها العقـوبة والصفاد
لئن كان الفساد لكم صلاحا   فولاى الصلاح لكم فساد

ومن تلك المقطوعات :

رويدكم يالصـوص الشام إنى لكم ناصح فى مقالى
وإياكم وسمى النبي يوسـف رب الحجى والجمـال
فذاك مقطع أيدى النساء وهـذا مقطع أيدى الرجال

راجع الروضتين جـ ١ ص ١٠٠ ، وشفاء القلوب ص ١٦ .

(٢) انظر ابن الأثير ، الدولة الأتابكية ص ٢٢٥ .

وورد ذكرها فى غالبية المراجع الهامة فى موضوع البحث(١) . وقد ورد أيضا أن صلاح الدين بر بوعده فأرسل إليه — وقتئذ — الألف دينار . وفى ذلك يقول الصلاح الصفدى « فسير لصلاح الدين له (لعرقلة) ألفا وأخذ من أخوته مثلها »(٢) .

الواضح من هذا كله أن صلاح الدين أخذ يشارك فى مجريات الأمور وبدأ يظهر فى الأوساط الإسلامية كشاب بارز واسع الآمال . ولاشك أنه أفاد كثيراً من ملازمته لأبيه أيوب وعمه شيركوه ، فأخذ عن الأول الهدوء والتعقل ورصانة التفكير ، وأخذ عن الثانى الشجاعة والبسالة وفنون الحرب والقتال . وهذا فضلا عن ملازمته لنور الدين نفسه ، والإفادة من أساليبه فى الحرب والسياسة . وبذلك أضيف إلى شخصيات الأسرة الأيوبية البارزة شخصية أخرى هى شخصية صلاح الدين وهو الذى قدر له أن يقوم بالدور التنفيذى فى تحقيق آمال تلك الأسرة .

---

(١) قال عرقلة :

قل للصلاح معيثى عند إقتارى	يا ألف مولاى أين الألف دينار
اخشى من الأسران حاولت أرضكم	وما تفى جنة الفردوس بالنار
فجد بها عاضديات موقرة	من بعض ما خلف الطاغى أبو الطارى
حمرا كاسيا فكم غراً كخيلكم	عتقا ثقالا كأعدائى وأطمارى

راجع الصلاح الصفدى ، فوات الوفيات ص ١٤٤ ، الروضتين ص ١٧٧ ، وشفاء القلوب (مخطوط) ص ١٨ . وقد ذكر أبو شامة بيتين آخرين هما .

إليك صلاح الدين مولاى اشتكى	بزمانا على الحر الكريم يجور
ترى أبصر الألف التى كنت واعدى	بها فى يدى قبل الممات تصير

ص ١٧٧ .

(٢) الصلاح الصفدى فوات الوفيات ص ١٤٤ .

والخلاصة أن أيوبا وشيركوه تأثرا إلى حد كبير جداً بروح العصر الذى عاشا فيه ، ففى غمار الحوادث التى سادت الشرق الأدنى خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين ، كان المغامرون من المعاصرين كثيرين ، وراحوا يعملون جاهدين لأنفسهم ولأسرهم . ونجح من ساعدته مواهبه ووسائله واستعداده للنجاح ، وأخفق من عجزت وسائله وساء تدبيره . فإذا كان الأمر كذلك وإذا كان أيوب قد طمع حقا فى أن يؤسس لنفسه ولأسرته ، فلماذا لم تبد منه بادرة للدلالة على ما هو بصدده ، كما بدت من غيره كمجد الدين بن الداية مثلا أحد رجال نور الدين ، وكنصرة الدين(١) أخى نور الدين نفسه ؟ ولماذا لم تتضح نوايا الأيوبيين — إن كانت لهم نوايا فى الملك حقا — إلا بعد استقرار صلاح الدين فى مصر ؟ والجواب على ذلك واضح ، وهو أن نجم الدين لم يكن بالرجل القصير النظر ، فقد عاصر زنكى وابنه نور الدين ، وهما بطلا الجهاد ضد الصليبيين ، فلو أنه حاول أن يحقق أطماعه ، أو أن يكشف عنها قبل الأوان ، وفى الوقت غير الملائم ، لكان معنى ذلك اصطدامه معهما أو مع أحدهما ، وهما رجلان قويان لا بشخصهما فحسب ، ولكن بسياستهما التى سارا عليها . وقد بينت الحوادث أن كل من وقف لزنكى أو ابنه نور الدين من المسلمين ، كان نصيبه الاخفاق ، والسياسى الماهر هو الذى يسير مع التيار ويجرى مجراه حتى يستطيع

(١) مما يدل على أن الطمع فى الملك فى ذلك الوقت كان قائما بصورة واضحة حتى بين الأخوة أن نصرة الدين اميراميران — أخا نور الدين انتهز فرصة مرض أخيه نور الدين بحلب سنة ٥٤٤ هـ وحاصر قلعة تلك المدينة ، يريد أن يحتل مركز أخيه وهو لايزال على قيد الحياة لولا أن تدخل شيركوه فى الأمر فأوقف نصرة الدين عند حده راجع ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٩٥ ، ابن خلدون العبر ج ٥ ص ٢٤٣ .

تحويله لصالحه ، وقد سار أيوب على تلك السياسة أيام زنكى ونور الدين ، ويكفى أنه صاحب فكرة الانتظار حتى تندرج الأيام وهى الفكرة التى تصح بها ابنه صلاح الدين فى مناسبة مشهورة(١) .

على أن نوايا الأيوبيين لاتخفى على الباحثين فى تاريخهم الأول ، وقد يدل على ذلك كثرة انتقال أيوب من مدينة إلى مدينة ومن خدمة أمير إلى أمير وفقا لمصالحه الشخصية ، وعلى قدر ما يتوقع لنفسه فى ذلك الإنتقال من ربح لنفسه ولأسرته - وما يمكن أن يقال فى هذا الصدد أن نور الدين مرض بحلب سنة ٥٤٤ ه (١١٥٨ م) ، واشتد عليه المرض حتى أرجف الناس بموته ، فسلك شيركوه مسلكا يدل تمام الدلالة على أنه أراد أن يتخذ من تلك الظروف فرصة لتحقيق أطماع الأسرة ، إذ سارع - وكان فى أقطاعه بحمص - بالمسير إلى دمشق يريد أن يستولى عليها ، ولكن أيوبا - وكان لايزال حاكما لتلك المدينة منذ ولاه نور الدين عليها عقب فتحها - أنكر على أخيه محاولته وقال له : « أهلكتنا والمصلحة أن تعود إلى حلب ، فإن كان نور الدين حيا خدمته فى هذا الوقت ، وإن كان قد مات فإنا فى دمشق نفعل ما نريد من ملكها » (٢) . وقد عمل شيركوه فعلا بنصيحة أيوب فعاد إلى حلب وخدم نور الدين حتى شفى ، ووضع حداً لأطماع أخيه نصرة الدين الذى أراد أن يرث أملاك نور الدين وهو لا يزال على قيد الحياة .

---

(١) انظر مايلى .

(٢) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ٩٥ ، ابن خلدون ، العبر ج ٥ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

ومن تلك الحادثة العابرة يتضح الفرق الكبير بين شخصيتي أيوب وشيركوه . كما يتضح منها أيضا أن أيوبا وأخاه كانت لهما أطماع في الملك ، ولا خلاف بينهما في ذلك ما عدا أن شيركوه أراد أن يستعجل الأمور ، فرده حذر أيوب وتفكيره إلى الصواب ، وكان أيوب محقا لأن نور الدين شفي بعد ذلك ، فلو أن شفاءه جاء بعد إعلان نيات شيركوه لتحطمت الأسرة وأخفقت سياستها .

وعلى ذلك المبدأ - مبدأ الحرص والتأني والتفكير الطويل - سار أيوب ، وعلى أساسه ظل يعمل في خدمة نور الدين ، فكانت النتيجة أن مر الوقت ومر معه عمر أيوب وشيركوه ، فكان ذلك من حسن حظ صلاح الدين بأن يكون طليعة تلك الأسرة ، ومن المحتمل أن يكون أبوه أيوب قد أدرك أن مجد الأسرة الأيوبية كلها ينحصر فيه ، لأنه شاب لا يزال في مقتبل العمر ، ولما كان يبدو عليه - كما اتفق المؤرخون وكما هو واضح فيما أحرزه من نجاح فيما بعد - من سمات النبوغ والذكاء وقوة الشخصية ، وربما كانت بعض العوامل السالبة المحيطة بأيوب وشيركوه في تلك السنوات مما ساعدهما على التمكين لتلك الفكرة ، فقد بدأ نور الدين الشخصية الوحيدة التي يمكن أن يعمل لها حساب ، فأخوه سيف الدين غازي(١) توفي سنة ١١٤٩ (٥٤٤ ﻫ) ، وأخوه الثاني نصرة الدين بدا منه عند مرضه من سوء النية ما جعله يقصيه عنه(٢)

---

(١) لم يترك سيف الدين غازي سوى طفل صغير أراد عمه نور الدين أن يربيه ، ولكنه توفي فانقرض عقب غازي .

ابن خلدون ، العبر ج ٥ ص ٢٣٩ .

(٢) لما شفي نور الدين سير نصرة الدين إلى حران وجعل قطب الدين مودود ولي عهده . الروضتين ص ١١٠ .

أما أخوه الآخر قطب الدين مودود فقد اكتفى بولايته فى سنجار وعاش بعيداً عن حوادث الشام ومشاكلها ، ولم يكن بجانب نور الدين فى تلك السنوات سوى ابن له طفل وابنة صغيرة ، ولهذه العوامل المختلفة أخذ أيوب - فيما يبدو - يعد ابنه يوسف ويمهد له الطريق ، ورائده فى ذلك مصلحة الأسرة نفسها ، لأنه لم ينظر لصلاح الدين تلك النظرة إلا وهو مقتنع تماماً بأنه أصلح شباب الأسرة للقيام بذلك الدور ومما يدل على ذلك أن أيوباً كان له أبناء آخرون أكبر من صلاح الدين وأصغر سنا ، فلم يقع اختياره على أحد منهم سوى صلاح الدين ، فالمبدأ إذن كان مبدأ البقاء للأصلح ، وهذا هو المبدأ الذى ساد فعلا بعد وفاة صلاح الدين بصورة واضحة ، إذ لم يبق ملك مصر فى عقبه ، وإنما انتقل إلى غيرهم من شباب الأسرة الأقوياء(١) ، ولم يكن صلاح الدين محل تقدير أسرته فقط ، بل كان محل تقدير نور الدين أيضا ، وهذا ظاهر من توليه شحنة دمشق وهو فى الثامنة عشرة من عمره - وسيجىء فى الفصل المقبل ما يوضح مدى إعداد الأسرة الأيوبية لصلاح الدين .

وهكذا استطاعت الأسرة الأيوبية أن تصل إلى المركز الأسمى فى بلاط نور الدين فمنها القائد الأعلى لجيوشه ، ونائب سلطته وهو أسد الدين شيركوه ، ومنها حاكم دمشق وهو نجم الدين أيوب ، ومنها صلاح الدين يوسف شحنتها ، وهذا عدا الكثيرين من شبابها

---

(١) لم يكن باقيا من عقب شيركوه فى ذلك الوقت سوى ابن واحد هو ناصر الدولة محمد الملقب بالملك الناصر وهو الذى أعطاه صلاح الدين حمص عندما ملك الشام ، راجع ابن خلكان ج ١ ص ٢٢٧ .

الذين أبلوا البلاء الحسن فى حروبه وجهاده ، ومهما يكن فليس هناك من شك بأن شيركوه كان الساعد الأيمن لنور الدين ، ومن تلك الأمثلة ذلك الدور الذى لعبه فى الاستيلاء على بانياس سنة ١١٥٧ من الصليبيين ، والسبب فى تلك الحركة الجديدة ضد الصليبيين أن نور الدين عقد معاهدة فى بلدوين الثالث سنة ١١٥٦ ، فنقضها الملك الصليبي فى السنة التالية ، حين اعتدى على ماشية لنور الدين كانت ترعى بالقرب من تلك المدينة . وكان نور الدين فى ذلك الوقت مقيما فى بعلبك ، فوافاه شيركوه عليها بعد انتصار عظيم على الصليبيين فى الشمال (١) . وهناك اتفق الاثنان على خطة الهجوم وقام شيركوه بنصيب باهر فى ذلك ، فاستولى أولا على ما حول بانياس من البلاد ، وفت ذلك فى عضد الصليبيين وسرعان ماسقطت بانياس سنة ١١٥٧ (٥٥٩ هـ)(٢) ، ولو أن القلعة ظلت على المقاومه مدة من الزمن .

والواقع أن الباحث لا يستطيع أن يتوسع فى ذكر أعمال شيركوه الحربية دون أن يخرج عن موضوع البحث إلى موضوع آخر هو حروب نور الدين والصليبين ، كما لا يستطيع إلا أن يعترف بأن شيركوه قد أضحى قوة كبيرة فى صفوف الصليبين وفى جيش نور الدين .

---

(١) ابن القلانسى — ذيل تاريخ دمشق ص ٣٣٩ .

(٢) انظر الفصل الأول .

على أن الحوادث لم تلبث بعد ذلك أن غيرت وجهة الأيوبيين ، فأوجدت لهم مجالا أكثر صلاحية وأوفر ملاءمة لتحقيق أغراضهم ، إذ بلغ الاضطراب فى مصر فى ذلك الوقت قمته ، حتى لقد اضطر أحد وزرائها المبعدين أن يحاول ما حاوله غيره من الوزراء المصريين(١) . وهو أن يلتجىء إلى نور الدين ليعيده إلى وظيفته ، وكان ذلك إيذاناً بفصل جديد فى تاريخ الأسرة الأيوبية ، وفى تاريخ مصر .

---

(١) راجع Yibb P. P. 346 - 353 .

الفصل الثالث

استيلاء الأيوبيين على مصر باسم نور الدين

مقتل طلائع بن رزيك — وزارة ابنه العادل — عزل شاور والى قوص — وزارة شاور — النزاع بين شاور وضرغام — فرار شاور إلى الشام واستنجاده بنور الدين .

وزارة ضرغام — اختلافه مع عمورى الأول ملك بيت المقدس — حملة عمورى على مصر .

حملة نور الدين الأول — أسبابها — معركة بلبيس — حصار القاهرة — هزيمة ضرغام — مقتله — وزارة شاور الثانية — النزاع بين شيركوه وشاور — احتلال شيركوه لبلبيس — استنجاد شاور بالصليبيين — حصار الصليبيين لشيركوه فى بلبيس — رفع الحصار — عودة الفريقين إلى الشام .

الحملة النورية الثانية — وصول شيركوه والصليبيين إلى مصر — تأييد الاسكندرية لشيركوه — معركة البابين — انتصار شيركوه — صلاح الدين فى الاسكندرية — رحيل شيركوه إلى الصعيد — حصار الاسكندرية — عودة شيركوه إليها — الاتفاق على الجلاء — رجوع الفريقين إلى الشام .

وفد الصليبيين إلى الدولة البيزنطية — عودة عمورى الأول إلى مصر فتح بلبيس — شاور والصليبيين — حريق الفسطاط — الاستنجاد بنور الدين — موقف نور الدين من شاور — الحملة النورية الثالثة — عودة الصليبيين — مقتل شاور — وزارة شيركوه .

تعقيب — الأسباب التي ساعدت شيركوه على فتح مصر .

استيلاء الايوبيين على مصر

باسم نور الدين

هـذا الحدث التاريخى الفاصـل فى تاريخ مصر فى العصـور الوسطى موضوع يمكن أن ينظر إليه من زوايا مختلفة . فقد يدرس على أنه تكملة للنزاع بين نور الدين والصليبيين ، وقد يدرس على أنه دور جـديد من أدوار الحـروب الصليبية ، وقد يدرس أيضا على أنه الخطوة العمليـة التنفيذية فى قيام الدولة الأيوبية فى مصر . ومن هـذه الوجهة الثالثـة ستكون دراسته هنا . أى أن الغرض من هـذا الفصـل إنما هو بيان المجهودات التى بذلتها الأسرة الأيوبيـة فى الاستيلاء على مصر ، ومدى استغلال رجالها لتلك الفرصة لصالحها الخاص وهو تأسيس دولة أيوبية مستقلة عن دولة نور الدين .

أما أحوال مصر العامة فى أواخر أيام الدولة الفاطمية ، فقد صورت فى الفصل الأول التصوير الموجز الذى يقتضيه المقام(١) . وأما الحوادث التى تلت ذلك وأدت إلى تدخل كل من نور الدين والصليبيين فى شئون مصر ، فقد بدأت بوفاة طلائع بين رزبك وزير العاضد الفاطمى (١١٦٠ — ١١٧١ م ٥٥٥ — ٥٦٧ ﻫ) ومن هنـا وجب التعـرض لوفاة ذلك الوزير بشىء من التفصيل .

يقول ابن الفرات فى حوادث سنة ٥٥٥ ﻫ (١١٦٠ م) أنه لما بويع للعاضد بالخلافة الفاطمية بالقاهرة ، وركب الوزير طلائع بن رزيك بين

(١) انظر الفصل الأول .

يديه سمع العاضد وزيره ابن رزيك وهو يقول متمتما أثناء الموكب الخليفى للأمير (على) بن الداية . «يا على ! كأنى بهؤلاء الكلاب دعاة الاسماعيلية وشيعتهم يقولون مامات الأول حتى نصبها فى الثانى ، وماعلموا أنى كنت قاعداً أستعرض لهم خليفة كما أستعرض الغنم»(١) .

والراجح أن هـذه الرواية صحيحة ، لأن ابن رزيك تزدد حقيقة فى اختيار الخليفة ، فقد ذكر ابن الأثير أنه لما مات الفائز ، استدعى الصالح أحد رجال القصر ، وسأله عمن يصلح للخلافة ، فذكر له بعض الأسماء ، ومال ابن رزيك إلى واحد منهم كبير السن ، إلا أن أصحابه لاموه وجعلوه يعدل عنه إلى منه هو أصغر منه سنا ، ليكون أسلس قيادا . فاختار ابن رزيك العاضد(٢) وهو عبد الله بن يوسف بن الحافظ أى أن أباه لم يكن خليفة . وهـذا يدل على أن الخلفاء فى مصر قد أصبحوا اسما لامعنى له بعد أن صار أصلحهم عند الوزراء أضعفهم وأقلهم قدرة على القيام بأعباء الأمور .

على تلك الصورة بدأ العاضد — آخر الخلفاء الفاطميين — حكمه . ولكن سرعان ما نشطت دسائس القصر تدير دفتها عمة الخليفة ، وغايتها القضاء على الوزير طلائع بن رزيك ، ثم كان أن قتل ابن رزيك فى أحد دهاليز القصر ذات ليلة من رمضان سنة ٥٦٦ هـ (١١٦١ م)(٣) وقد قال

---

(١) تاريخ الدول والملوك (مخطوط) ج ٦ ص ١٣٠ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٢٣ ، راجع أيضا ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٧٦ .

(٣) صورة ابن خلدون (العبر ج ٤ ص ٧٦) مقتل ابن رزيك فقال «اجتمع قوم من القواد والسودان منهم ابن الداعى والأمير ابن قدام الدولة وكان صاحب الباب — وتواطئوا على قتله — ووقفوا فى دهليز=

ابن أبي طي بصدد ذلك الحادث أن عمة الخليفة العاضد كرهت ابن رزيك وتآمرت عليه لاستيلائه على أمور الدولة ، وحفظه للأموال ، وقتله من أجل ذلك كثيراً من الأمراء ونكبهم ، وتمكنه من شئون الدولة تمكناً حسناً(١) . ويضيف ابن الفرات إلى ذلك أن الصالح كان يبيع الولايات للأمراء ويجعل لها أسعاراً محدودة وزمناً معيناً هو ستة أشهر . فتضرر الناس من ترداد الولاة عليهم(٢) أي أن أسباب اغتيال ابن رزيك يرجع معظمها إلى استئثاره بالسلطة وما تدره من المال بغير حساب .

ولا تقتصر أسباب قتل ابن رزيك على ذلك ، وإنما يضاف إليها أنه أخرج كثيراً من الأعيان عن القاهرة وفرقهم فى البلاد ليأمن وثوبهم عليه ، ثم أنه كان مكروها من نساء القصر لأنه زوج العاضد من ابنته(٣) . وهذا فضلا عن أنه كان أمامى المذهب(٤) . أى على غير مذهب الخليفة . وهذه الأسباب مجتمعة هى التى أدت إلى اغتيال ذلك الوزير الذى فتح القدر بموته باب النزاع بين ثلة من الوزراء المتنافسين الذين أدى تنافسهم إلى تدخل كل من نور الدين والصليبيين فى شئون الدولة الفاطمية .

= القصر ، وأخرج ابن قوام الدولة الناس أمامه وهو خارج من القصر واستوقفه عنبر الريفى يحادثه . وتقدم ابنه رزيك فوثب عليه جماعة منهم جرحوه وضرب ابن الداعى الصالح فأثبته ، وحمل إلى داره فبقى يجود بنفسه يومه ذلك . . . ومات من الغد » . راجع أيضا ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٢٣ .

(١) الروضتين ج ١ ص ١٢٤ .

(٢) ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ج ٦ ص ٣٠ ب .

(٣) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٢٣ .

(٤) نفس المرجع السابق .

ولكى يبعد القصر عن نفسه كل شبهة فى مقتل ابن رزيك(١)، وافق على تعيين ابنه خلفاً له(٢)، ولقب الوزير الجديد بلقب الملك العادل، وكان أبوه قد نصحه وهو على فراش الموت أن يحذر جانب شاور أمير قوص، وألا يعزله من منصبه(٣)، لأنه من القوة بحيث لايؤمن جانبه(٤) إلا أن العادل سار على منوال وزراء ذلك العهد جميعا بل على منوال أبيه أيضاً، من حيث الاستبداد بشئون الخلافة، فاستولى على تدبير أموره عمه فارس المسلمون بدر بن رزيك وصهره سيف الدين حسين(٥)، مما يدل على أنه لم يكن الشخصية القوية التى تستطيع أن تقف وحدها فى ذلك الموقف الحرج، وكان من الطبيعى ألا يرضى رجال القصر عن ذلك، فنشطت — من ثم — دسائسهم محكمة التدبير، إذ أشاروا على العادل أن يعزل شاور أميرقوص، وهو ذلك الرجل الذى عسر أمره على أبيه، ولكى يسهل المتآمرون على العادل أن يخطو تلك الخطوة الجريئة أشاعوا أن شاور إنما هو الذى

(١) طلب الصالح من العاضد وهو على فراش الموت أن يسلمه عمته فسلمها له وقتلوا الصالح كما قتل بعض المتآمرين الآخرين. انظر ابن الأثير الكامل (ج ١١ ص ٢٣)، ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٧٦.

(٢) يقول ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٢٣. ان الصالح أوصى بالوزارة لابنه رزيك.

(٣) كان ابتداء أمر شاور ووزارته انه كان يخدم الصالح بن رزيك ولزمه فأقبل عليه الصالح وولاه الصعيد، وهو أكبر الأعمال بعد الوزارة، فلما ولى الصعيد ظهرت منه كفاية عظيمة وتقدم زائد، واستمال الرعية والمقدمين من العرب وغيرهم فعسر أمره على الصالح ولم يمكنه عزله، فاستدام استعماله لئلا يخرج عن طاعته، ابن الأثير ج ١١ ص ١٢٩.

(٤) ابن خلدون ج ٥ ص ٧٧.

(٥) عمارة اليمنى، النكت العصرية ج ١ ص ٥٤.

حرض على قتل والده ، واندفع العادل فأصدر أمره بعزل شاور ، وتحرك شاور فى الصعيد يبغى الوصول إلى الوزارة عن طريق الانتقام من العادل أولا ، وقد جمع شاور من العربان وأبناء الصعيد جموعاً غفيرة استطاع بها أن يدخل القاهرة ويهزم العادل ويضطره إلى الهرب حتى يعثر عليه فيودعه السجن ، وهكذا وصل شاور إلى الوزارة فى يناير سنة ١١٦٣ (المحرم سنة ٥٥٨ هـ) ، وأخرجت إليه خلعها ، وأصبح له — هو الآخر — الأمر والنهى فى البلاد ، شأن كل وزير قادر فى تلك الأيام .

ولكن يظهر أن وزراء ذلك العهد جميعا كانوا ممن لا يتعظون بغيرهم ، فإن شاور سار فى حكمه سيرة كلها ظلم وجور ، فعامل العاضد معاملة سيئة ، وأساء السيرة فى الناس ، فاستولى على أموال بنى رزيك جميعا وأودعها عند بعض العربان الذين آزروه فى حركته التى أوصلته إلى منصب الوزارة كما أنقص أرزاق الجند . ويقال أن ابنه الكامل بلغ من عدم اكتراثه بالخليفة أن عمل لنفسه مظلة لتحمل على رأسه تقليداً للطقوس الخليفية(١) .

ثم حدث أن حاول ملهم وأخوه ضرغام مقدم الجنود البرقية من العربان(٢) — وهم جنود آل رزيك — أن يتصلا بالعادل رزيك فى سجنه ، تمهيداً لإثارة ثورة يتمكنان بها من إرجاعه للوزارة ، وسمع طى ابن شاور بخبر تلك المفاوضات ، فنصح أباه بأن يعاجل الحوادث بقتل

---

(١) ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك جـ ٦ ص ٥٥ .

(٢) يلاحظ هنا أن عربان البرقية نسبة إلى برقة بأقصى الشمال الغربى من أطراف مصر ، وأن شاور اعتمد على عربان الصعيد الجنوبى .

رزيك ، فلما لم يذعن شاور لرأى ابنه ذهب طى بنفسه إلى السجن وقتل رزيك(١) ، فأثار بذلك ثائر البرقية وعلى رأسهم ضرغام .

وأشعل ضرغام على(٢) شاور نار الثورة ، فكانت النتيجة أن هزم شاور ، وفر من القاهرة واتجه إلى الشام فى شهر أغسطس سنة ١١٦٣ (رمضان سنة ٥٥٨ هـ) لاجئاً ، ومستعينا بنور الدين ضد أعداء شخصه وسياسته من المصريين فوصل إلى دمشق فى ٢٣ أكتوبر (٢٣ ذى القعدة)(٣) ؛ أما ضرغام فقد وصلت إليه فى نفس ذلك التاريخ خلع الوزاة ومعها لقب المنصور .

وقد نقل ابن الفرات رواية أخرى عن فرار شاور نقلها عن كتاب « أخبار الدولة المصرية وما جرى بين الملوك والخلفاء من الفتن والحروب من أيام الآمر إلى أيام شيركوه » ، وهو مرجع لم يذكر ابن الفرات نفسه اسم مؤلفه ، وخلاصتها أن شاور استولى على أموال العادل بن رزيك ووزعها على أبنائه بعد أن أخذ نصيبه منها ، وأودعه عند أحد العربان ، ثم إنه سار السيرة السيئة التى مر ذكرها ، ولما كان شاور يخشى جانب ضرغام فقد استحلفه ألا يخونه أو يغدر به ، وفى نفس الوقت أراد أن يقبض عليه ، فأرسل إلى كبار الأمراء يدعوهم للحضور ومن بينهم ضرغام ، إلا أن ضرغاما لم يحضر بمفرده ، وإنما حضر ومعه جنوده من البرقية فخاف شاور منهم على نفسه ، وخشى أن يقبضوا عليه ، ففر إلى الشام(٤) .

---

(١) راجع حسن إبراهيم حسن ، الفاطميون فى مصر ص ٣٠٠ .

(٢) انظر عمارة اليمنى ، النكت ص ٦٨ .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ج ٦ ص ٧٢ « ا » .

(٤) انظر الفصل الأول .

وهكذا سهل شاور بفراره السبيل أمام نور الدين للتدخل فى شئون مصر ، فإذا عرف أن الصليبيين كانوا قد تدخلوا من قبل فى شئونها(١) ، وأن مصر كانت قد بدأت تدفع لهم مالا سنوياً ثمناً لسكوتهم عنها ، وضح تماماً أن التسابق بين شاور وضرغام على كرسى الوزارة قد انتهى إلى تسابق بين نور الدين والصليبيين على الاستيلاء على مصر .

واستطاع شاور أن يتصل بنور الدين ، وأن يعرض عليه قضيته ، وطلب منه ان يساعده فى استرداد منصبه فى مصر على أن ينزل له فى نظير ذلك عن ثلث خراجها جزيه سنوية عدا قيامه بنفقات الحملة . وعلم ضرغام بتلك الصلة ، فأراد أن يتدارك الأمر قبل وقوعه ، فأرسل من قبله رسولا خاصاً إلى نور الدين هو علم الملك ابن النحاس ، بكتاب منه يظهر له فيه الطاعة والولاء ، ويعرض بخذلان شاور(٢) ، ولكن يظهر أن نور الدين كان قد وطد العزم على الإفادة من تلك الفرصة ، بدليل أنه أرسل جيشه مع شاور ، وصرف النظر عن ابن النحاس رسول ضرغام .

أما عن نور الدين فليس هناك شك فى أنه كان يعلم تمام العلم أهمية مصر بالنسبة له فى جهاده ضد الصليبيين(٣) ، فلو أنه استطاع أن يثبت أقدامه فيها ، لتأتى له بذلك أن يضيق الخناق عليهم ، وأن يهاجمهم من

(١) راجع Stevonson. P. 186 .

(٢) ابن الفرات ، تاريخ الأمم والملوك ج ٦ ص ٥٧ ، ١ ، بالروضتين ج ١ ص ١٦٦ .

(٣) راجع Stevenson P. 187 .

ثلاث جهات : الشمال والشرق والجنوب ، وعلاوة على ذلك فإنه سيفيد من موارد تلك البلاد الطائلة ، وفى نفس الوقت تتاح له فرصة القضاء على الدولة الفاطمية التى دام حكمها فى مصر حوالى قرنين من الزمان ، والتى بلغ من كرهه لها ، أنه أخذ يصرف الناس عن عقائدها وهو لا يزال فى حلب(١) . بل إن الرغبة فى القضاء على تلك الدولة ، إنما ترجع إلى أيام السلطان السلجوقى ملكشاه نفسه ، الذى فكر فى ذلك تفكيراً جدياً ، لولا أن عاجلته المنية سنة ١٠٩٢ عن القيام بشىء مما أراد(٢) .

وإذاً فاستجابة نور الدين لنداء شاور سنة ١١٦٣ م لم يكن أساسها نصرة اللاجىء المستنجد ، أو إعادة الوزير المخلوع ، وإنما أساسها فى حقيقة الأمر رغبة نور الدين فى كشف أحوال مصر تمهيداً لضمها إلى أملاكه ، وإسقاط الدولة الفاطمية فيها(٣) ، وقد ذكر أولئك المؤرخون ذلك العرض الثانى فى صورة لا تقبل الشك ، فقال أبو شامة أن نور الدين سير جيشه مع شاور « قضاء لحق الوافد المستصرخ وحبا للبلاد وتطلعاً على أحوالها »(٤) ، وقال ابن خلكان فى هذا المعنى أيضاً أن نور الدين كان له غرضان « أولها : قضاء حق شاور لكونه قصده

(١) الروضتين ج ١ ص ١٧٤ .

(٢) انظر الفصل الأول ص ٥ حاشية رقم ٣ .

(٣) يقول السيوطى (حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٧) أن الخليفة العباسى المكتفى كتب عهداً لنور الدين على البلاد الشامية والمصرية وذلك منذ مقتل الظافر وولاية الفائز ولو صح ذلك لكان معناه أن نور الدين فى تقدمه نحو الجنوب إنما كان ينفذ سياسة موضوعة للاستيلاء على ما عهد به الخليفة إليه .

(٤) الروضتين ج ١ ص ١٣٠ .

ودخل عليه مستصرخاً . والثانى : أنه أراد استعلام أحوال مصر فإنه كان يبلغه أنها ضعيفة من جهة الجند ، وأحوالها فى غاية الاختلال فقصد الكشف عن حقيقة ذلك »(١) .

والواقع أن فى كلمتى « حبا للبلاد » الواردتين فى نص أبى شامة ما يلفت نظر الباحث إلى حقيقة هامة ، وهى أن نور الدين خشى أن يزداد نفوذ الصليبيين فى مصر بعد أن استدفعوها جزية سنوية ، وأن ينتج عن ذلك ما يهدد كيانه فى الشام ، ولذلك أراد أن يسبقهم فى الاستيلاء عليها . ويفسر تلك الحقيقة أن شاور لم يكن الوزير الفاطمى الأول الذى لجأ إلى البيت الزنكى الأتابكى يبغى الاستعانة به على أعدائه فى مصر ، فقد سبقه إلى ذلك رضوان بن الولخشى سنة ١١٣٨ (٥٣٣ ﻫ) وعباس بن أبى الفتوح(٢) سنة ١١٥٤ (٥٤٩ ﻫ) كما أن طلائع بن رزيك حاول — فى بداية وزارته — أن يعقد حلفا مع نور الدين نفسه ولكن نور الدين تردد فى ذلك لأن موقفه وقتئذ لم يكن يشجع على أن يخطو تلك الخطوة . وهذا بدوره ينقض القول بأن نور الدين أرسل جيشه مع شاور « قضاء لحق الوافد المستصرخ » إذ لو كان الأمر كذلك لما تردد فى مساعدة الوزراء الفاطميين الذين لجأو (٣) إليه قبل شاور.

أما ماحدا بنور الدين إلى إرسال جيشه تلك المرة فهو تطور وجهة النظر الصليبية نحو مصر ، لأن ضرغاما — الوزير الفاطمى الجديد — اختلف مع عمورى ملك بيت المقدس فى أمر الجزية السنوية التى كان

---

(١) ابن خلكان ، الوفيات ج ٣ ص ٣٧٨ .
(٢) الفصل الأول .

على مصر أن تدفعها للصليبيين(١) ، فسار عمورى فعلا إلى مصر فى شهر سبتمبر سنة ١١٦٣ (٥٥٩ هـ) لينال تلك الجزية بالقوة ، أى بعد فرار شاور إلى الشام بشهر واحد . وقد هزم عمورى ضرغاما بالقرب من بلبيس ، فأراد ضرغام أن يتجنب الهزيمة النهائية ، ولذلك فتح سدود النيل واضطر عمورى إلى العودة إلى الشام . ولا بد أن تكون أخبار تلك الحملة قد وصلت إلى مسامع نور الدين(٢) ، ففكر — من ثم — تفكيراً جديا فى إرسال حملته إلى مصر ، لا ليرد شاور إلى منصبه ، ولكن « حبا للبلاد » من الصليبيين كما يقول أبو شامة .

ولكن إذا كان كشف أحوال مصر — تمهيداً للاستيلاء عليها — قد أصبح أمراً هاماً بالنسبة الى نور الدين إلى ذلك الحد ، فأى قائد من قواده يجب أن يرسله على رأس حملته إليها ؟ لم يكن أمامه فى الواقع أكثر صلاحية من شيركوه ، لأنه القائد الذى خبر أساليب الصليبيين فى الحرب والسياسة ، ولأنه — كما يقول ابن الأثير — « مقدم عسكره وأكبر أمراء دولته وأشجعهم »(٣) ، ولأنه أصبح على الحملة أن تنتقل إلى إقليم جديد واضح الحدود والمعالم بعيد عن مقر نور الدين فى حلب أو فى دمشق ، وهى فى تلك الحالة تحتاج إلى قائد مجرب شديد البأس ، وهنا يقول أبو شامة أن سبب اختيار شيركوه يرجع إلى أن نور الدين « لم يرسله فى أمر إلا نجح ، ولم يولجه فى مضيق إلا انفتح »(٤) ،

(١) زيادة ، مصر والحروب الصليبية ص ٦ .

(٢) Lane - Poole - Saladin P. 81 .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٢٣ .

(٤) الروضتين ج ١ ص ١٦٦ .

وبرهانه واضح فيما تقدم وفيما سيلى من حوادث .

على أنه من الممكن أن يقال أن شيركوه قد قام — فيما يبدو — بدور كبير فى حمل نور الدين على إرسال تلك الحملة إلى مصر ، وغرض شيركوه الخفى من ذلك أن تتاح للأسرة الأيوبية فرصة أخرى للمغامرة والتكوين لنفسها ، لاسيما فى إقليم كمصر يصلح لذلك كل الصلاحية . من حيث الموقع الممتاز والحدود الجغرافية الواضحة والموارد الطائلة والظروف القائمة فيها ، والدليل الوحيد الذى يستند إليه الباحث فى الأدلاء بهذا الرأى دليل استنتاجى بحت ، بسبب صمت المراجع عن الأدلاء بشىء مافى ذلك الصدد ، فنور الدين دخل حلب بمساعدة شيركوه وبإشارته، واستولى على دمشق بمساعدة شيركوه وأخيه أيوب(١) ، فمن المحتمل إذن أن يكون قد وافق على إرسال حملته إلى مصر بناء على رأى شيركوه أيضاً ، ويؤيد هذا الاحتمال موقف شيركوه فيما بعد بالنسبة لفتح مصر وإلحاحه على نور الدين إلحاحا متواصلا لإتمامه كما سيجىء ، ومن المحتمل أيضاً أن يكون تفكير الأسرة الأيوبية فى ملك مصر قد بدأ من ذلك الوقت . وإلى ذلك يشير ابن الأثير صراحة فيقول « وكان هوى أسد الدين (شيركوه) فى ذلك (أى فى إرسال الحملة) وعنده من الشجاعة وقوة النفس مالا يبالى (معه) بمخافة »(٢) ولعل مما يؤيد ذلك الرأى قصة عرقلة والألف دينار التى وعده بها صلاح الدين(٣) ، وفى هذا الصدد يقول ستيفنسن أن شيركوه كان يتذكر بأنه سيكون

(١) انظر ص ٧٠ من الرسالة .
(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٣٤ .
(٣) انظر ما سبق ص ٨٦ .

ـــ كحاكم لمصر ـــ أكثر استقلالا ، وأنه ربما استطاع أن يؤسس أسرة حاكمة لو أن الظروف جاءت فى مصلحته(١) .

وعلى كل حال فقد أرسل نور الدين ـــ عقب مقابلته لشاور ـــ إلى شيركوه يطالب حضوره من أقطاعه فى الرحبة ، وحضر شيركوه ، وانفرد بمقابلة نور الدين ، ومما لا شك فيه أنهما استعرضا مطالب شاور وعروضه فى نفس الوقت ؛ تلك العروض التى تتلخص فى أن يكون لنور الدين ثلث خراج مصر جزية سنوية عدا دفع نفقات الحملة على أن يترك الثلث الثانى لشاور وعسكره ، والثلث الأخير للعاضـــد(٢) ؛ وانتهت المقابلة بموافقة نور الدين على إرسال الحملة على أن يكون شيركوه قائداً لها .

وقد صحب صلاح الدين عمه شيركوه فى تلك الحملة الأولى كقائد المقدمة(٣) ، وليس فى هذا مايلفت النظر بعد أن بلغت سن صلاح الدين سنة ١١٦٣ حوالى الخامسة والعشرين ، وإنما الذى يستدعى الملاحظة والتفكير حقاً أن يكون فى خروجه مع عمه ما يشير الشاعر عرقلة فيمدحه فى تلك المناسبة بمقطوعة شعرية يحاول فيها أن يقارن بينه وبين سميه النبي يوسف بن يعقوب ، ويرجو له أن يملك مصر كما ملكها عليه السلام مَن قبله(٤) .

---

(١) The Crusaders In the East. P. 187 .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٣٣ .

(٣) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٢٩ ، ابن خلكان ج ٢ ص ٣٧٨ .

(٤) قال عرقلة :

أقول والأتراك قد أزمعت   مصر إلى حرب الأعاريب =

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يعقد فيها عرقلة تلك المقارنة ، إذ مدحه بذلك من قبل عند ما تولى شحنة دمشق(١) . والشيء الذى يستطيع أن يستنتجه الباحث من ذلك هو أن الأسرة الأيوبية كانت تنظر إلى صلاح الدين نظرة خاصة ، وأنها كانت تعده لغاية بعيدة ، فوضعت أمامه « مثلا أعلى » فى شخصية النبي يوسف عليه السلام ، ذلك المثل الذى ظهر على ألسنة الشعراء كعرقلة والعماد والأصفهانى ، محاولة بذلك أن تفتح أمامه آفاق واسعة من الآمال والأغراض البعيدة وقد مهد السيوطى لذكر أبيات عرقلة الشعرية السابقة الذكر بجملة لها مغزاها فقال : « وقد وقع فى النفس أن صلاح الدين سيملك الديار المصرية(٢) ، ومن الغريب أن « يقع فى النفوس » أن صلاح الدين وهو الشاب الذى لا تزيد عمره عن الخامسة والعشرين هو الذى سيملك مصر لا عمه شيركوه ، وأن يكون المدح لصلاح الدين والرجاء له وفيه لا لقائد الحملة شيركوه ، ولعل فى هذا كله ما يلقى بعض الضوء على أن الأسرة الأيوبية كانت تعد صلاح الدين إعداداً خاصا ، وأنها كانت تحيطه بهالة ظاهرة لغرض واضح فى سياستها .

أما عن شاور فقد كره أن يكون شيركوه قائداً للحملة ، ولكنه

= رب كما ملكتها يوسف الصديق من أولاد يعقوب
يملكها فى عصرنا يوسف الصادق من أولاد أيوب
من لم يزل ضراب هام العدا حقا وضراب العراقيب

انظر ابن الفرات ج ٦ ص ٨٨ ، الحنبلى شفاء القلوب ص ٥ (مخطوط) الروضتين ص ٤٢ ، السيوطى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨ .

(١) راجع الفصل الثانى ص ٨٥ .

(٢) السيوطى ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨ .

لم يجد بداً من المسير وربما استشعر شاور الخوف من شيركوه ، فقد ذكر ابن أبي طي أن شاور سأل عن المقدم على الجيوش النورية ، فلما قيل له شيركوه لم يطب له ذلك لأنه ظن أن التقدمة تكون له ، فلما زوحم بهذا القود سقط في يده وفت في عضده(١) .

سارت الحملة صوب مصر في أبريل سنة ١١٦٤ م (جمادى الثانية سنة ٥٥٩ هـ) مجانبة للصليبيين حتى دخلتها ، وحطت رحالها في تل بسطة ، ولما علم ضرغام بذلك جمع الأمراء واستشارهم ، فأشار عليه بعضهم بوجوب الهجوم قبل أن يستريح الجيش النوري من رحلته الشاقة عبر الصحراء(٢) ، فلم يجد ذلك الرأى الصائب تأييداً يخرجه إلى حيز التنفيذ وانتهت المداولة على أن يكون اللقاء في بلبيس ، وخرج الجيش المصرى وعلى رأسه ناصر الدين ملهم ومجد الدين همام ، أخوا ضرغام(٣) ، وأخذ شيركوه أول الأمر لدى رؤية ذلك الجيش الكامل العدة والزى فأدخل شاور الطمأنينة إلى نفسه ، عند ما أدلى إليه بأنهم قوم « يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا » ، وبأن له على أمرائهم كتباً وعهوداً(٤) ، وكان حكم شاور على جيش ضرغام حكما صائبا ، ولا غرو فهو به جد خبير .

أما ضرغام فقد لازمه الفشـــل مدة وزارته ، إذ أغضب أولا عمورى ملك بيت المقدس ـ كما سبق القول ـ غير أنه لم يكد يعلم باتفاق شاور مع نور الدين ، حتى سارع إلى الاتفاق مع عمورى من جديد(٥) .

---

(١) الروضتين ج ١ ص ١٦٦ .

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ١٦٦ .

(٣) ابن خلكان ، العبر ج ٤ ص ٧٧ .

(٤) الروضتين ج ١ ص ١٦٦ .

(٥) Sch lumberger : Canapagnes du Roi Amoury Ier P. 42

ووصلت أخبار تلك الحركة بدورها إلى نور الدين ، فكانت من العوامل التى حفزته إلى الإسراع بإرسال حملته إلى مصر .

وكما فشل ضرغام فى سياسته الخارجية ، فشل أيضاً فى سياسته الداخلية ، فأغضب عليه الأمراء البرقية الذين ساعدوه ضد شاور ، وأخذ أولئك من ناحيتهم يفكرون أنهم أحق بالوزارة منه ، وعمل ضرغام على التخلص منهم ومن بينهم ظهير الدين مرتفع والى الإسكندرية ، ثم كشف هؤلاء الأمراء مؤامرة ضرغام للتخلص منهم ، فعقدوا لواء زعامتهم لظهير الدين ، ووجد ضرغام فى تلك الحركة مايهدد مركزه فقبض على عدد كبير منهم — وفيهم ظهير الدين — ثم قتلهم(١) ، وبذلك فقدت مصر عدداً من قوادها الذين يعتد بهم ، ومما أغضب الأمراء على ضرغام أيضاً أنه — كما يقول عمارة — أساء السيرة فى الناس ، فإذا ظن بإنسان شراً جعل الظن يقيناً(٢) . وعمارة حجة فى ذلك لأنه عاشر أولئك الوزراء المتأخرين وخبرهم جميعاً . ثم يقول عمارة أيضاً أن ضرغام ابتلى من أخيه همام « بقذى الناظر وشجا الخناجر » ، وأن أمراء البرقية فى أيامه ذهبت قتلا واغتيالا(٣) . وعلى تلك الصورة قضى ضرغام وأخوه همام على صفوة الأمراء وكبار القواد مما ترك أثره الكبير فى إضعاف مصر من الناحية الحربية(٤) .

---

(١) ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ج ٦ ص ٧٣ — ٧٥ .

(٢) عمارة اليمنى ، النكت ج ١ ص ٧٤ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) راجع ابن الفرات ج ٦ ص ٧٥ ، النكت ج ١ ص ٧٤ ، الروضتين ج ١ ص ١٦٥ ، Schlumberger. P. P. 47 - 48 .

لهذا كله من جهة ، ولدراية شاور التامة بنفسية المحاربين المصريين فى ذلك الوقت من جهة أخرى نجح الجيش النورى فى المعركة الأولى عند بلبيس ، واتخذ المهاجمون طريقهم إلى الغرب فاستولوا على الفسطاط وبقى ضرغام فى القاهرة ، واستمرت الحرب بينهما سجالا عدة أيام ، نال ضرغام خلالها نصراً مبدئيا ، ففرح به فرحا عظيما ، وأمر قاضى القضاة بجمع مافى الخزانة من أموال — وكانت أموال اليتامى — فلما علم الناس بذلك أيقنوا بضعفه ، وعلموا أنه هالك من عدة وجوه : «أولها - أخذ أموال الأيتام ، والثانى - قتل من لم يذنب ، والثالث - الأيمان الحانثة »(١) . ولذلك انفض الناس من حوله وزاد الموقف تعقيداً أن الخليفة لم يعد يؤيده(٢) . فلم يبق معه إلا حرسه الخاص - وعددهم خمسمائة فارس - أما ذلك الحرس فقد ظل يتناقص حتى وصل إلى الثلاثين(٣) ، وكانت النتيجة أن قتل ضرغام عند مشهد السيدة نفيسة ، وهو يستغيث ولا مغيث ، فدخل شاور القاهرة منتصرا فى مايو سنة ١١٦٤ ، وعاد إلى الوزارة للمرة الثانية .

ووقف شيركوه خارج القاهرة منتظراً أن يبر شاور بوعده ، ولكن شاور لم يرسل إليه أكثر من ثلاثين ألف دينار ، وهنا يعلن شيركوه ما أوصاه به نور الدين عند رحيله ، وهو أن يقيم بمصر نائباً له فيها ، وأن يرسل إليه ثلث خراجها(٤) ، غير أن شاور أنكر ذلك ، وطال الأخذ والرد بين الفريقين دون أن يصلا إلى حل نهائى ، وبدا

(١) نفس كلام ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ج ٦ ص ٧٥ .

(٢) أبو شامة ، الروضتين ج ١ ص ١٦٦ .

(٣) Lane - Poole - A Hist of Egypt. P. 178 .

(٤) راجع الروضتين ج ١ ص ١٦٦ .

أنه لم يعد أمام شيركوه إلا استعمال القوة لفض ذلك النزاع ، وأدرك المصريين أنها سابقة خطيرة أن يدعو شاور نور الدين والصليبيين إلى التدخل فى شئون مصر ، ذلك التدخل الخطير ، فمنفوه على ذلك — كما يقول إبراهيم الحنبلى(١) — ولذلك عزم شاور على قتل شيركوه ، إلا أن الفرصة لم تسنح له لتنفيذ ذلك العزم .

استعد شاور للحصار ، وعزم شيركوه على أن ينال ماوعد به سيده نور الدين بحد السيف ، وتقهقر من أجل ذلك إلى بلبيس ليستجمع قواه قبل الوثوب ، وكان ذلك التقهقر نزولا على نصيحة ابن أخيه صلاح الدين(٢) .

ثم أخذ صلاح الدين يجمع الغلال والأحطاب وما يلزم للجيش من مؤونة وذخيرة ، ووضع شيركوه يده على إقليم الشرقية(٣) ، ثم راح يغير على القاهرة من وقت إلى آخر(٤) . ولما رأى شاور استعداد الجيش النورى وعزمه على البقاء ، اندفع كعادته وأرسل إلى عمورى ملك بيت المقدس يطلعه على حقيقة الحال فى مصر ، ويحذره عواقب امتلاك نور الدين لها — تلك العواقب التى لم تكن لتخفى عليه — ولبى

(١) شفاء القلوب ص ٥ (مخطوط) .

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٤٧ .

(٣) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٣٤ .

(٤) فى إحدى تلك الأغارات أسر شيركوه الأوحد صبيح أخا شاور وكانت سندفا إقطاعه (صندفا القار الحالية) ولعمارة قصائد كثيرة فى مدح هذا الأخ منها قصيدته التى يقول فى مطلعها :

لبيك تلبية الحجيج إلى الصفا ... يا داعى الكرم المقيم بسندفا

راجع النكت ص ١٣٤ .

الصليبيين النداء ، وحضروا إلى مصر ، وحاصروا شيركوه في بلبيس يوليه سنة ١١٦٤ (شعبان سنة ٥٥٩) .

وقد دام حصار الصليبيين لتلك المدينة ثلاثة أشهر . ويظهر أن شاور لم يكن راغباً في القضاء على شيركوه والجيش النورى خوفاً من الصليبيين أنفسهم(١) ، وأنه سعى إلى أن يخرج الفريقان معاً ، وساعدته الظروف على نجاح مسعاه ، إذ أن نور الدين انتهز فرصة رحيل عمورى بجيشه عن الشام ، وأخذ يهاجم أملاك مملكة بيت المقدس ، فاستولى مثلا على قلعة بانياس وحارم وغيرهما(٢) ، ثم استولى نور الدين على أعلام الصليبيين وأرسلها إلى شيركوه في بلبيس(٣) ، ونشرها شيركوه أمام أنظار الصليبيين المحاصرين ، فعرفوا ما حل بأملاكهم ، وأخذ عمورى يفكر في العودة لنجدتها(٤) ، ولهذا تهاون شيركوه وعمورى بعد أن دفع شاور لشيركوه ثلاثين ألف دينار أخرى ، وخرج الفريقان

---

(١) راجع الروضتين ج ١ ص١٦٧ ، ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص١٣٤ .

(٢) لعل المجال هنا لا يتسع لذكر حروب نور الدين مع الصليبيين بالشام أثناء حصار شيركوه في بلبيس إذ أن ذلك يعتبر خارجا من نطاق البحث ، وهى على كل حال مكتوبة بصورة واضحة في Stevenson. p.p. 188-190 ، Schlumberger. p. p. 83 - 94 ابن الفرات ج ٦ ص٨٣ ، ابن خلدون والعبر ج ٥ ص ٢٤٧ ، ابن الأثير ج ١١ ص ١٣٤ .

(٣) ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ج ٦ ص ٨٣ ، الروضتين ج ص١٦٧ ابن شداد ص ٤٣ .

(٤) لتلك الحادثة نظير في تاريخ مصر الحديث إذ سلك الانجليز ما يشبه ذلك مع نابليون وهو في مصر عندما أرسلوا إليه عدداً من المجلات والجرائد التي تصور سوء الحالة في فرنسا فاضطروه بذلك إلى العودة سراً ، ونجح الانجليز بعد رحيله في حصر الفرنسيين في مصر وإخراجهم منها .

من مصر فى نوفمبر سنة ١١٦٤ (ذو الحجة سنة ٥٥٩ هـ) ، وانتهت الحملة النورية الأولى على تلك الصورة(١) .

حقيقة أن نتيجتها لم تكن حاسمة بالنسبة لنور الدين أو عمورى ، ولكن عواقبها فى نفس الوقت كانت هامة جداً ، إذ عرف شيركوه تماماً مدى مابلغته مصر من ضعف ، ولذا خرج منها عازماً على أن يعود إليها ليسوى حسابه مع شاور وزيرها المتقلب ، ولأنه وجد فيها ضالته وضالة أسرته الناشئة التى تريد أن تكوّن لنفسها .

وبالرغم من ذلك الموقف الضار الذى وقفه شاور ، فإن رجال القصر فى ذلك الوقت وهم الفئة التى تودع كل راحل وتستقبل كل قادم وتأكل على كل مائدة ، لم يجد أحدهم فى موقف شاور ما يعيب ، بل على العكس مدحه عمارة اليمنى ، فشكر تلاعبه بنور الدين وشيركوه والصليبيين والمصريين(٢) . بل تمادى إلى أكثر من ذلك فشبه رحيله

(١) مدح عمارة اليمنى شاور بعد رحيل شيركوه وعمورى بقصيدة يظن من يقرؤها أن شاور هو الذى انتصر على الفريقين وفيها يقول :

فتح تولد يسره من عسرة طالت وأى ولادة لم تعسر
حملت به الأيام إلا أنها وضعته تماً عن ثلاثة أشهر

راجع النكت ص ٨٢ .

(٢) قال عمارة يمدح شاورا من قصيدة طويلة .

إن بات من عدد الملوك فانه لا يستوى نار الفضا ودخانها
جمعت لك الأمم الثلاث فسستها حتى كأن لم تختلف أديانها
خلصت كل قبيلة من ضدها لما التوت وتعقدت أشطانها

راجع النكت ج ١ ص ٨٣ .

الأول إلى الشام بهجرة الأنبياء(١) .

وعلى ذلك الأساس تدهورت الحالة فى مصر ، فأصبح خلفاؤها ضعفاء ووزراؤها خبثاء ، يضحون بصالح الدولة العليا فى سبيل مصالحهم الشخصية ، فلا عجب إذاً أن يطمع فيها شيركوه ، ويميل إلى امتلاكها الصليبيون ، وأن تسقط الدولة الفاطمية — أخيراً فى الصراع بين الفريقين .

عاد شيركوه والصليبيون إذن إلى الشام ، أما شاور فقد ظن أن البلاد قد خلت بعد رحيلهم ، وأنه لم يعد له فيها من منازع ، فسار على سياسة ذلك العهد التقليدية من ظلم واضطهاد واستبداد بشئون الخلافة ، وكذلك أخذ يضطهد كل من أظهر ميلا لشيركوه أثناء الحملة الأولى ، ويغدق نعمه على من استطاع أن يستميله من الجيش النورى ، فأقطع مثلا خشترين الكردى بلدة شطانوف(٢) (فى المنوفية الآن) ، وأما من عاون شيركوه فكان نصيبه القتل والتشريد كالشاعر المصرى الرشيد ابن الزبير ، الذى قتل لاتصاله بشيركوه ومراسلته له(٣) .

أما شيركوه فقد أصبحت مصر شغله الشاغل(٤) ، فأخذ يلح على

---

(١) قال عمارة فى ذلك من القصيدة نفسها :

هجر الوزارة إذ تنكر عرفها وكذا النبوة إذ نبت أوطانها

نفس المرجع ص ٨٤ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٦٧ .

(٣) ياقوت معجم الأدباء ج ٤ ص ٦٠ — ٦٢ ، ابن العماد الحنبلى شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٠٤ .

(٤) راجع ابن خلكان ، الوفيات ج ٢ ص ٣٧٩ .

نور الدين بضرورة فتحها حتى ليخيل إلى الباحث أن شيركوه أصبح أكثر اهتماما بمصر من نور الدين نفسه(١) ، والواقع أنه إذا كان هناك احتمال بتفكير الأيوبيين فى ملك مصر قبيل الحملة الأولى ، فما لا شك فيه أن تفكيرهم فى ملكها قد أصبح واضحاً بعد تلك الحملة . بل إن الدكتور حسن إبراهيم ليذهب إلى أكثر من ذلك ، فيقول أن شيركوه بقى فى الشام مدة بعد الحملة الأولى يعد العدة فى تجهيز حملة ثانية أملا فى تأسيس إمبراطورية لنفسه(٢) ، وقد جاءت تلك الحملة الثانية إلى مصر فعلا فى ديسمبر سنة ١١٦٦ كما سيلى .

وقد صحب صلاح الدين عمه شيركوه فى حملته الثانية على مصر ، وحوالى ذلك الوقت مدح الكاتب الأصفهانى نجم الدين أيوب بقصيدة هامة ، وصلة ذلك الشاعر بالأسرة الأيوبية صلة وثيقة منذ أسر عمه عبد العزيز فى تكريت مدة حكم أيوب لها(٣) . وأهمية هذه القصيدة أن الكاتب الأصفهانى فى مدحه لنجم الدين أيوب فى هذه المناسبة أحد رجلين ، إما متنبئ كشف له الغيب ، وإما صديق تثق فيه الأسرة الأيوبية إلى درجة جعلته يعرف الكثير عن أغراضها ، فعبّر عن ذلك كله فى شعره ، والواقع أن مدح العماد الأصفهانى لنجم الدين جاء مطابقاً لما حدث بعد ذلك ، فقد تمنى للأسرة فتح مصر والاستقرار فيها

(١) انظر Stevenson p. 178 .

(٢) الفاطميون فى مصر ص ٣٠٣ .

(٣) لما أسر عبد العزيز عم العماد الكاتب وسجن فى تكريت عامله أيوب معاملة طيبة ومنذ ذلك الوقت توطدت الصلة بين ذلك الشاعر وبين الأسرة الأيوبية راجع ابن خلكان الوفيات ج ٢ ص ٧٤ .

وأن يلتقى فيها صلاح الدين بأخوته وأهله(١) . والنقطة الهامة فى هذه القصيدة أن العماد خص صـــلاح الدين بأن يستقر هو فى مصر ـ لا شـيركوه ـ على خلاف ما كان ينتظر ، وذلك دليل يساق لتأييد القول بأن صـلاح الدين كان يعد إعداداً خاصا . ولا أقل من إضافة ذلك الدليل الاستنتاجى الآخر إلى مختلف الأدلة السابقة(٢) .

والواقع أن شيركوه أدرك ـ كقائد حربى ممتاز ـــ سهولة فتح مصر ، وسهولة الاستقلال بها أيضا ، وفى ذلك يقول إبراهيم الحنبلى : « لما رجع (شيركوه) من بلبيس بقى فى خاطره أمر عظيم من البلاد لحسنها ، ولعلمه أن الأمور تجرى فيها بالوهم ، ولما فى نفسه من غدر شاور ، فكان كلما خلا بنور الدين يرغّبه فيها ، فأذعن نور الدين لذلك ولما فى قلبه من شاور(٣) ، وهذا هو رأى أبى شامة أيضا الذى يضيف أن شيركوه كان يتحدث عن رغبته فى مصر مع كل من كان يثق به(٤) ،

---

(١) قال العماد يمدح نجم الدين أيوب :

يوم النوى ليس فى عمرى بمحسوب ... ولا الفراق إلى عيشى بمنسوب
أخوك وابنـك حقا منهما اعتصما ... بالله ، والنصر وعـد غير مكذوب
ما هامان فى يومى وغى وقرى ... تعودا ضرب هام أو عراقيب
غدا يشبان فى الكفار نار لظى ... بلفحها يصبح الشبان كالشيب
ويستقــر بمصر يوسـف وبه ... تقر بعـد التنائى عـين يعقوب
ويلتقى يوسف فيها باخـوته ... والله يجمعهم من غـير تثريب

راجع إبراهيم الحنبلى ، شفاء القلوب ص ١٠ .

(٢) راجع ما سبق ص ٨٩ .

(٣) شفاء القلوب ص ٥ .

(٤) يقول ابن شداد (سيرة صلاح الدين ٢٩ — ٣٠) إن حديث شيركوه =

وأن حقده على شاور كان يزيده رغبة فى العودة إليها(١) .

ومهما يكن من شيء فقد استجاب نور الدين لرغبة قائده ، فجهز له جيشاً توجه به إلى مصر فى ديسمبر سنة ١١٦٦ (ربيع الأول ٥٦٣ ه) وكان السبب المباشر هو ما بلغ نور الدين عن رغبة شاور فى الاتفاق مع الصليبيين(٢) . وخرج الجيش النورى من الشام وأمره سر مكتوم حتى أن شاور لم يعلم بخبر تلك الحملة إلا من عمورى الذى وصل إلى مصر قبل وصول شيركوه ، لأنه اتخذ الطريق الساحلى ، ومعنى هذا أن الاتفاق بين شاور والصليبيين إنما تم قبل رحيل الحملة النورية الثانية إلى مصر ، وقد تلقى شاور حلفاءه عند بلبيس ، حيث استوقف عمورى لمباغتة الجيش النورى المهاجم ، ولكن خبر ذلك الاجتماع وصل إلى شيركوه ، فغيَّر طريقه وخرج على أطفيح(٣) ، وهى قرية على الشاطىء الشرقى للنيل بمديرية الجيزة الحالية على مسافة أربعين ميلا جنوبى الفسطاط وعلم شاور وحلفاؤه بذلك فاقتفوا أثر شيركوه ، بعد أن خاب تدبيرهم فى مباغتته ، وعند إطفيح اجتاز شيركوه النيل ، وعسكر مكان الجيزة الحالى ، وظل شاور والصليبيين قبالته على الضفة الشرقية فى الفسطاط ،

= عن مصر وطمعه وصل إلى مسامع شاور فاستعد له وكاتب الصليبيين وقرر معهم أن يعودوا إلى مصر وأن يمكنهم منها تمكيناً كليا على أن يعينوه على شيركوه .

(١) الروضتين ج ١ ص ١٤٢ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٣٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١٦٨ ، ابن خلكان ج ٢ ص ٣٧٦ ، ابن شداد ص ٢٩ — ٣٠ .

(٣) ابن خلدون ، العبر ج ٥ ص ٢٤٧ ، الروضتين ص ١٦٨ .

وقد حاول الصليبيون أن يعبروا النيل ولكنهم خشوا العاقبة(١) ، فساروا شمالا وعبروا النيل تحت جنح الظلام عند تفرعه شمال القاهرة(٢) ، ومن هناك صوبوا نحو الجنوب ، وأدرك شيركوه حركتهم ، فاندفع أمامهم .

وفى اجتياز شيركوه للنيل غرباً ما يدل على أنه قد وطّد العزم على فتح مصر ، والاشتباك مع شاور وحلفائه فى معركة حاسمة ، كما يدل أيضاً على أنه إنما كان يعتمد على فريق من المصريين وثق من تأييدهم له – كما سيلى – ولو كان الأمر لا يتعدى عند شيركوه مجرد الغزو والاكتفاء بشيء من المال ثم العودة إلى الشام ، لما أقدم على تلك المغامرة ، وهو يعلم تماماً أن كل خطوة يخطوها إلى الغرب تزيد فى حرج موقفه وتزيد — فى نفس الوقت — أعداءه تمكناً منه .

وقد أراد عمورى — قبل الاشتباك مع شيركوه — أن يستوثق لنفسه ، وبخاصة أنه لم يعد يعتمد على كلمة شاور ، فعقد معه اتفاقاً جديداً صدق عليه الخليفة العاضد ، وخلاصته أن يدفع المصريون للصليبيين مائتى ألف دينار معجلة على أن يدفعوا مثل ذلك المبلغ فيما بعد(٣) .

أما شيركوه فعمل على أن يستعين بالمصريين أنفسهم ضد وزيرهم ، وكان شيئاً طبيعياً أن يلجأ إلى الإسكندرية وإلى الإسكندريين ، إذ ظلت

---

(١) Lane - Poole, Saladin P. 88.

(٢) Lane - Poole. A Short Hist, of Egypt. P. 86.

(٣) Lane, Poole, Saladin P. 89.

تلك المدينة تحمل لواء المعارضة للحكومة المركزية فى القاهرة طوال العهد الأخير من الحكم الفاطمى ، فإليها لجأ نزار بن الخليفة المستنصر عند ما أقصى عن الخلافة عقب وفاة أبيه ، وفيها قاد معارضته ، وكذلك اتخذها الأفضل بن بدر الجمالى قاعدة لنزاعه ضد الخليفة الفاطمى ، كما خطب فيها للخليفة العباسى ، وقد سبق ذكر ذلك كله فى الفصل الأول(١) ، ثم إن أول مدرسة سنية فى مصر الفاطمية أقيمت بالاسكندرية لتعليم المذهب الشافعى أيام وزارة ابن مصال ، وقام بالتدريس فيها الإمام الفقيه الحافظ السلفى ، وقد سبق ذكر ذلك فى الفصل الأول أيضا ، وإليها خرج ظهير الدين مرتفع ثائراً على ضرغام(٢) ، والخلاصة أن الإسكندرية كانت المدينة التى يمكن أن يلجأ إليها شيركوه ليستعين بها ، ولذلك أرسل إلى أهلها يستحثهم ويستنجد بهم على شاور لأنه أدخل الفرنج إلى دار الإسلام ، وأنفق أموال المسلمين عليهم(٣) .

ولقد صادف استنجاد شيركوه بأهل الإسكندرية وجود أحد أحفاد ابن مصال بها ، وربما كان وجود ذلك الحفيد السنى الناقم

---

(١) انظر ص ٣٨ وما يتلوها .

(٢) انظر أيضا صفحات ١٠٨ — ١٠٩ .

(٣) يقول ابن أبى طى (الروضتين ج ١ ص ١٦٨) إن شيركوه كتب إلى أهل الاسكندرية يستنجد بهم على شاور لأجل ادخاله الفرنج إلى دار الاسلام وتضييعه أموال بيت المسلمين فيهم فقاموا معه وأمروا عليهم نجم الدين ابن مصال وهو ابن أحد وزراء المصريين ، وكان لجأ إلى الاسكندرية متخفيا فظهر فى هذه الفتنة .

على الخلافة الفاطمية عاملا من بين العوامل التى دعت شيركوه إلى الالتجاء إلى تلك المدينة ، وعلى كل حال فقد تزعم هذا الحفيد الاسكندريين لنصرة شيركوه ، وكان بالإسكندرية فى ذلك الوقت أيضاً الشريف الإدريسى ، فحمّله حفيد ابن مصال رسالة إلى شيركوه فحواها أن السلاح الذى طلبه سيصله ، وقد وصله فعلا بعد ذلك بيومين(١) ، ولم يقتصر الأمر على انضمام الإسكندرية إلى شيركوه ، بل انضمت إليه أيضاً بعض القبائل العربية كالأشراف الجعفريين والطلحيين وغيرهم(٢) ، ومعنى ذلك كله أن شيركوه استطاع أن يكون لنفسه حزباً فى مصر يعتمد عليه عند الحاجة .

ولما وصل رد حفيد ابن مصال إلى شيركوه بإجابته إلى ما طلب سار جنوباً بعد أن علم أن الصليبيين اجتازوا النيل ، وظل شيركوه فى سيره والصليبيون يتبعونه حتى التقيا عند البابين جنوبى المنيا بحوالى عشرة أميال ، وكان شيركوه قد أرسل من عيونه وأرصاده من يكشف له(٣) حال شاور والصليبيين ، فلما عادوا حدثوه عن عَدَدِهم وعُددهم وعزمهم على الظفر به وبجيشه .

نالت تلك الأخبار من الجيش النورى ، وفتت فى عضده ، حتى لقد استشار شيركوه رجاله ، فكلهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقى والعودة إلى الشام ، وحجتهم فى ذلك أنه ليس لهم ملجأ فى حالة الهزيمة ، وهى النتيجة التى لم يكونوا يشكون فيها — كما يقرر

(١) ابن أبى طى (الروضتين ج ١ ص ١٦٨) .
(٢) نفس المصدر .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٤٥ .

ابن أبى طى(١) — ومع ذلك وبالرغم من روح اليأس التى سيطرت على الجيش النورى ، فإن جندياً واحداً هو شرف الدين برغش استطاع أن يحول اليأس فى قلوب العساكر النورية إلى أمل ، إذ قام فى الجمع فقال « من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك ، بل يكون فلاحاً أو مع النساء فى بيته ، والله لئن عدتم إلى الملك العادل (نور الدين) من غير غلبة وبلاء تُعْذَرون فيه ، ليأخذن أقطاعاتكم وليعودن عليكم بجمع ما أخذتموه إلى يومنا هذا ، ويقول لكم : أتأخذون أموال المسلمين وتفرون من عدوهم ، وتسلمون مثل هذه الديار يتصرف فيها الكفار »(٢) . ومن المحتمل أن يكون شيركوه هو الذى أوعز إلى برغش بتلك الكلمة بدليل أنه وافق عليها ، وتابعه فى ذلك صلاح الدين ثم كثر الموافقون على القتال حتى اجتمعت الكلمة على لقاء العدو(٣) .

وكانت معركة البابين فى الحقيقة اختباراً صارما لمهارة شيركوه وتنظيمه الحربى إذ استطاع بجيشه القليل العَدد والعُدد ، وفى تلك الجهة الثانية بعيداً من قواعده ، أن يهزم شاور الصليبيين ومن معهم . ويرجع العامل الأول فى انتصاره إلى تلك الطريقة الفذة التى لقى بها أعداءه . فقد قسم الجيش إلى قلب وجناحين ، وجعل صلاح الدين فى القلب(٤) وأسر إليه أن يرتد بانتظام عند نشوب المعركة ، بينما قاد هو الميمنة ، فلما التحم الجيشان فى ١٨ أبريل سنة ١١٦٧ (٢٥ جمادى الآخر

---

(١) الروضتين ج ١ ص ١٤٣ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٤٣ ، ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٥ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٤٦ .

(٤) نفس المصدر .

سنة ٥٦٢ هـ) تراجع صلاح الدين تبعا لتلك الخطة الموضوعة ، واندفع الصليبيون وراءه . وعندئذ هجم شيركوه على ميسرة أعدائه — وكانوا من المصريين — فبدد جمعهم واضطرهم إلى الفرار . فلما أدرك الصليبيون أن حلفاءهم قد فروا ، أخذهم الذعر ، وتبعوهم فارين إلى الشمال بعد أن رأوا شيركوه يقوم بحركة لتطويقهم وحصرهم(١) . وهكذا انتصر شيركوه وصلاح الدين على شاور وعمورى ومن معهما مجتمعين ، وتخطى شيركوه موقفه الحرج بنجاح ملحوظ .

ويلاحظ هنا أن شيركوه لم يتبع أعداءه ، وإنما سار رأساً إلى الاسكندرية متخذاً الطريق الصحراوى(٢) . أما التجاؤه إلى تلك المدينة فتعليله واضح ، وهو ميل أهلها له وتأييدهم لسياسته ضد شاور ، ولكن عدم تتبعه لأعدائه الفارين أمر يوجب الالتفات . وتفسيره أن شيركوه رأى ألا قبل له بأولئك الأعداء أو أن الفرصة المناسبة لم تسنح بعد للاشتباك معهم في معركة فاصلة . والظاهر أنه أراد أولا أن يوقظ وعى المصريين ، ويثيرهم ضد شاور وحلفاءه من الصليبيين أى أنه رأى أن أعداءه — وقتذاك — أقوى منه وأكثر نفرا ، ولذلك تركهم يفرون من أول صدمة وهو فى نفس الوقت لا يريد أن يكتفى من الغنيمة بالإياب فيقنع بذلك النصر ويغادر مصر ، وإنما هو يريد أن يفتح تلك البلاد وأن يستقر فيها ، ولذلك عزم على أن يتخذ من الاسكندرية — وهى المدينة التى اعتادت أن تستقبل غيره من المعارضين للخلافة الفاطمية

(١) انظر تفاصيل هذه المعركة فى Schlumberger. p. p. 136 — 146 ، Lane Poole - Saladin P. 89 .

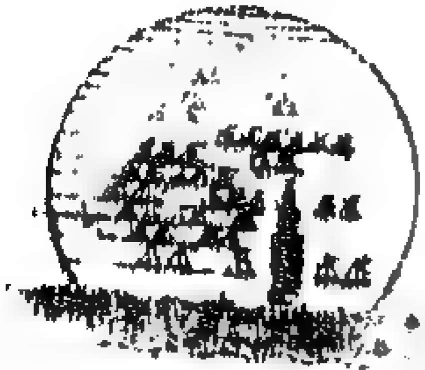
(٢) راجع الروضتين جـ ١ ص ١٦٨ .

ووزرائها بالقاهرة — قاعدة لأعمالها الحربية وغير الحربية . ودخل شيركوه الاسكندرية فعلا بمساعدة من أهلها(١) ، وجعل من أحد قصورها سجنا(٢) لمن أسرهم فى موقعة البابين ، ثم أمده أهلها بما يلزمه من سلاح ومال(٣) .

ولم يمكث شيركوه فى الاسكندرية إلا الوقت اللازم لتدبير شئونها وتنظيم إدارتها ، ثم ترك عليها من قبله ابن أخيه صلاح الدين ، بعد أن استحلف له وجوهها وأوصاهم به(٤) . ثم ترك معه من أعجزه المرض أو الضعف عن المغامرة(٥) ، أما هو فقد غادرها وولى وجهه شطر الصعيد مرة أخرى ، ولأغراض أخرى فيما يبدو . والراجح أن شيركوه غادر الاسكندرية لأنه أراد أن ينشر نفوذه فى البلاد وأن يجمع منها ما يستطيع جمعه من المال والرجال ليتقوى بها على أعدائه ، ثم لأنه خشى إن هو استقر فيها أن يحاصره الصليبيون فى البر والبحر فيسببون له كثيراً من الضيق والضرر(٦) . ولذلك سلك شيركوه سبيلا وسطا فترك صلاح الدين فى الاسكندرية وانطلق هو إلى الصعيد .

وقد حدث ما كان شيركوه يخشاه ، إذ اتجه شاور والصليبيون إلى الاسكندرية وحاصروها ، ولم يكن الحصار بريا فقط وإنما حاصرها

(١) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٤٦ .



(٢) الروضتين ج ١ ص ١٦٨ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) نفس المصدر .

(٥) نفس المصدر .

(٦) نفس المصدر .

الأسطول الصليبيين من البر أيضا(١) . ودام الحصار خمسة وسبعين يوما — كما يقال(٢) — بذل صلاح الدين خلالها ومعه الاسكندريون الشيء الكثير من الجهد والمال . وجاءت مدة ذلك الحصار فرصة طيبة خبر فيها صلاح الدين كثيراً من فنون الحكم والإدارة .

فلم يكد شيركوه يسمع بما يقاسيه صلاح الدين فى الحصار حتى أسرع إليه وكان فى قوص التى استمد منها شاور قوته التى أوصلته إلى منصب الوزارة — وقد صحب شيركوه جمع كبير من العربان وأبناء الصعيد الذين انصرفوا عن الوزير الفاطمى بعد ما تبين لهم من سوء معاملته لأمرائهم بعد وزارته . ولذا يبدو واضحا أن شيركوه عاد من الصعيد وهو من القوة بحيث خشيه شاور والصليبيون بدليل أنه لم يكد يبلغهم أمر رجوعه لنجدة صلاح الدين حتى رفعوا الحصار عن الاسكندرية(٣) .

ثم استقر الفريقان على الصلح ، وشروطه أن يتحمل شاور ما بذل نور الدين من نفقات فى تلك الحملة الثانية ، وقدرت تلك النفقات بخمسين ألف دينار ، على أن ينقل الضعفاء من الجيش النورى إلى الشام على مراكب الصليبيين . ومن بين الشروط أيضا « أن الفرنج لا بمصر ولا يتسلمون منها قرية واحدة ، وأن الاسكندرية المصريين »(٤) .

---

(١) Lane Poole, Saladin 89 ، حسن إبراهيم الفاطميون ص ٣٠٤

(٢) يقول enson P. 191

(٣) الروضتين جـ ١ ص ١٦٩

(٤) نفس المصدر ص ١٤٣

B4

أما الصليبيون فقد استقر بينهم وبين المصريين أن تكون لهم شحنة بالقاهرة وهذا يناقض المعاهد(١) التي لم يكن مدادها قد جف بعد — وأن تكون أبوابها بيد فرسانهم « ليمتنع نور الدين من إنقاذ عسكر إليهم »(٢) ، وأن تدفع مصر للملك الصليبي مائة ألف دينار ضريبة سنوية ثابتة(٣) .

وعلى هذا الأساس غادر شيركوه وعمورى مصر للمرة الثانية وفى ضمير كل منهما أن يعود إليها مرة ثالثة ، بعد أن تأكد الفريقان من ضعفها وأهميتها فى وقت واحد ، وبعد أن درسا خلال الحملتين السابقتين كل ما يريدانه عنها . وهذا يفسر الحقيقة القائلة بأن الأمر خرج عن طوق شاور منذ فراره واستنجاده بنور الدين . ولعل التسابق بين الفريقين على مصر الآن قد أصبح أوضح وأظهر من أى وقت مضى .

وقد أفاد صلاح الدين كثيراً من تلك الحملة الثانية ، فخبر فنون الحرب والإدارة خبرة عملية فى البابين والاسكندرية ، كما أتيح له أن يدرس مصر دراسة عملية خلال تلك المدة ، مما ساعده على السير بخطى ناجحة فيما بعد .

ويبدو أن صلاح الدين توقع ما ستكون عليه معاملة شاور لمن عاونوه وآزروه أيام الحرب والحصار ، فاستحلفه ألا يتعرض لهم بأذى ، ولكن شاور — الذى لم يكن ليعبأ بالإيمان ولا بالمواثيق — قبض على

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٤٦ ، السيوطى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٤٣ .

(٣) Lane Poole, Saladin P. 91 .

نجم الدين بن مصال وعلى غيره من أنصار شيركوه وضيق عليهم ، وعلم بذلك صلاح الدين فتحدث فى الأمر إلى عمورى ، الذى أرسل إلى شاور يلفت نظره إلى خطأ تلك السياسة واستحلفه من جديد . ومع ذلك فقد أعاد شاور الكرة ، ولم يحترم الوعد فخرج إلى الشام البعض من أولئك الموالين وبقى البعض الآخر(١) منهم بمصر . وفى هذا مايدل على أنه قد أصبح لشيركوه فى مصر حزب يؤيده ، مما سهل على الأسرة فيما بعد تنفيذ سياستها . وعلى تلك الصورة انتهت الحملة الثانية وعاد شيركوه إلى الشام فوصل دمشق فى ٥ سبتمبر سنة ١١٦٧ (١٨ ذى القعدة سنة ٥٦٢ هـ) ، لا ليصرف عنها نظره ولكن ليعود إليها من جديد .

وكما أن شيركوه لم يستطع أن يصرف تفكيره عن مصر عقب الحملة الأولى ، فكذلك كان الحال عقب الحملة الثانية . بل لقد أدرك بنفسه طمع الصليبيين فيها ، مما زاد فى رغبته فى العودة إليها(٢) . وفى هذا الصدد يقول ابن أبى طى إن شيركوه خرج من مصر « وفى قلبه الداء الدوى منها ، لأنه شاهدها وشاهد مغلاتها فوجدها أمراً عظيما »(٣) .

على أن النقطة الهامة هنا هى أن شاور نفسه قد أدرك نوايا شيركوه الحقيقية من وراء حملاته على مصر ، وعلم أنه إنما يعمل لحساب الأسرة الأيوبية لا لنور الدين وحده . وقد ذكر ذلك ابن شداد فى عبارة واضحة فقال : إن شاور علم أن شيركوه « قد طمع فى البلاد وإنه لابد

---

(١) راجع فى هذا كله الروضتين ج ١ ص ١٦٩ .

(٢) راجع ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٣٠ .

(٣) الروضتين ج ١ ص ١٦٨ .

له من قصدها»(١) . وحاول شاور أن يقف حائلا بين شيركوه وبين تحقيق رغبته ، مستعيناً على ذلك بعمورى ملك بيت المقدس ، فكان من نتيجة تلك السياسة أن أرسل نور الدين حملته الثانية ، وفشل شاور بذلك فى إبعاد شيركوه عن مصر . وعندئذ اتجه تفكير شاور وجهة أخرى ، وهى أن يصرف تفكير نور الدين نفسه عن مصر فيستطيع بذلك أن يقصى شيركوه عنها .

ويظهر أن نور الدين قد استمع على الأقل لمقالة شاور وقد أورد ابن أبى طى نصا خلاصته أنه سمع عن أبيه أن شاور كاتب نور الدين فى أن يصرف شيركوه عن مصر وضمن له فى نظير ذلك أن يحمل إليه مالا سنويا ثابتا . فلما بلغه أن نور الدين نجح فى ذلك ، أنفذ إليه رسولا بهدية ثمينة ومعه كتاب هام ذكر نصه أبو شامه فى كتابه الروضتين(٢). والقارىء لذلك الكتاب يدرك أن نور الدين لابد أن يكون قد كتب إلى شاور قبل ذلك ، وبالتالى لابد أن تكون قد جرت بين الرجلين مراسلات بدليل ما يقوله شاور فى أول كتابه . «ورد كتاب استدعى شكرى وحمدى » ويدرك القارىء لهذا الكتاب أيضا أن شاور قد ضرب لنور الدين على نغمة محببة إلى نفسه ، وهى اتحاد القوى الإسلامية فى الشرق ، إذ يؤيد شاور بعد بضع عبارات من المدح والتملق فكرة اتحاد المسلمين حيث يقول حسبما جاء فى الروضتين « فما أسعد رأسا دل على نصرة الكلمة ودعا إلى سبيل الفئة المسلمة ووفر على مصالح الأمة قلوب رعاياها المنقسمة » ثم يؤكد بعد ذلك أنه لا يزال عند كلمته من الولاء

---

(٤) سيرة صلاح الدين ص ٢٩ — ٣٠ .

(١) الروضتين ج ١ ص ١٦٩ .

لنور الدين والحرص على مودته والثقة فيه(١) .

وقد حاول نفس تلك المحاولة أيضا شجاع بن شاور ، إذ يذكر ابن الأثير أن شجاعا كان من الموالين لنور الدين ، وأنه أرسل إليه يعلن ولاءه ، ويسأله الدخول فى طاعته على أن يدفع له مالا سنويا(٢).

والخلاصة أن شاور ومن ورائه ابنه شجاع — استطاع أن ينجح فى صرف نظر نور الدين عن مصر — وبالتالى فى إبعاد شيركوه عنها ولو إلى حين ، لأنه إنما كان يخشى جانب شيركوه ، ويعرف تمام المعرفة نواياه نحو مصر ، ويريد أن يصرفه عنها بأية وسيلة . وقد صور الشاعر عرقلة الكندى نفسية شاور وخوفه من شيركوه وصفا تهكميا لاذعا فى بيتين من الشعر أثبتهما أبو شامة فى الروضتين(٣) ، ولعل فى هذا كله ما ينهض دليلا على أن موقف شيركوه إزاء مصر لم يكن موقفا عاديا ، فإن قائداً يحاول سيده أن يبعده من إقليم معين لابد أن تكون له فى الإقليم مآرب خاصة . ولعل فى هذا أيضا ما يضيف جديداً إلى عديد

---

(١) نفس المصدر ، راجع أيضا ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك (جـ ٧ ص ٣) حيث يقول : « وفيها (٥٦٣ هـ) ورد من شاور وزير الديار المصرية إلى الملك العادل نور الدين صاحب الشام كتاب فيه يشكر الملك العادل نور الدين على ما صرف به الأمير أسد الدين شيركوه عن التعرض لذكر مصر وكونه إجابه إلى ما طلبه » ثم يورد بعد ذلك نص الكتاب .

(٢) ابن الأثير ، الكامل جـ ١١ ص ١٤٧ .

(٣) قال عرقلة :

وهل هم يوما شيركوه بجلق ... إلى العيد إلا ارتاح فى مصر شاور
هو الملك المنصور والأسد الذى ... شذا ذكره فى الشرق والغرب سائر

الروضتين ص ١٣٢ .

الإشارات السابقة التى تدل على أغراض الأيوبيين ومحاولاتهم المختلفة للتكوين لأنفسهم .

على أن سياسة شاور فى إبعاد شيركوه لم يقدر لها أن تنجح إلا فترة قصيرة من الوقت ، لأنه سرعان ما وجد نور الدين نفسه مضطراً إلى المغامرة من جديد فى حوادث مصر ، لا بدعوة من شاور كما حدث فى الحملة الأولى ، ولا تحت إلحاح شيركوه كما حدث فى الحملة الثانية ، وإنما بدعوة من الخليفة الفاطمى العاضد نفسه ، وتحت ضغط الظروف التى تطورت تطوراً خطيراً لم يعد من حسن السياسة إزاءه الوقوف مكتوف اليدين .

ذلك لأن الصليبيين وطدوا عزمهم على أن يدخلوا مصر مرة أخرى فاتحين ، بعد أن رأوا ضعفها وسهولة فتحها وطمع شيركوه فيها(١) ، وقد عقدوا لذلك الغرض مجمعاً انتهى رأيهم فيه عند ضرورة فتح مصر ، وقد بلغ من ثقة عمورى بنتيجة الحملة أنه وزع القرى والأقطاعات على رجاله وعساكره(٢) ، مما يدل على أنه درسها دراسة وافية تمهيداً لفتحها ، وضمها نهائياً إلى أملاكه ، ولا عبرة هنا بما انفرد به وليم الصورى من قول بأن عمورى قرر أمر تلك الحملة وهو كاره ، وأنه ظل محافظاً على المعاهده بينه وبين شاور(٣) ، إذ المعقول أنه كان متردداً فى أمر تلك الحملة الثالثة لا كارهاً لها ، وأنه اختار المحافظة على المعاهدة

---

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٣٠ .

(٢) الروضتين جـ ١ ص ١٦٩ .

(٣) Yuillaume de. Tyre p. 949 ، راجع أيضا ابن الأثير بالكامل جـ ١١ ص ١٥٠ .

القائمة بينه وبين شاور إلى حين ، فإنه كان يؤمل كثيراً فى مانويل كمنين امبراطور الدولة البيزنطية وفى مساعدته له(١) ، وانتظار تحقيق ذلك الأمل هو سر تردده ، وقد كان لدى عمورى من الأسباب ما جعله يطمئن إلى تحقيـــق ذلك الأمل ، فقد سادت العلاقات الطيبة بين الإمبراطور البيزنطى مانويل كمنين منذ أيام بلدوين الثالث (١١٣١ — ١١٦٢ م) ، وزادت تلك العلاقات قوة وصفاء بزواج عمورى ـ للمرة الثانية ـ من مارى كمنين ، إذ أرسل عمورى بعد ذلك الزواج بقليل وفداً إلى القسطنطينية لعقد محالفة بين الدولة البيزنطية ومملكة بيت المقدس لفتح مصر ، وتعيين ما يمكن أن يقدمه الإمبراطور مانويل كمنين من مساعدات فى ذلك الفتح ، وقد رأس ذلك الوفد وليم الصورى نفسه ، وكان من الأسباب التى بسطها الوفد الصليبى لتبرير رغبتهم فى فتح مصر أنها جهة غنية قد وقعت تحت سيطرة حكام عاجزين قصيرى النظر، وأنها لابد أن تقع من جراء سياسة وزرائها فى يد الأعداء ، وقد وافق الإمبراطور البيزنطى على ماطلب رسل الملك الصليبى ، وأظهر استعداده لمساعدته بنجدة حربية(٢) ، ثم عاد الوفد الصليبى من القسطنطينية بعد أن نجح فى مهمته فى أكتوبر سنة ١١٦٨ (٥٦٤ هـ) مما كان سبباً فى تقرير القيام بالحملة الصليبية الثالثة على مصر فى أقرب فرصة .

على أن هناك سبباً آخر من بين تلك الأسباب التى حملت الصليبيين على إرسال حملتهم إلى مصر ، وهو أن الشحنة التى تركوها بالقاهرة أخذت تلح على عمورى بإرسال حملته وتهون عليه أمر فتح مصر ، ولا

---

(١) Schlumberger. p. 183 .

(٢) راجع فى ذلك كله Guillaume de Tyre p. p. 947 — 949 .

غرابة فى ذلك ، فقد شاهد رجال تلك الشحنة مدى ما بلغته مصر من ضعف(١) .

وكيفما كان الأمر فقد بدأ عمورى بتنفيذ الحملة دون أن ينتظر وصول المدد البيزنطى(٢) ، فتظاهر أولا بأنه يقصد حمص(٣) ، ثم اتجه فجأة وبكل قوته إلى الجنوب حتى وصل إلى حصن الداروم ، وسمع شاور بذلك فأسرع بإرسال أمير من أمرائه هو بدران ، وسيره إلى الملك الصليبي(٤) . ولكن يظهر أن ذلك الرسول تناسى واجبه ورسالته إزاء الوعود المغرية التى منـاه بها عمورى(٥) ، مما اضطر شاور أن يرسل رسولا ثانياً هو شمس الخلافة محمد بن مختار ، وعرف شمس الخلافة نوايا الصليبيين الحقيقية من تلك الحملة بعد أخذ ورد طويلين

(١) يقول ابن الأثير فى هذا الصدد (الكامل جـ ١١ ص ١٥٠) إن الصليبيين جعلوا لهم فى القاهرة شحنة « وتسلموا أبوابها وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم وحكموا على المسلمين حكما جائرا وركبوهم بالأذى العظيم ، فلما رأوا ذلك وأن البلاد ليس فيها من يردهم أرسلوا إلى ملك الفرنج بالشام ... يستدعونه ليملكها وأعلموه خلوها من الموانع وهونوا أمرها عليه » .

راجع أيضا ابن خلدون ، العبر جـ ٥ ص ٢٤٧ .

(٢) Stevenson p. 193 .

(٣) ابن الأثير ، الكامل جـ ١١ ص ١٥٠ .

(٤) يقال إنه كان فى الجيش الصليبي جماعة من المصريين من أعداء شاور وأنهم شايعوه على قصدها ، راجع الروضتين جـ ١ ص ١٥٤ .

(٥) يقول ابن أبى طى (الروضتين جـ ١ ص ١٧٠) أن عمورى وعد بدران بأن يقطعه ثلاث عشرة قرية إن هو أدخل على شاور الحيلة وضلله عن فهم الغرض الحقيقى من الحملة .

إذ يقال أن ذلك الرسول كانت تربطه بعمورى صلات صداقة قديمه ، فأدلى بها إلى شاور الذى أخذ فى تجنيد الأجناد ، وحشد العساكر والاستعداد للقاء العدو .

ثم تقدم الصليبيون حتى بلبيس فى نوفمبر سنة ١١٦٨ (صفر ٥٦٤ هـ) وهى المدينة المصرية المنكوبة والتى لاقت أشد النكبات خلال الحملات المتعاقبة الثلاث ، وكان فى معيتهم بعض المصريين الفارين من وجه شاور ، مثل علم الملك بن النحاس ، وابن الخياط يحي ، وابن قرجلة وغيرهم(١) .

وتصدى للصليبيين عند بلبيس طى بن شاور ، ولكنهم غلبوه عليها وفتحوها عنوة وبحد السيف ، وارتكب الصليبيون فى بلبيس كثيراً من الفظائع ، فقتلوا أهلها ، وخرّبوا دورها ، وأسروا من سلم من القتيل منها ، وبقى بعض أولئك الأسرى فى أسر الصليبيين مدة طويلة(٢) .

ويصور وليم الصورى نفسه مناظر مروعة لنكبة بلبيس فيقول : « إن الصليبيين خرجوا وسلاحهم فى أيديهم ، وأخذو يقتلون كل من وجدوه من الرجال والنساء والشيوخ والشبان ، ثم إنهم اقتحموا البيوت فأجهزوا على من احتمى فيها ، وسلبوا كل ما عثرت به أيديهم من المتاع والأثاث(٣) .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل جـ ١١ ص ١٥٠ .

(٢) بقى بعض أولئك الأسرى فى أسر الصليبيين حتى رد إليهم حريتهم صلاح الدين فيما بعد إذ أوقف خراج تلك المدينة على فك أسراها . راجع ابن أبى طى (الروضتين ص ١٧٠) .

(٣) Yuillaume de Tyre p. 950 ، راجع أيضاً ابن الأثير جـ ١١ ص ١٥٠ .

وقد أخطأ الصليبيون فى معاملتهم بلبيس تلك المعاملة القاسية ، إذ باتت تلك المعاملة مثلا عمليا أمام المصريين ، وصورة بشعة لما سوف يلقونه على أيديهم لو تم لهم الفتح ، فرحبوا بعد ذلك بشيركوه وبجيشه ووزرائه ، ثم استماتوا فى الدفاع عن القاهرة حتى لا يحيق بهم ما حاق بأهل بلبيس(١) ، وكان لذلك العمل أيضاً نتيجة إيجابية من جانب القصر إذ أرسل العاضد يستجير بنور الدين ، وقد لطخ كتبه بالمداد — كما تقول المراجع(٢) — وأرفق بها شعور نساء القصر علامة على ما هو فيه من ضنك وضيق ، والشيء الهام هنا هو أن العاضد قبل أن يتنازل لنور الدين عن ثلث خراج مصر على أن يقيم شيركوه فيها ، وأن يكون للجيش النورى أقطاعات وافرة خارجة عن ذلك الثلث(٣) .

ويقال أن استنجاد العاضد بنور الدين كان على غير رغبة شاور ، وأنه كان يريد أن يصابر الصليبيين حتى ينتهى معهم إلى حل(٤) ، وليس هذا ببعيد على عقلية رجل مثل شاور استمر على اعتقاده بأنه يلعب بعقل كل من نور الدين وعمورى والعاضد ، وربما كان شاور يؤمل أن تنتهى تلك الحملة الصليبية إلى ما انتهت إليه سابقتاها ، من الرضا بمبلغ من المال والرحيل عن البلاد ، ويقال من — جهة أخرى

(١) يقول ابن الأثير فى هذا الصدد أن أهل القاهرة خشوا أن يفعل الصليبيون بهم كما فعلوا بأهل بلبيس « فحملهم الخوف منهم على الامتناع ، فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم فى حفظه » .
راجع الكامل ج ١١ ص ١٥٠ — ١٥١ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٥١ ، الروضتين ج ١ ص ١٦٩ .

(٣) السيوطى ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨ ، ابن الأثير ج ١١ ص ١٥١ .

(٤) ابن ابى طى ، الروضتين ج ١ ص ١٧٠ .

أن شاور — لما أدرك نوايا الصليبيين على حقيقتها ، قابل الخليفة وبكى بين يديه ، وطلب منه أن يكتب إلى نور الدين(١) ؛ وعلى كل حال فالنتيجة فى كلتا الحالتين واحدة ، وهى استنجاد مصر بنور الدين — وبالتالى بشيركوه — لإنقاذها مما حاق بها من أخطار من ناحية الصليبيين .

على أن كتب المصريين بطلب النجدة لم تصل إلى نور الدين وحده وإنما وصلت أيضاً إلى شيركوه وهو بحمص(٢) ، وهذا يؤيد ما سبق قوله من أن شيركوه قد أصبح له فى مصر مؤيدون وأنصار . ولقد خشى نور الدين ما يمكن أن يصيب الجبهة الإسلامية من تصدع إن وقعت مصر فى أيدى الصليبيين . فأسرع بالكتابة إلى شيركوه يستدعيه من حمص(٣) ليقود الحملة النورية الثالثة إلى مصر ، وفى نفس الوقت أرسل نور الدين الفقيه عيسى الهكارى إلى مصر(٤) برسالتين إحداهما ظاهرة إلى شاور ، وتفيد بأن العساكر النورية قادمة والأخرى سرية إلى العاضد ، استحلفه فيها على أشياء خاصة لا يستطيع

(١) يقول ابن أبى طى (نفس المرجع) إن شمس الخلافة هو الذى أوحى إلى العاضد بأن يكتب إلى نورالدين لأنه رأى أن شاور يريد أن يماطل الفرنج ولذلك أحضر الكامل بن شاور ونصحه بأن يلجأ إلى العاضد وأن يطلب منه مكاتبة نور الدين بطلب النجدة .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٥١ .

(٣) لقى رسول نورالدين وهو خارج من حلب شيركوه قادما من حمص «لأن كتب المصريين وصلت إليه هناك » . (نفس المرجع) .

(٤) ابن أبى طى (الروضتين ج ١ ص ١٧٠) .

الباحث أن يعرفها بالضبط لأنها لم ترد فى النصوص التاريخية ، — وأمره أن يكتمها عن شاور — وأغلب الظن أنها خاصة بنهاية ذلك الوزير(١) .

وهكذا اضطرت الظروف نور الدين إلى استدعاء شيركوه لأنه القائد الوحيد من بين قواده الذى درس مصر دراسة عملية ، ولكنه حرص فيما يبدو — على ألا يرسله وحده - نتيجة لتلك الشكوك التى أثارها شاور فى نفسه من ناحية طمعه فى مصر ، ولذلك أرسل معه جماعة من كبار قواده ليكونوا فى الظاهر عوناً له فى القتال ، وليكونوا فى نفس الوقت - وكما يرجح - عيوناً له على حركات شيركوه - كما سيبدو فيما يلى - وأولئك القواد هم : عز الدين جرديك ، وشرف الدين برغش ، وعين الدولة الياروقى ، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجى ، وهذا عدا عيسى الهكارى الذى أرسله من قبل(٢) . وقد رافق صلاح الدين يوسف بن أيوب(٣) عمه فى تلك الحملة أيضا .

وهكذا خدم الصليبيون شيركوه من حيث لا يعلمون من جراء حملتهم الثالثة على مصر ، إذ عاد إلى تلك البلاد بناء على دعوة من خليفتها وأهلها وبموافقة مخدومه نور الدين ، فكان ذلك كله من أهم عوامل نجاحه فى الحملة الثالثة واستقراره فى مصر بعد ذلك .

---

(١) نفس المرجع ص ١٧١ .

(٢) انظر ما سبق ص ٨١ .

(٣) راجع ابن الأثير ج ١١ ص ١٥١ — ١٥٢ .

أما الصليبيون فانهم تقدموا من بلبيس إلى القاهرة ، فنزلوا بالقرب من باب البرقية ، ولكي يمنع شاور تقدمهم أمر بإحراق الفسطاط والمراكب الراسية فى النيل ، بعد أن أمر سكانها بالهجرة ، وقاسى أهل الفسطاط أثناء تلك الهجرة كثيراً من المصاعب والآلام ففقدوا متاعهم وهلك كثيرون منهم(١) . وقد ظلت النار مشتعلة فى تلك المدينة الكبيرة أربعة وخمسين يوما كما يقال(٢) .

وانتهز شاور فرصة ذلك الحريق ، وأخذ يفاوض عمورى فى أمر الجلاء نظير مبلغ من المال ، وأنفذ إليه من أجل ذلك شمس الخلافة(٣) ، ولكن تلك المفاوضات لم تنته إلى شيء لسبب واضح ، وهو أن عمورى إنما جاء تلك المرة للفتح والاستقرار لا لغرض آخر سواه ، وعندئذ لجأ شاور إلى سياسة المخادعة والمخاتلة(٤) حتى يحضر الجيش النورى ، وظل شمس الخلافة رسولا بين الفريقين حتى حضر شيركوه بجيشه من الشام ، ولم يستطع الصليبيون —خلال تلك المدة— أن يدخلوا القاهرة لسبب واضح أيضاً هو حسن بلاء المصريين فى الدفاع عنها متأثرين بما أصاب بلبيس من نكبات وويلات(٥) ، ومن بين تلك الرسائل التى تبودلت بين الملك الصليبي والوزير المصرى الرسالة الآتية ، وهى من شاور : « إن هذا بلد عظيم وفيه خلق كثير ولا يمكن

---

(١) الروضتين ج ١ ص ١٥٤ .

(٢) السيوطى ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨ ، ابن الأثير ج ١١ ص ١٥١ .

(٣) الروضتين ج ١ ص ١٧١ .

(٤) نفس المصدر .

(٥) انظر ما سبق ص ١٣١ .

تسليمه البتة ، ولا آخذه إلا بعد أن يقتل من الفريقين عالم عظيم . وما تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة والرأى أن تحقن دماء أصحابك ودماء أصحابى ، وتحصل شيئاً أدفعه لك فيحصل لك عفوا »(١) .

وبمثل هذه الرسالة وتلك الوعود ظل شاور يخدع عمورى – بعد أن يأس من الاتفاق معه – كسباً للوقت حتى تحضر النجدة النورية من الشام ، والظاهر أن عمورى علم بمادار بين العاضد ونور الدين ، وبأن الجيوش النورية لابد قادمة ، فبدأ يتساهل فى شروطه – ولكن بعد فوات الأوان ، ولم يشأ شاور أن يقطع صلته نهائياً بعمورى مع علمه بقرب مقدم الحملة النورية ، فأرسل إليه شمس الخلافة أيضاً يخبره بأنه سيظل باقياً على الهدنة ، وبأنه سيرضى شيركوه عند حضوره بشىء من المال ، ويحمل إليه الباقى .

وفى أثناء تلك الحوادث كان على الأسطول الصليبى أن يؤيد الهجوم البرى ، ووصلت السفن الصليبية فعلاً إلى أشمون طناح ، واستول الصليبيون على تانيس ونهبوها – كما يقول وليم الصورى(٢) – ولكنهم لم يستطيعوا أن يتقدموا إلى أكثر من ذلك ، لأن الطريق الذى سلكوه ليس طريقاً طبيعيا لغزو مصر – كما تشهد بذلك حوادث التاريخ السابقة واللاحقة – إذ قاوم الفلاحون المصريون الأسطول الصليبى مقاومة عنيفة كان لها أثرها الواضح ، فقطعوا سدود النيل ،

(١) الروضتين ص ١٧١ .

(٢) Schlumberger P. 208 .

وأوقفوا مراكبهم الخاصة فى وجه الأسطول الصليبي ، فلما سمع عمورى بذلك أرسل فرقة من جيشه(١) لتسهل طريق العبور للأسطول ، ولكنه علم بمجىء شيركوه فأصدر أوامره إليه بالرجوع بعد أن فقد إحدى مراكبه الحربية(٢) . أما هو فقد رحل عن مصر فى يناير سنة ١١٦٩ (ربيع الأول ٥٦٤ ﻫ) بعد أن رأى ألا قبل له بجيش شيركوه ، وبخاصة وهو مؤيد من جميع الطبقات المصرية .

وفى نفس ذلك التاريخ وصل شيركوه إلى القاهرة ، فدخلها دخول الظافر المنتصر ، واستقبله الناس بالترحاب ووصلت إليه الخلع الكثيرة من العاضد ومن شاور(٣) أيضاً ، وسمع نور الدين بتلك الأخبار فسُرَّ لها وأمر بإذاعتها فى الآفاق لأنه اعتبر ذلك - على حد قول ابن الأثير(٤) فتحاً لمصر وحفظا للشام ، وهنا يقول ابن أبى طى إن العاضد خرج بنفسه ليلا إلى شيركوه متنكراً ، واجتمع به فى خيمته ، وأفضى إليه بأمور كثيرة منها قتل شاور(٥) .

وبعد رحيل الفرنج ودخول شاور القاهرة ، بدأ الجو يصفو فى مصر ، وأخذ المهاجرون المصريون يعودون إلى ديارهم ، ويصلحون ما أفسده شاور عليهم بسياسته العقيمة ، وتنافسوا فى خدمة شيركوه ، والترحيب به ، وبدأ شاور هو الآخر يتودد إليه ، ويوطد مركزه

---

(١) Ibid P. 210 .

(٢) Schlunmbegor P. 210 .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٥٢ .

(٤) نفس المصدر .

(٥) الروضتين ج ١ ص ١٧١ .

غنده حتى تسنح الفرصة للانقضاض عليـه ، أما أفراد الجيش النورى فقد تمنوا أن يقيموا بمصر ويتمتعوا بجوها وخيراتها(١) .

ومن ثم أخذ شيركوه يدبر الحيلة للقضاء على شاور ، وجمع أصحابه لذلك الغرض وشاورهم فى الأمر ، وقد دوّن ابن أبى طى مادار فى ذلك الاجتماع التاريخى الهام فذكر نص خطاب شيركوه وفيه يقول لأصحابه « قد علمتم رغبتى فى هذه البلاد ومحبتى لها وحرصى عليها ، لا سيما وقد تحققت أن عند الفرنج منها ما عندى ، وعلمت أنهم كشفوا عورتها وعلموا مسالك رقعتها ، وتيقنت أنى متى خرجت منها عادوا إليها واحتووا عليها ، وهى معظم دار الإسلام ، وحلوبة بيت مالهم ، وقد قوى عندى أن أثب عليها قبل وثوبهم ، وأملكها قبل تملكهم ، وأتخلص من شاور الذى يلعب بنا وبهم ، ويغرنا ويغرهم ، ويضرب بيننا وبينهم . وقد ضيّع أموال هذه البلاد فى غير وجهها ، وقوى بها الفرنج علينا وما كل وقت ندرك الفرنج ونسبقهم إلى هذه البلاد التى قد قل رجالها وهلكت أبطالها »(٢) .

ويستطيع الباحث أن يعتبر ذلك الخطاب منهجاً لسياسة شاور فى مصر وبرهاناً على جميع ما تقدم من إشارات بصدد نوايا الأيوبيين ، إذ يبدأ شيركوه أولا بتذكير السامعين برغبته القديمة فى ملك مصر وخوفه من الصليبيين عليها ، ثم يذكر مميزات تلك البلاد ، ويعلن أنه إنما جاء تلك المرة للوثوب عليها قبل الفرنج ، وأنه لا سبيل إلى ذلك إلا بقتل شاور الذى يقف حجر عثرة فى تحقيق رغبته ، ثم يعلن أخيراً

---

(١) الروضتين ج ١ ص ١٧١ .

(٢) نفس المصدر ص ١٧٢ .

أنها بلاد قل رجالها وهلكت أبطالها ، أى أصبح من السهل فتحها والاستيلاء عليها .

وقد مهد شاور للجيش النورى بسياسته الملتوية سبيل الإسراع بتنفيذ ما عزموا عليه ، إذ راح يماطل شيركوه فى تقرير ما يلزمه من مال وأقطاع(١) ، بل إنه فكر فى أن يقيم له ولمن معه من الأمراء وليمة ثم يقبض عليهم أثناء الاجتماع(٢) على الطريقة المتبعة فى ذلك العهد .

ومما يجدر ذكره فى هذه المناسبة أن شجاعاً بن شاور بدأ يميل إلى شيركوه ويرتفع عن الأفق الضيق الذى يعيش فيه والده ، ويعارض سياسته التقليدية الهدّامة التى تقوم على دعوة الصليبيين والاستعانة بهم ضد شيركوه ، ولشجاع فى هذا الصدد قول مشهور وهو « لئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلامية خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج ، فإنه ليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً ، ويملكون البلاد »(٣) .

وتنفيذاً لسياسة شيركوه استقر عزم فريق من الجيش النورى(٤) ـ وعلى رأسهم صلاح الدين ـ فى القضاء على شاور ، ومضوا فى تنفيذ عزمهم ذات يوم . فقد خرج شاور لزيارة شيركوه عند الإمام الشافعى فلقيه صلاح الدين وعز الدين جرديك ومعهما بعض الأمراء ، فساروا

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٨٠ .
(٢) نفس المصدر . راجع أيضا الروضتين ج ١ ص ١٥٦ .
(٣) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٥١ .
(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٨٠ .

معه قليلا ثم غافلوه وأنزلوه عن فرسه وقبضوا عليه وأودعوه فى خيمة إلى أن يصدر إذن الخليفة فى أمره ، ويبدو أن الخطة كانت مدبرة ، إذ لم يمض وقت طويل حتى جاء إذن العاضد ممهوراً بتوقيعه يطلب رأس شاور(١) ، فقتل فى ١٨ يناير سنة ١١٦٩ (١٧ ربيع الأول سنة ٥٦٤) وانتهت بمقتله صفحة وزير فاطمى أعماه حب المنصب عن كل معنى آخر سواه .

والواقع أن التخلص من شاور كان أمراً لا بد منه بالنسبة لشيركوه وفى هذا المعنى يقول ابن خلكان : « وتحقق أسد الدين (شيركوه) أنه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور ، وأجمع رأيه على القبض عليه إذا خرج إليه »(٢) .

وبعد مقتل شاور مباشرة خلع العاضد على شيركوه وقلده الوزارة وبدأ سرور شيركوه بتلك النتيجة عظيما بدليل ما يقوله ابن أبى طى من أنه لما خرج منشور الوزارة إليه أمر بقراءته على رءوس الأشهاد ، وفرح به غاية الفرح ، وأعيدت قراءته عليه عدة مرات(٣) . ولا غرابة فى ذلك فإنه إنما وصل إلى الغاية البعيدة التى ظلت الأسرة الأيوبية تنتظرها وتسعى إليها منذ أمد طويل .

على أن وصول شيركوه إلى منصب الوزارة فى مصر أمراً لا يزال يحتاج إلى تفسير وإيضاح ، إذ ليس من الطبيعى أن يكون شيركوه

---

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٨٠ ، ابن الأثير ج ١١ ص ١٥٢ .
(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٨٠ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٣٢ .
(٣) الروضتين ج ١ ص ١٧٢ .

وزيراً للعاضد الفاطمى الشيعى وقائداً أعلى لجيوش نور الدين محمود السنى فى وقت واحد . قد يقال أن العاضد وعد نور الدين عندما استنجد به ضد الصليبيين فى الحملة الثالثة بأنه يقبل أن يقيم شيركوه فى مصر(١) . ولكن هذا ليس معناه ـ بالضرورة ـ أن يكون وزيراً له ، والتعليل المقبول لذلك أن شيركوه وصل إلى الوزارة بإرادته ووفقاً لصالحه وصالح أسرته ، لا برغبة العاضد ولا باختياره ، وأن العاضد الذى لم يكن له فى أمر اختيار وزرائه شىء ـ قد قبل ذلك ـ أو فهمه فهماً ضمنياً اضطراراً وتمشياً مع التقاليد الفاطمية التى سادت فى عهدها الأخير وهى أن يكون القائد المنتصر وزيراً ، كما فعل شاور وضرغام وغيرهما . ويرجح ذلك أن نور الدين نفسه لم يرحب باختيار شيركوه وزيراً للعاضد ـ كما يقول ابن أبى طى وابن الفرات(٢) ، بل على العكس كره أن يصل قائده إلى ذلك المنصب ، وبدت مظاهر القلق على قسمات وجهه يوم أن سمع بذلك النبأ ، فحاول أن يعيد شيركوه إلى الشام ، وكاتب العاضد فى ذلك أكثر من مرة(٣) . ولعل فى هذا ما يدل دلالة واضحة

---

(١) انظر ما سبق ص ٨١ .

(٢) راجع الروضتين ج ١ ص ١٧٢ ، ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ج ٧ ص ٢٥ .

(٣) ذكر ابن أبى طى (الروضتين ج ١ ص ١٧٢) نص كتاب من تلك الكتب وفيه يقول نور الدين للعاضد « ولقد افتقر العبد إلى بعثته (أى بعثة شيركوه) واعوز عسكره يمن نقيبته واشتد حرب الضلال على المسلمين لغيبته لأنه ما يزال يرمي شياطين الضلال بشها به الثاقب ويصمي مقل الشرك بهمة النافذ الصائب » .

على أن نور الدين بدأ يدرك نوايا الأسرة الأيوبية وأغراضها ، وأنها إنما تعمل وفقاً لمصالحها وأغراضها الخاصة .

ومهما يكن من شيء فإن شيركوه قد أخذ ينظم شئون البلاد تنظيما جديداً بعد أن خلت له من كل منازع ومعارض(١) ، فاستعمل على الوظائف الهامة من يثق فيهم من رجاله وأخذ ينفذ سياسته الواضحة الهدف ، لولا أن أدركته المنية وشيكا ، وقبل أن يمضى عليه فى منصبه الجديد أكثر من شهرين وخمسة أيام إذ توفى فى الثالث والعشرين من مارس سنة ١١٦٩ (٢٢ جمادى الآخر سنة ٥٦٤ هـ) ، وكان قرماً يحب أكل اللحوم ويواظب عليه ، فتواترت عليه العلل والأمراض فكان فى ذلك هلاكه - كما يقول المؤرخون(٢) ، وهكذا غربت شمس ذلك البطل الأيوبى ، بعد أن مهد السبيل ببسالته وشجاعته لقيام الدولة الأيوبية فى مصر(٣) .

هكذا ينتهى فتح مصر باسم نور الدين ويتم ذلك الفتح على يد

= راجع فى ذلك أيضا ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ج ٧ ص ٢٥ وقد أورد نصا لكتاب آخر أرسله نور الدين إلى العاضد يرمى إلى عودة شيركوه إلى الشام .

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٥٢ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٧٣ ، ابن الأثير ج ١١ ص ١٥٣ ، ابن شداد ص ٣٢ ، ابن خلكان ج ٢ ص ٣٨٠ .

(٣) لا يستطيع الباحث أن يشكر ما أداه شيركوه من خدمات للأسرة الأيوبية ، ويكفى أنه هو صاحب الفضل الأول فى فتح مصر وفى ذلك يقول ابن أبى طى (الروضتين ج ١ ص ١٧٣) « وهو (شيركوه) مشيداً قواعد الدولة الشاذية والمملكة الناصرية » .

شيركوه ، ولعله قد وضح أن المتنازعين عليها كانوا كثيرين ، بل إن النزاع عليها قام بين أشخاص المعسكر الواحد ، ففى الجانب المصرى قام النزاع بين شاور وضرغام ، وترتب على ذلك تدخل نور الدين والصليبيين فى شئون مصر ، وفى نفس الوقت اضطر العاضد الفاطمى أن يمضى مع كل منهما مُضِيَّ الضعيف مع القوى ، ويوافقه على ما يفعل موافقة الكاره المغلوب على أمره .

فاذا انتقل الباحث إلى الجانب النورى أدرك أن شيركوه أصبح يحرض على فتح مصر لتكون للأسرة الأيوبية لا لنور الدين ، أما نور الدين فلا يلحظ عن ذلك شيئاً فى أول الأمر ، حتى إذا تقدمت الأيام برزت أمام عينيه الوقائع الدالة على طمع الأيوبيين فى مصر ، فيضطر أن يرسل مع شيركوه بعض كبار قواده فى الحملة الثالثة ، فاذا ما قتل شاور ووزر شيركوه للعاضد بعده ووضح للعيان أن الأسرة الأيوبية قد بدأت تستقر فى مصر ، ولا حاجة إلى تكرار ما أورده ابن أبى طى بصدد قلق نور الدين وتشككه فى شيركوه بعد أن صار وزيراً فاطمياً ، وقد استمر ذلك الشك ينمو فى قلب نور الدين بعد وفاة شيركوه حتى انتهى إلى مايسميه المؤرخون بالوحشة بين نور الدين وصلاح الدين .

والخلاصة أن النزاع على مصر لم يكن بين شخصين اثنين أو معسكرين اثنين ، وإنما كان نزاعاً بين عدد من الأشخاص ، وكانت نتيجته النهائية فى جانب الأيوبيين ، على أن هناك نقطة أخرى يجب ألا ينتهى ذلك الفصل دون بحثها ، وهى الأسباب التى ساعدت شيركوه على فتح مصر ،

إذ الواضح أن القوة العسكرية لم تكن وحدها العامل الأساسى فى نجاحه فى فتحها .

ولعل أول تلك الأسباب هو سياسة الظلم والجور التى أصبحت تقليداً يتوارثه الوزراء الفاطميون المتأخرون وبخاصة شاور وضرغام ، وما كان يلاقيه المصريون على أيديهم من ضروب العنت والاضطهاد ، ذلك لأن الإنسان - ككائن حى - فى حاجة إلى الشعور بالأمن والطمأنينة - كما يقرر علم النفس - وهذه ناحية حرم منها المصريون فى العهد الفاطمى الأخير ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها ماحل بمدينة بلبيس من النكبات خلال الحملات الثلاث الماضية ، ومنها حريق الفسطاط الذى دام أربعة وخمسين يوماً حتى رحل أهلها منها فى صورة مروعة ، وهذا عدا مطالب الوزراء المالية التى أرهقت بها الشعب ، فكانت النتيجة أن رحب الشعب بالخلاص من ذلك الظلم ، وتاق إلى حياة الدعة والهدوء والاستقرار الكامنة فى طبيعة المصريين ، ولذلك استقبل المصريون شيركوه استقبال المنقذ المنتظر .

وترتب على ذلك أن أصبح لشيركوه مؤيدون وأنصار فى مصر — وتلك قوة لا يستهان بها — فأيده أولئك الأنصار تأييداً تاماً فى حصار الإسكندرية ، ولولا ذلك لما استطاع شيركوه أن يدخل تلك المدينة أو أن يقاوم شاور والصليبيين ، ثم إن أولئك الأنصار هم الذين أمدوا شيركوه بالمال والسلاح فى معركة البابين ، وهم الذين كتبوا إليه وهو فى حمص يطلبون حضوره ، فكانوا عاملا هاماً من عوامل نجاحه .

وهناك سبب آخر جاء فى الواقع من ناحية الصليبيين أنفسهم وهو الخطأ الشنيع الذين ارتكبوه فى بلبيس ، فإن المعاملة السيئة التى عاملوا بها أهل تلك المدينة قد حفزت المصريين إلى ضرورة الدفاع عن أنفسهم حتى لا يحيق بهم ما حاق بسكانها ، ولذلك فشل الصليبيون أمام أسوار القاهرة .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ، فان تلك المعاملة أدت إلى أن يستنجد العاضد وشاور بنور الدين ، فأنفذ شيركوه إليهم ، أى أن شيركوه جاء تلك المرة بناء على رغبة المصريين أنفسهم بما فيهم الخليفة ووزيره ، بخلاف الحملتين السابقتين الذى جاء فيهما معادياً ، ولذلك استقبلوه استقبالا حافلا ، وكانت براعة ذلك الاستقبال الفصل الختامى فى نجاح الحملات النورية فى فتح مصر .

على أنه يجب أن يلاحظ أن المصريين كانوا يفضلون شيركوه على الصليبيين ويظاهرونه عليهم ، إذا كان ولابد من المفاضلة بين الفريقين ، وهذا واضح من مقاومة الفلاحين المصريين للأسطول الصليبى فى أشمون طناح وتأبيس ، واضطرارهم إياه إلى العودة فاشلا .

ويضاف إلى ذلك كله ضعف الجيش المصرى ، وشيوع الرشوة بين رجاله ، وفناء الكثيرين من القواد والأمراء فى الحوادث الأخيرة على يد شاور مرة وعلى يد ضرغام أخرى ، فكانت النتيجة أن عجز الجيش المصرى عن الدفاع من مصر ، وأوقعوها فريسة سهلة يتنازع عليها الصليبيون ونور الدين .

والخلاصة التى يستطيع أن يصل إليها الباحث فى هذا الفصل كله أن الأسرة الأيوبية رغبت فى ملك مصر منذ فرار شاور واستنجاده بنور الدين ، وأن تلك الرغبة بدأت تظهر شيئاً فشيئا حتى عرفها شاور وأدركها كذلك نور الدين ، ولكن بعد أن أصبح شيركوه أكثر قواده خبرة بشئون مصر ، ولذلك اضطر أن يرسل معه بعض كبار قواده فى الحملة الثالثة ، ليحولوا بين شيركوه وبين تنفيذ رغبته ، وسيبدو ذلك بصورة أوضح فى الفصل التالى .

الفصل الرابع

صلاح الدين يوسف بن أيوب

وزارته للعاضد الفاطمي ، ونيابته عن نور الدين محمود



النزاع على الوزارة بعد شيركوه — اختيار صلاح الدين للوزارة — أسباب اختياره — ملاحظات على وزارته دقة موقف صلاح الدين — سياسته — مؤامرة مؤتمن الخلافة نجاح — معركة السودانيين — إغارة الصليبيين على دمياط — تأمين الحدود المصرية — التضييق على العاضد وصول بني أيوب إلى مصر .

رغبة نور الدين وصلاح الدين في قطع خطبة العاضد — تمهيد صلاح الدين لقطعها — غزو صلاح الدين لحصن الكرك — خوفه من مقابلة نور الدين — رجوعه إلى مصر — المجلس الأيوبي — فتح الأيوبيين لبلاد النوبة — أسباب فتحها — غزوة الشوبك — عودة صلاح الدين — غضب نور الدين على صلاح الدين — وفاة نجم الدين أيوب — فتح اليمن — أسبابه .

نشاط أنصار الدولة الفاطمية — حركتهم السرية — مدى نشاطها — مؤامرة عمارة اليمني — القبض على المتآمرين — القضاء عليهم — وفاة نور الدين محمود .

عندما توفى أسد الدين شيركوه فى الثالث والعشرين من مارس سنة ١١٦٩ (٢٢ جمادى الآخر سنة ٥٦٤) لم يكن ابن أخيه صلاح الدين فى ذلك الوقت يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره(١) ، فثار النزاع حول من يتولى منصب الوزارة بدلاً مكان شيركوه ، وبدا ذلك النزاع ظاهراً حيناً ومستتراً أحياناً بين ثلاث قوى متباينة ، وهى العاضد ورجال قصره من جهة ، وكبار القواد الذين أرسلهم نور الدين فى بداية الحملة الثالثة ليكونوا عوناً لشيركوه فى الظاهر وعيوناً وأرصاداً عليه فى حقيقة الأمر من جهة ثانية ، ثم الأسرة الأيوبية من جهة ثالثة .

أما العاضد فقد ذهبت الحوادث الأخيرة بصفوة رجاله وقواده(٢) فلم يبق إلى جانبه من رجاله البارزين سوى كبير الخصيان السود مؤتمن الخلافة نجاح ، ولذلك لم يتطلع إلى ذلك المنصب مصرى واحد منذ مقتل شاور . ومضت أيام وزارة شيركوه التى دامت شهرين وخمسة أيام دون أن تبدو من المصريين بادرة من الثورة أو العصيان ، ولعل جمهور المصريين الذين كانوا يتوقون إلى الأمن والطمأنينة بعد ما أصابهم من ألوان القلق والاضطراب رأوا فى حكم شيركوه الحازم ما حقق

---

(١) ولد صلاح الدين كما هو معروف بتكريت سنة ٥٣٢ هـ . راجع ماسبق ص ٤٥ .

(٢) فى الواقع أن مصر لم تنكب فى ذلك الوقت فى رجالها فحسب بل نكبت أيضا فى مالها ونفسية أهلها ، وفى ذلك يقول عمارة اليمنى (النكت ج ١ ص ٨٨) « لم يرب أحد رجال الدولة (المصرية) مثلما رباهم الصالح (طلائع ابن رزيك) ، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام ، ولا أتلف أموالهم مثل آل شاور » .

لهم تلك الرغبة النفسية الأساسية ، مما جنح بهم إلى السكينة والهدوء ، ولهذا كله لم يقم أحد من المصريين مطالباً بالوزارة بعد شيركوه ، وإن ظلت تلك الرغبة كامنة فى نفوس رجال القصر وحزب العاضد بصفة عامة حتى ظهرت فيما بعد على شكل مؤامرة ثم ثورة قام بها مؤتمن الخلافة نجاح وأنصار الخليفة العاضد من الجنود السودانيين .

أما كبار القواد النوريين فلم يكن نور الدين موفقاً توفيقاً تاماً فى اختيارهم كأداة معارضة لبنى أيوب فى مصر ، ذلك لأن الكثيرين منهم مالوا فى النهاية إلى جانب بنى أيوب إما بدافع الصداقة كالفقيه الهكارى(١) الذى أخذ على عاتقه تمهيد الأمور لصلاح الدين ، والذى ظل يخدمه طوال حياته خدمات جليلة الأثر ، وإما بدافع القربى كالحارمى صهر أيوب وخال صلاح الدين(٢) ، وإما بدافع الجنس الكردى المشترك كالمنبجى وابن المشطوب(٣) ، والنتيجة أنه لم يبق من أولئك القواد النوريين من ظل مخلصاً إخلاصاً تاماً لنور الدين سوى القائد

(١) ينتسب عيسى الهكارى إلى الحشن بن على بن أبى طالب — رضى الله عنهم — ومبدأ أمره أنه كان يشتغل بالفقه بالمدرسة الزجاجية بمدينة حلب وقت إقامة شيركوه بها . ومن هنا اتصل الهكارى بشيركوه حتى أصبح أمامه الذى يصلى به الفرائض الخمس . وفى بداية الحملة النورية الثالثة على مصر سار الهكارى إليها بكتاب خاص من نور الدين إلى العاضد ، ولما توفى شيركوه عمل الهكارى على أن يليه فى الوزارة ابن أخيه صلاح الدين . ولعل هذا يفسر العلاقة الوطيدة بين الهكارى وبين أيوب . راجع فى ذلك ابن خلكان الوفيات ج ١ ص ٣٩٧ .

(٢) ابن الأثير ج ١ ص ١٥٤ ، المقريزى السلوك ج ١ ص ٤٩ .

(٣) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٥٤ .

عين الدولة الياروقى حتى أنه لم يستطع البقاء فى مصر فى ظل وزارة صلاح الدين ، فقفل راجعاً إلى الشام ، كما سيلى .

وأما الأسرة الأيوبية فقد أصبح صلاح الدين الممثل البارز لها فى مصر بعد وفاة عمه شيركوه ، فبدت كفته فى الواقع أرجح الكفات المتنازعة على الوزارة لعدة عوامل منها صلة القرابة التى تربط بينه وبين الوزير الراحل شيركوه ، وبخاصة وقد شهدت مصر فى العهد الفاطمى المتأخر - أكثر من مرة - الإبن وزيراً بعد أبيه ، وكأن منصبه بعض ما يورثه له ، فقد جاء بعد بدر الجمالى ابنه الأفضل ثم حفيده أحمد ، وجاء بعد طلائع بن رزيك ابنه العادل رزيك ، ومن بين تلك العوامل أن صلاح الدين قام بدور كبير - لا يقل عن دور عمه شيركوه - فى فتح مصر ، وأفاد خلال ذلك من التجارب العملية ما أهّله للقيام بأعباء منصب الوزارة ، ويضاف إلى ذلك أن كثيراً من أصدقاء الأسرة الأيوبية كعيسى الهكارى - الذى سبق ذكره - عملوا جاهدين لتكون الوزارة لصلاح الدين من بعد عمه ، ومن بين تلك العوامل أيضاً عامل هام رجح كفة صلاح الدين وهو أن شيركوه ترك ضمن ما ترك - خمسمائة مملوك هم الأسدية(١) ، وعلى رأسهم بهاء الدين قراقوس ، فلما مات سيدهم انحازوا - كما هو المنتظر - إلى جانب صلاح الدين ، ورغبوا فى أن تكون الوزارة له ، وتلك قوة كان لها ولاشك أثرها البارز فى إتمام ذلك الاختيار(٢) .

(١) راجع ابن أبى طى . الروضتين جـ ١ ص ١٧٢ .

(٢) يمكن أن يقال بناء على ذلك أن تدخل المماليك فى شئون الدولة الأيوبية — ذلك التدخل الذى انتهى آخر الأمر بسقوطها — والذى صبغ دولة المماليك فيما بعد بتلك الصبغة التى غلبت عليها — يمكن أن يقال إن ذلك التدخل ، قد قام جنباً إلى جنب — مع قيام الدولة الأيوبية نفسها .

وكيفما كان الأمر فإن صلاح الدين انصرف عقب وفاة عمه مباشرة إلى عمل ما يقتضيه حادث الوفاة من واجبات ، فشيع جنازته وأقام له العزاء ثلاثة أيام(١) ، وظل منصب الوزارة شاغراً خلال تلك الأيام الثلاثة حتى يقع الاختيار على الوزير الجديد ، ذلك أنه لم يلبث أن دب النزاع والتنافس بين القواد النوريين على ذلك المنصب ، نتيجة لمصالحهم المتباينـــة ، وكاد ذلك النزاع أن ينتهى إلى نتيجة خطيرة (٢) لولا أن تدخل فى الأمر الفقيه عيسى الهكارى لصالح صلاح الدين ، إذ تكفل بإرضاء أولئك القواد ، وكانت خطته أن يستميل الأمراء الساخطين واحداً بعد الآخر مراعياً العوامل النفسية الدقيقة التى تحرك كل واحد منهم .

ولقد بدأ الهكارى بشهاب الدين محمود الحارمى خال صلاح الدين فضرب له على وتر حساس هو صلة القرابة التى تربط بينه وبين صلاح الدين ، فهو ابن أخته ، وابن الأخت وما يملك ملك لخاله ، وليس من الجائز أن يكون الخال أول من يسعى إلى هدم ابن أخته ، وأنه إن عكف على معارضته خرج الأمر من يديهما معاً ، وبتلك المقالة استطاع الهكارى أن يستميل الحارمى إلى صلاح الدين وأن يضمن تأييده له ، ولم يتركه حتى عاهده وحلف له .

ثم قصد الفقيه عيسى بعد ذلك إلى قطب الدين ينال بن حسان

(١) ابن أبى طى (الروضتين ص ١٧٣) ، راجع أقوال العماد الأصفهانى بنفس المرجع ص ١٦١ .

(٢) يقول ابن الأثير (ج ١١ ص ١٥٤) أن كل أمير جمع أصحابه ليغالب بهم على الوزارة .

النبجى ، ولم يعدم معه هو الآخر وسيلة نفسية يخفف بها من حدة معارضته وسخطه ، وهى أنهما كرديان ، وأن ليس من الحكمة أن يتعارضا ويتنازعا ، فيخرج الأمر من الأكراد إلى الأتراك ، وكذلك قام الفقيه عيسى بإقناع غير هذين الأميرين بطريقته الماهرة(١) .

وهكذا لبس الهكارى لكل حالة لبوسها متبعاً أدق قواعد الدهاء فى إقناع المخاطب والاستحواز على شعوره ووجدانه ، غير أن واحداً من أولئك الأمراء النوريين لم تنقع فيه رقى الدبلوماسية ولم تثنه المفاوضات والوعود عن معارضة صلاح الدين والكيد له ، وهو عين الدولة الياروقى ، ولما وجد الياروقى أن الميدان فى مصر قد ضاق بمعارضته رحل إلى الشام ، لينفث هناك دسائسه وسمومه فى بلاط نور الدين ، فكان سبباً من أسباب ماحدث فيما بعد بين الرجلين .

وكانت نتيجة تلك المفاوضات التى جمعت كلمة النوريين على اختيار صلاح الدين للوزارة أن الخليفة العاضد استدعى صلاح الدين وخلع عليه خلعة الوزارة ، ولقبه بالملك الناصر وهو اللقب الذى حمله شيركوه نفسه من قبل .

والمتواتر فى كتب التاريخ عربية كانت أم أجنبية(٢) أن الذى حمل العاضد على اختيار صلاح الدين ما كان يظنه من ضعفه وهدوئه ورغبته

---

(١) انظر تفصاصيل تلك المفاوضات فى ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ١٠٤ ، الروضتين جـ ١ ص ١٧٣ ، ابن خلكان ، الوفيات جـ ٢ ص ٣٨١ .

(٢) راجع ابن خلكان جـ ٢ ص ٣٨٢ ، ابن الأثير جـ ١١ ص ١٠٤ ، ابن خلدون الغير جـ ٥ ص ٢٨٣ ، Schlumberger. p.p. 238 - 240 ، Saladin P. 151 .

فى العزلة والابتعاد عن الناس ، وما كان يرجوه من وراء ذلك الاختيار أيضاً فى حدوث الانقسام من أمراء الجيش النورى واستغلاله لعله يؤدى إلى فرصة ليطردهم جميعاً من البلاد المصرية(١) .

على أن ذلك التعليل لا يستند على كثير من الحقيقة ، فإنه لم يحدث فى تاريخ العاضد أن اختار وزيراً من وزرائه ، وإنما فرض أولئك الوزراء جميعاً سلطتهم عليه ، ولم يقف هو منهم سوى موقف السميع المطيع ، بل إنه اختير للخلافة بناء على رغبة وزير من الوزراء وهو طلائع بن رزيك(٢) ، فكيف انقلب ذلك الخليفة الضعيف هكذا بين عشية وضحاها إلى رجل قادر يستطيع أن يختار وأن يبنى اختياره على أسباب ، وقد يقال أن رجال القصر هم الذين اختاروا صلاح الدين ، ولكن أولئك الرجال لم يكونوا شيئاً مذكورا بجانب أمراء الجيش النورى حتى يستطيعوا أن يفرضوا كلمتهم عليهم ، ولو كان أمر اختيار الوزراء بيد رجال القصر ، لما تم اختيار صلاح الدين أو غيره من الأمراء النوريين ، ولأصبح واحد من رجال العاضد وزيرا ، ثم إن السبب الذى قيل أن صلاح الدين اختير من أجله وهو ضعفه أو هدوءه ليس من الصواب فى شىء ، فقد اشتهر صلاح الدين بالعزلة والاعتكاف عن الناس ، ولكن العزلة والهدوء ليس معناها الضعف ، ثم إن إيثاره العزلة والاعتكاف كان وقت إقامته بالشام وقبل أن تلقى على عاتقه أعباء الأمر ، فلما أرادت له الأسرة أن يصحب عمه شيركوه إلى مصر فى الحملات النورية الثلاث ليكمل على يديه دروسه فى الحرب والحياة ،

---

(١) انظر إبراهيم الحنبلى ، شفاء القلوب ص ١٦ ، ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٥٤ .

(٢) راجع الفصل الثالث .

ترك العزلة والاعتكاف ، وبدأ يشاطر فى الحوادث الجارية بنصيب مرموق(١) . ومن ثم بدأ صلاح الدين الساعد الأيمن لعمه فى كل أعماله ، فساهم فى حصار بلبيس أيام الحملة الأولى ، وبرز فى معركة البابين فى الحملة الثانية حتى استدرج الأعداء ليلقى بهم إلى الهزيمة والفرار وقام بالإسكندرية أيام حصار الصليبيين لهـا مدة الحملة الثالثة ، يبث من روحه المعنوية فى المحاصرين ، حتى جاءته النجدة من عمه شيركوه ، ثم إن صلاح الدين كان زعيم القائلين بفكرة القضاء على شاور ، وهو الذى أخرج تلك الفكرة الصائبة إلى حيز التنفيذ(٢) ، بل إن ابن أبى طى ليذهب إلى عكس الرأى المتواتر تماماً(٣) ، فيقول إن العاضد مال إلى صلاح الدين لمـا كان يبدو عليه من الحزم والعقل وسداد الرأى ، وخصوصاً عند مقتل شاور .

وبناء على ذلك كله لم يكن صلاح الدين فى يوم من الأيام وهو فى مصر مظنة اللين والسهولة ، ولم تكن مظنة اللين والسهولة أو غيرها من الأوصاف المتشابهة سبباً فى اختياره للوزاره ، بل الراجح أن اختياره جاء نتيجة للعوامل السالفة وبفعل القواد النوريين أنفسهم بعد إجماعهم على اختياره عقب مفاوضات الهكارى ، واعتماداً على هذه الفروض لم يعد اختيار العاضد له أن يكون اختياراً إسمياً(٤) ، كما أنه يبدو أن الجانب المصرى لم يساهم فى ذلك الاختيار بشىء . وقد أدلى العماد الكاتب

---

(١) من رأى Stevenson أن مقدرة صلاح الدين الحربية ظهرت على الأقل خلال الحملتين الثانية والثالثة . راجع ص ١٩٥ .

(٢) راجع ما سبق صفحات ٨٤ — ٨٦ .

(٣) ابن أبى طى (الروضتين ١ ص ١٧٣) .

(٤) راجع Stevenson P. 196 .

الأصفهانى بقول قاطع فى هـذا الصدد ، حين ذكر أن قواد الجيش النورى بعد اتفاقهم على صلاح الدين اجتمعوا وقالوا : « هذا قائم قيام عمه ونحن بحكمه ، والزموا صاحب القصر بتوليته »(١) ، وهذا لا يدع مجالا للشك فى أن العاضد لم يكن له شيء من الأمر فى اختيار صلاح الدين للوزارة .

على أنه يجب من ناحية أخرى ، ألا يغرب عن البال أن المشكلة التى كانت تعترض الراغبين فى الوزارة فى مصر وقتذاك ، لم تكن مشكلة الوصول إلى ذلك المنصب ، إذ كان الطريق إليه معروفا ، وهو طريق القوة والعنف ، وإنما كانت المشكلة الكبرى هى كيف يحتفظون به ويلائمون بين التيارات المختلفة فى الدولة الفاطمية ، وعلى ذلك فقد ظن المعاصرون أن مصير صلاح الدين سوف لا يختلف عن مصير غيره من وزراء ذلك العهد الفاطمى المتأخر ، فتركوه يلقى مصيره الذى كانوا يظنونه محتوما ، ولكن الحوادث التى تلت أثبتت أنهم كانوا مخطئين .

هكذا أصبح صلاح الدين وزيراً فى مصر بعد عمه شيركوه ، وعلى تلك الصورة انتهى المطاف بالأسرة الأيوبية ، بعد طول تنقلاتها

(١) نص كلام العماد هو « لما فرغ صلاح الدين بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت آراء (كبار القود) واختلطت أهواؤهم ، وكاد الشمل لا ينتظم والخلل لا يلتئم ، فاجتمع الأمراء النورية على كلمة واحدة وأيد متساعدة ، وعقدوا لصلاح الدين الرأى والراية ، وأخلصوا له الولاء والولاية وقالوا : هـذا قائم مقام عمه ونحن بحكمه وألزموا صاحب القصر بتوليته ، ولعل هـذا القول هو أوضح ما كتب عن توليته صلاح الدين الوزارة . راجع الروضتين جـ ١ ص ١٦١ .

ومغامراتها — منذ غادرت موطنها الأصلى فى دوين — حتى وصلت إلى منصب الوزارة فى مصر الفاطمية المتداعية ، وهنا وقبل مغادرة هذه النقطة يستطيع الباحث أن يقدم عدة ملاحظات بصدد وزارة صلاح الدين ، وأول تلك الملاحظات أن نور الدين لم يسترح إلى اختيار صلاح الدين لمنصب الوزارة - وهذا هو نفس شعوره عند ما سمع بنبأ وزارة شيركوه للعاضد(١) ، بل إنه - كما يذهب ابن أبى طى - أعظم ذلك وأنكره ، وغضب لأن صلاح الدين لم يستشره فى ذلك الموضوع وكتب إليه فى هذا المعنى عدة رسائل غير أن صلاح الدين لم يلتفت إليها وإن لم يخرج عن طاعة نور الدين وأمره ، ويقول المؤرخ نفسه أن نور الدين كثيراً ما كان يقول : « ملك ابن أيوب » (٢) ، ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن أبا شامة الذى يتهم ابن أبى طى بالتحامل على نور الدين(٣) يعلق على ذلك النص فيقول : « هذا كله مما تقتضيه الطبائع البشرية والجبلة الآدمية ، وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك إلا من عصمه الله ، ومن أنصف عذر ومن عرف صبر » (٤) .

---

(١) انظر ما سبق ص ١٤١ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٦١ .

(٣) يذهب أبو شامه إلى أن ابن أبى طى متحامل على نور الدين لأنه كان عدواً عنيفاً للشيعة بينما ابن أبى طى شيعى ، ولو كان الأمر كذلك لوجب أن يكون ابن أبى طى أكثر تحاملا على صلاح الدين الذى هدم الدولة الشيعية الفاطمية ذاتها . على أن ابن أبى طى لم يذكر شيئاً يخالف المنطق ومجريات الحوادث ولعل الأوان قد آن لاخضاع علم التاريخ لعوامل العقل والتفكير .

(٤) المرجع السابق .

فكأنه بذلك يتابع ابن أبي طى فيما ذهب إليه من أن نور الدين لم يسترح إلى اختيار صلاح الدين للوزارة . على أن فيما يذكره غير ابن أبي طى من المؤرخين من حوادث ما يدل على أن نور الدين قد وقف ذلك الموقف حقيقة من صلاح الدين ، فقد ذكر ابن شداد أن نور الدين أخذ حمص والرحبة من نواب شيركوه وأبنائه عند ما سمع باستقرار صلاح الدين فى مصر(١) . وهذا بدوره يدل على أن نفسية نور الدين تغيرت بالنسبة لبنى أيوب ، كما ذكر ابن الأثير وابن خلدون أن نور الدين لم يكن يكتب لصلاح الدين باسمه وحده ، بل دأب على أن يكتب إليه باسم « صلاح الدين وجميع الأمراء بالبلاد المصرية(٢) ، وهذا ليبين له أنه لا يشغل مركزاً ممتازاً عن غيره من بقية القواد والأمراء ، ويقال أن نور الدين ندم فى أواخر أيامه على إنفاذ شيركوه إلى مصر ، إذ يعزى إليه أنه قال وهو على فراش مرضه الأخير : « ما أخطأت إلا فى إنفاذى أسد الدين (شيركوه) إلى مصر بعد علمى برغبته فيها »(٣) .

وفى هذا كله ما يدل على أن نور الدين فهم حقيقة نوايا بنى أيوب ورغبتهم فى الاستيلاء على مصر ، وإن كان تأكده من تلك الحقيقة قد جاء بعد فوات الأوان ، كما يدل أيضاً على أن « الوحشة » بين

---

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٣٣ . انظر كلام ابن أبي طى فى الروضتين ج ١ ص ١٧٣ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٥٤ ، ابن خلدون ج ٤ ص ٧٩ ، وراجع أيضا Stevenson p. 197 .

(٣) ابن ابى طى (الروضتين ج ١ ص ١٧٣) .

نور الدين وصلاح الدين بدأت فى وقت مبكر عما تواترت عليه أقوال المؤرخين .

والواقع أن لنور الدين الحق فى أن يخشى جانب صلاح الدين والأسرة الأيوبية عامة ، وأن ينقص من أقطاعاتهم بعد أن استقروا فى مصر ، ذلك لأن مصر تختلف اختلافا تاما عن تكريت وبعلبك وحمص والرحبة وغيرها من المدن التى حكمها بنو أيوب وقت إقامتهم بالشام ، ففى كل تلك المدن ليس من السهل على أسرة من الأسر أن تقيم ملكا مستقلا دون أن تخشى صاحب نعمتها أو جيرانها الأقوياء ، بينما تستطيع أمثال تلك الأسرة أن تقيم ذلك الحكم فى مصر على دعائم ثابتة لما تنفرد به من ميزات لا تتوفر فى إقليم آخر بالشرق الأدنى ، كحدودها الجغرافية الواضحة وثروتها الطبيعية الطائلة وتاريخها القديم المعروف ، وهذه هى نفس الأسباب التى أدت إلى تعلق بنى أيوب بمصر ، ورغبتهم فى أن يقيموا دولتهم فيها .

ومما يلاحظ أيضاً أن أحداً من المصريين لم يتطلع إلى منصب الوزارة وقتذاك بدليل أن المراجع(١) لم تذكر أن واحداً منهم طالب به ، أى أنه أصبح من المسلم به أن يتولاه أحد أفراد الجيش النورى ، وعدم ظهور مصريين أو فاطميين بين المتقدمين للوزارة يدعو فى الواقع إلى الالتفات ، والتعليل المعقول لذلك هو أن الجيش النورى كان من القوة والسطوة بحيث لم يترك مجالا لظهور الطامعين فى الوزارة أو فى

---

(١) راجع أبو شامة ، الروضتين ، المقريزى ، السلوك ، ابن الأثير الكامل ج ١١ الدولة الأتابكية وابن خلكان ، الوفيات ، إذ لم يرد فى كل تلك المراجع اسم مصرى واحد بين المتقدمين للوزارة .

غيرها ، وتلك حقيقة هامة تفسر السبب فى نجاح صلاح الدين بالرغم عما قابله من عقبات ، إذ استطاع أن ينفذ سياسته المرسومة لتحقيق أغراضه دون أن يجد معارضة تذكر من الفاطميين .

ومن الآراء المتواترة التى ليس لها نصيب من الصحة أن صلاح الدين تردد فى قبول منصب الوزارة(١) ولعل فى مفاوضات الهكارى لإقرار الأمر له ما يدل على عكس ذلك الرأى ، ويبين أن صلاح الدين سعى إلى الوزارة سعياً متواصلا(٢) . إذ ليس من المعقول أن يبذل الهكارى ما بذل من جهد ليوطد له الأمر وهو كاره . وأغلب الظن أن المؤرخين المعاصرين ذكروا ما ذكروا عن تردد صلاح الدين فى مجيئه إلى مصر وبخاصة فى المرة الثالثة وفى قبول منصب الوزارة ، ليوجدوا الموقف المناسب لتطبيق الآية القرآنية الكريمة « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » لاسيما أنهم كتبوا التاريخ على أنه عظات وعبر . ثم إن القول بتردد صلاح الدين فى القبول لمنصب الوزارة لايقبل حتى من الناحية المنطقية ، ذلك لأن صلاح الدين أصبح الممثل الوحيد لأسرته فى مصر(٣) وبات واجبا عليه أن ينفذ السياسة البعيدة التى وضعها أبوه

---

(١) راجع ابن شداد سيرة صلاح الدين ص ٣٠ ، ٣١ ، ابن الأثير ج ١١ ص ١٥٤ .

(٢) لم يذكر ابن (المرجع السابق ص ٣٢) إن صلاح الدين تردد فى قبول منصب الوزارة بل قال إن شيركوه عرض عليه الأمر قبل وفاته ويتابعه فى ذلك المقريزى (السلوك ج ١ ص ٤٣) ولعله نقل عنه . وكذلك لم يذكر السيوطى شيئاً عن ذلك التردد المزعوم . راجع حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨ .

(٣) كان صلاح الدين يعد إعداداً لمثل ذلك الموقف ولعل فى إنقاذه مع عمه =

وعمه(١) ، فلو أنه تردد قليلا وترك زمام الأمر يفلت من يده لانهارت جهود عمه شيركوه فى فتح مصر ، وخطط والده أيوب فى حمـــايته والتستر عليه .

لهـذا كله أصبح حتميا على صلاح الدين أن يعمـل فى سرعة وحزم(٢) بعـد وفاة عمه شيركوه . وإلى ذلك الوقت يرجع تاريـخ وضع أسس سياسته التى سار عليها فيما بعد لتحقيق أغراضه ، بل لعـل أصول تلك السياسة ترجع إلى أيام شيركوه نفسه وملخصها على كل حال التقرب من جمهـور المصريين وكسب ولائهم وتأييدهم . ثم العمـل على إضعاف العاضـد ورجاله والتضييق عليهم(٣) ، وهـذا هو الذى عزم

= شيركوه فى الحملات النورية الثلاث على مصر دون غيره من شباب الأسرة الأيوبية . وفى مدح الشعراء له ، وفى تلك الهالة التى أحاطه بها بنو أيوب ما يدل على ذلك . راجع ما سبق .

(١) Stevenson p. 205 .

(٢) يقول ابن شداد فى هذا الصدد (سيرة صلاح الدين ص ٣٢ — ٣٣) إن صلاح الدين شكر نعمة الله عليه فتاب من الخمر وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بلباس الجد والاجتهاد وما عاد عنه ولا ازداد إلا جدا حتى توفاه الله رحمة . وفى هـذا ما يدل على شـدة حساسية صلاح الدين بمركزه ومسئولياته وعزمه على المضى فى تنفيذ سياسـة بنى أيوب إلى النهاية . راجع فى هذا المعنى أيضاً ابن أبى طى (الروضتين جـ ١ ص ١٧٣) .

(٣) فى هـذا المعنى يقول عبد المنعم الجيلانى من قصيدة طويلة يمدح فيها صلاح الدين :

ملك تقـلد سـلك الملك منتظما ... وقال للمال هـذا منك لى بدل
ففرق المال جمعا للقـلوب به ... وحسبه فيهـم إدراك ما سألوا
إن الملوك الذين امتـد أمرهم ... لم يخزنوا المال بل مهما حووا بذلوا =

صلاح الدين على التوسل به لتوطيد أقدامه فى مصر ، إذ وزع الاقطاعات على رجاله وأفراد أسرته وعينهم على الوظائف الهامة . ثم أنه اتخذ المال(١) وسيلة لإرضاء الأهالى ، فألغى تنفيذاً لتلك السياسة بعض المكوس وإزال كثيراً من المظالم وسامح الناس فى المتأخر عليهم من المال(٢) . كما تساهل مع الأقباط فى كثير من المناسبات . والقارىء لتاريخ أبى صالح الأرمنى يلحظ ذلك تماما ، فكثيراً ما أوصى صلاح الدين بالأساقفة والقسس خيرا وكثيرا ماسهل لهم أن يقيموا شعائر دينهم كما يريدون(٣) . يضاف إلى ذلك أن صلاح الدين شرع فى إنقاص إقطاعات رجال العاضد تمكينا لدولته الجديدة الناشئة وإضعافا للدولة الفاطمية ورجالها ومن الأدلة على ذلك أنه أقطع إقليم الفيوم لبعض أفراد أسرته مثل أخيه ورى ابن أيوب ومن بعده ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاد(٤) . الواضح من هذا أن صلاح الدين كان يهدف فى سياسته نحو الطبقات الشعبية فتخفيف الأعباء المالية ، وإلغاء بعض المظالم والمكوس وتمكين الطوائف الدينية من إقامة شعائر دينها ، كلها أعمال لها مضمونها فى إرضاء تلك الطبقات والواقع أن قوة الشعب ظهرت من قبل فى صورة جلية عند

= كذا السياسة فالأجناد لو عدوا　　بخل المليك وجاءت شدة خذلوا

راجع الروضتين ج ١ ص ١٦٤ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٣٢ .

(١) Lane - Poole, Saladin P. 151 ، حسن إبراهيم ، الفاطميون ص ٣٠٨ .

(٢) ابن أبى طى ، الروضتين ج ١ ص ١٧٤ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٥ .

(٣) تاريخ ابن صالح الأرمنى ص ٧ — ٩ .

(٤) نفس المرجع ص ٨٩ .

مجيء الحملة الصليبية الثالثة فى مصر ، إذ استطاع المصريون — وقتذاك — أن يحولوا بين عمورى الأول وبين دخول القاهرة ، وظلوا على مقاومته حتى حضر شيركوه(٦) وسيكون لتلك القوة الجديدة التى استطاع الأيوبيون استخدامها والإفادة منها أثر كبير فى نجاح سياستهم وتحقيق أهدافهم فى مصر .

على أن موقف صلاح الدين كان موقفا شاذا شائكا محوطا بكثير من المصاعب والعقبات ، إذ أصبح منذ توليته الوزارة يمثل جبهتين متعارضتين مختلفتين ، فهو نائب لنور الدين محمود السنى ووزير للعاضد الفاطمى . ومن هنا بات موقفه يملى عليه أن يقوم بما تتطلبه هاتان الجبهتان من واجبات ، وأن ينفذ ما يصدره إليه كل منهما من أوامر متعارضة متناقضة . حقيقة إنه كان باستطاعة صلاح الدين أن يتغاضى عن رغبات العاضد ورجاله وأن يقتصر على تنفيذ أوامر نور الدين . ولكن ذلك معناه أن يسيء صلاح الدين إلى العاضد ورجاله وأن يثير حزبه عليه ، فيعرض بذلك نفسه للخطر ، وإذن فقد أصبح على صلاح الدين أن يتبع خلال ذلك الموقف الشائك — سياسة ترضى نور الدين والعاضد معا وتضمن له فى الوقت نفسة مصالحه ومصالح أسرته .

وبتلك السياسة استطاع صلاح الدين أن يتغلب على جميع المشاكل الناشئة عن موقفه المتناقض . وليس مرجع ذلك إلى شخصية صلاح الدين وحسن تدبيره للأمور فقط ، بل يضاف إلى ذلك أيضا أنه كان رجلا محظوظا فى كثير من المواقف وأن أباه نجم الدين كان يمده دائما

(٦) انظر الفصل الثالث .

بالنصائح والإرشادات الدبلوماسية ، فضلا عن قيامه له بوظيفة الرقيب في بلاط نور الدين .

وكانت أولى المشاكل الحقيقية التي قابلها صلاح الدين أن الخليفة ورجاله شعروا بأنهم إزاء وزير من نوع جديد ، ومن ثم نشطت مؤامراتهم للقضاء عليه وفقا للتقاليد المتبعة في ذلك العهد الفاطمي المتأخر. والواقع أنه لم يكن من المنتظر أن يقف رجال القصر مكتوفي الأيدي وصلاح الدين يسلك سياسة من شأنها أن تهدم دولتهم تدريجيا . وقد رأس المتآمرين مؤتمن الخلافة نجاح كبير الخصيان السود ، وكان السبب المباشر لتلك المؤامرة أن صلاح الدين شرع ينقص إقطاعاتهم ويوزعها على رجاله(١) ، وأنه ضايق أهل القصر وشدد عليهم واستبد بأمور الدولة وأضعف جانب الخلافة(٢) . وكانت تلك المؤامرة الأولى ذات شعبتين إذ عقد المتآمرون مع الصليبيين اتفاقا مؤداه أن يقوموا من جانبهم بغزو مصر ، فإذا ما خرج إليهم صلاح الدين أشعلوا ضده نار الثورة(٣) ، وبذلك يوقعونه في موقف حرج ويتخلصون منه كما ظنوا إلى الأبد . وكان الصليبيون من ناحيتهم قد رحبوا بالمشاركة في تلك المؤامرة ، وإن أهمية مصر بالنسبة إليهم لم تكن لتغيب عن بالهم . ولم يكن فشل ذلك التسابق بين الفريقين في حملاتهم على مصر . قد وضع حدا لمطامعهم ، ولذا أسرعوا بقبول الاتفاق مع رجال المؤامرة السابقة

(١) إبراهيم الحنبلي ، شفاء القلوب (مخطوط) ص ١٨ . راجع أيضا أبي صالح الأرمني ص ٨٩ .

(٢) نص كلام المقريزي في الخطط ج ٣ ص ٢ .

(٣) المرجع السابق . انظر أيضا ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ٥٥ ،
Lane-Poole, Saladin P. 151

الذكر ، ومما زاد فى أهميـة بالنسبة إليهم ، أن الاسـكندرية ودمياط وغيرها من الموانى المصرية قدأصبحت مصدر خطر كبير على مواصلاتهم بأوربا ومراكب حجاجهم وذخائرهم(١) بعد أن أصبحت مصر والشام بيد رجل واحـد هو نور الدين(٢) . ولذلك فقد أصبح واجبا عليهم أن يبـذلوا ما يستطيعون من جهـد لإزالة ذلك الخطر(٣) وعلى ذلك فقدأسرع عمورى بالاتفاق مع الامبراطور البيزنطى الذىأمده بأسطول بحرى كبير .

ولـكن عين صـلاح الدين الساهرة لم يفتها ذلك التدبير فعـلم بالمؤامرة(٤) وراقب زعيمها نجاح مراقبة دقيقة ، ولـكى يتمكن منـه ظل يصابره حتى أمن ، وظن أن صلاح الدين قد نسى أمره ، فلما خرج ذات يوم من يونيو سنة ١١٦٩ (ذى القعدة سنة ٥٦٤ هـ) بعيـداً عن

---

(١) L.ne - Poole Haladin P. 103 .

(٢) يقول Stevenson (p. 196) إن الصليبيين لم يتأثروا عمليا بملك نور الدين لمصر لأن صلاح الدين اتبع سياسة من شأنها أن تخدم مصالحه الخاصة . وهذا صحيح ويفسره ما حدث بين الرجلين بعد ذلك من نزاع .

(٣) عبر عن ذلك ابن شداد تعبيراً حسناً فقال : (ص ٣٣) « لما علم الفرنج بما جرى من المسلمين وعسكرهم وما تم للسلطان (صلاح الدين) فى استقامة الأمر فى الديار المصرية خافوا أن يملك بلادهم ويخرب ديارهم » .

(٤) يقال إن تركمانيا كان يعبر البئر البيضاء فرأى مع إنسان ذى خلقان نعلين جديدين ليس فيهما أثر مشى فأنكرها وأتى بهما صلاح الدين فوجد بهما مكاتبة الفرنج . ولما فوجئ الرجل بذلك اعترف بالمؤامرة . راجع شفاء القلوب ص ١٨ ، والروضتين ج ١ ص ١٧٨ ، ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٥٥ . راجع أيضا المقريزى (السلوك ج ٢ ص ٤٤ حاشية ٦) حيث يرجع الدكتور زيادة إن البئر البيضاء قرية من كور الشرقية .

القصر والحرس الفاطمى أرصد لهصلاح الدين من قبض عليه وقتله(١) وقد حدث عقب مقتل نجاح ما هو منتظر ، إذ قام السودانيون وكانوا حوالى خمسين ألفاً كما تقول المراجع(٢) يريدون أن يثأروا لزعيمهم المقتول ، واتجهت تلك الجموع الغفيرة إلى دار الوزارة ـ حيث كان يسكن صلاح الدين ـ فتصدى لهم أخوه تورانشاه بن أيوب(٣) ، ودارت المعركة بين الفريقين فيما بين القصرين ، وبات صلاح الدين فى الواقع فى موقف حرج ، وأوشكت جهود بنى أيوب أن تنهار فى غمار تلك الثورة الجائحة ، ومما زاد موقف صلاح الدين حرجاً أن العاضد مال إلى تأييد الثوار ، وأخذ رجاله يرمون جيش صلاح الدين بالنشاب والحجارة من أعلى قصر الخليفة حتى عاقوه عن القتال ، وإزاء ذلك اضطر صلاح الدين إلى أن يأمر بحرق حى السودانيين المعروف بالمنصورية ، كما همّ تورانشاه بإحراق المنظرة التى كان يشرف منها العاضد على المعركة لولا أن صدر تصريح الخليفة يقول : أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة (تورانشاه) ويقول : « دونكم والعبيد الكلاب اخرجوهم من بلادكم » (٤) ، ففت ذلك فى عضد الثوار مما أدى إلى

(١) كان نجاح قد خرج إلى بستان له فى قليوب فأرسل إليه صلاح الدين من احتز رأسه وأتى به الحنبلى ، شفاء القلوب ص ١٨ ، ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ١٥٥ .

(٢) يقول المقريزى أنهم بلغوا هذا العدد بانضمام كثير من الأمراء والعامة إليهم . راجع الخطط جـ ٣ ص ٣ .

(٣) حضر تورانشاه إلى مصر فى بداية وزارة صلاح الدين . نفس المصدر ص ٥٩ .

(٤) نفس المصدر . ولعله خير مرجع عن تلك المعركة (الخطط جـ ٣ ص ٣) .

هزيمتهم وفرارهم إلى الجيزة ومنها إلى الصعيد حيث ظلوا شوكة فى جنب الدولة الأيوبية لعدة سنين .

على أن تلك الأزمة لم تنته باقصاء السودانيين وإبعادهم عن القاهرة ، إذ لم يلبث الصليبيون أن هاجموا دمياط فى نوفمبر سنة ١١٦٩ (صفر سنة ٥٦٥ ھ) .

واستعد صلاح الدين لتلك المعركة التى كانت من أخطر المعارك التى صادفها فى مصر ، والتى كانت ذات أثر فعال فى تاريخ قيام الدولة الأيوبية فيها ، فأسرع بارسال جيش إلى دمياط لملاقاة الصليبيين ، كما أسرع باخبار نور الدين وإيقافه على حقيقة الحال فى مصر(١) ، ثم لم يلبث هو أن خف بنفسه إلى ميدان المعركة ، وبينما صلاح الدين يحاول إجلاء تلك الحملة عن دمياط بعث إليه نور الدين بالعساكر من الشام يتلو بعضها بعضا ، ولم يكتف بذلك ، بل أخذ يهاجم بلاد الصليبيين فى فلسطين ليخفف الحصار عن دمياط ، وذلك فضلا عما أمده العاضد به من المال(٢) ، مما يدل على أن الخليفة الفاطمى قد تبرأ من المتآمرين ، وكانت نتيجة ذلك كله أن انتهى الحصار فى ديسمبر من نفس السنة باخفاق الصليبيين - كما هو معروف - دون أن يحققوا شيئاً من الأغراض التى جاءوا من أجلها(٣) .

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٥٧ .

(٢) أبو الفداء ، المختصر ص ٤٨ — ٤٩ ، الحنبلى ، شفاء القلوب ص ١٨ .
ابن شداد ص ٣٣ — ٣٤ ، ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٥٧ .

(٣) تفاصيل هذا الحصار مبسوطة فى Schlumberger Ch. IV .

وهكذا نجح صلاح الدين نجاحاً مزدوجاً وهو فى بداية حياته السياسية فى مصر ، فقضى على الثوار المصريين وشتت شملهم وأبعدهم عن العاصمة ، وهزم الأعداء الخارجين وأحبط تدبيرهم ومسعاهم ، وذلك فى الواقع شيء جديد بالنسبة للمعاصرين المصريين فى ذلك الوقت فان عقبة واحدة من تلك العقبات كانت كفيلة بأن تقضى على صلاح الدين لو أنه كان وزيراً من طراز الوزراء الذين شهدتهم الدولة الفاطمية فى أيامها الأخيرة ، وقد كان لذلك النجاح أثر هام فى تاريخه ، بل فى تاريخ الدولة الأيوبية نفسها ، إذ بات من الواضح أن باستطاعته أن يحمى الدولة من أعاصير الفتن الداخلية والخارجية على السواء ، وأن يمهد للمصريين الحياة المستقرة الهادئة التى يتوقون إليها بطبيعتهم . ولذلك أنس المصريون إلى صلاح الدين والتفوا حوله ، وقابلوا خطواته التالية - ومن بينها قطع الخطبة الفاطمية - بشيء من الرضا والاستسلام(١) ، أى أنهم نظروا إليه نظرتهم إلى رجل حازم لا يقدم على عمل إلا بعد أن يتخذ له أهبته ، ويسلك إليه الطريق الواضح المستقيم(٢) .

ولم تظهر عظمة صلاح الدين ورجاحة عقله فى القضاء على تلك الفتنة فقط ، وإنما ظهرت بصورة أوضح فى طريقة استغلاله لها ، ونجاحه فى تحويل نتائجها من ضرر ماحق إلى نفع مؤكد ، فانه لم يكتف بما وصل إليه من نصر ، بل يبدو أنه اتخذ من تآمر نجاح والصليبيين

---

(١) Lane-Poole, Saladin P. 107 .

(٢) للشاعر عمارة اليمنى قصيدة مدح فيها صلاح الدين فى هذه المناسبة ومنها :

فالناس فى أعمال مصر كأنما   عتقاؤكم من نازح وقريب

راجع الروضتين جـ ١ ص ١٨٢ .

تكأة لتحقيق مآربه فى ناحيتين مختلفتين ناحية نور الدين وناحية العاضد .

أما بالنسبة لنور الدين فقد أرسل صلاح الدين إليه عقب جلاء الصليبيين عن دمياط يطلب أهله والسبب الحقيق لذلك فيما يبدو هو إتمام الخطة الأيوبية الموضوعة للاستقلال بمصر(١) ، بينما كان السبب الذى تذرع به صلاح الدين لنور الدين هو أن يكون أهله عونا له على إدارة دفة الحكم فيها . وقد أجاب نور الدين ذلك الطلب ، فبدأ موقفه بذلك إزاء بنى أيوب يحتاج إلى شيء من التوضيح .

لقد سبق القول بأن نور الدين كره أن يكون صلاح الدين وزيراً فى مصر كما كره ذلك لشيركوه من قبله ، فلماذا إذا ساعده على دمياط ؟ ولماذا أجاب طلبه بإرسال أسرته إلى مصر ؟ والجواب على ذلك — فى الواقع — واضح ، فإن كره نور الدين لأن يكون بنو أيوب وزراء فى مصر الفاطمية ليس معناه أن يكون هو عونا للصليبيين عليهم ، أو أن يترك مصر فريسة سهلة فى أيدى الصليبيين ، ثم إن أغراضه من فتح مصر لم تتحقق كلها بعد ، إذ لايزال يطالب بإسقاط الخلافة الفاطمية وذلك عمل لايصلح له إلا صلاح الدين — كما أثبتت الحوادث التالية ويضاف إلى ذلك أنه إذا كان نور الدين قد رغب فى أن يضع حداً لمطامع

(١) نعرض هذا البحث فيما سبق لما عقده المعاصرون لصلاح الدين من المقارنة بينه وبين النبي يوسف عليه السلام وقد كان فى وصول أسرته إلى مصر الفصل الختامى لتلك القصة وفى ذلك يقول ابن شداد (ص ٣٤) « ثم أنفذ (صلاح الدين) فى طلب والده ليكمل السرور به ويتم الحبور وتجرى القصة مشاكلة لما جرى للنبي يوسف

بنى أيوب فى مصر ، فان ذلك يجب أن يكون على يديه لا على أيدى الصليبيين. أما عن موافقة نور الدين على سفر أيوب وبقية أسرته إلى مصر فمسألة فيها رأيان مختلفان ؛ رأى متواتر وهو أن نور الدين أرسلهم ليكونوا عونا لصلاح الدين على حكم مصر ، وهو رأى لا يستقيم مع مجريات الحوادث ، ولا يتفق مع كره نور الدين لوزارة الأيوبيين فى مصر الفاطمية ، ورأى آخر يذكره ابن أبى طى — ولعله الرأى الأرجح — وهو أن نور الدين أرسل أيوبا ليحث إبنه صلاح الدين على قطع خطبة العاضد (١) . وقد أيد ابن أبى طى رأيه بأن الخليفة العباسى المستنجد بالله أرسل إلى نورالدين يعاتبه على تأخير إقامة الدعوة له بمصر (٢) . وحمّل رسوله إليه رسالة فى ذلك ذكر ابن أبى طى جزءاً منها ، وفيها يقول الخليفة العباسى إن إقامة الخطبة له بمصر « أمر تجب المبادرة إليه لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة . قبل هجوم الموت وحضور الفوت ، لاسيما وإمام الوقت متطلع إلى ذلك بكليته ، وهو عنده من أهم أمنيته » (٣) . وفى هذا دليل على صحة هذا الرأى مما يميل بالباحث إلى الأخذ به ، وبخاصة لأنه يفسر موقف نور الدين ويلقى ضوءاً على ما فيه من تناقض ظاهرى .

وصفوة القول أن صلاح الدين استغل مؤامرة نجاح لمصلحته

(١) راجع الروضتين ج ١ ص ١٨٣ .

(٢) يذكر السيوطى أيضاً ان الخليفة العباسى أرسل إلى نورالدين يطالبه بالخطبة له بمصر . راجع حسن المحاضرة ج ٣ ص ١٩ .

(٣) الروضتين ج ١ ص ١٨٣ — ١٨٤ .

الخاصة فأرسل إليه نور الدين أسرته . ووصلت الأسرة الأيوبية إلى مصر رجالا ونساء فى فبراير سنة ١١٧٠ (جمادى الثانى سنة ٥٦٥ ﻫ) . ومما يدل على أن الأسرة الأيوبية جاءت إلى مصر لتستقر فيها أن أيوبا وزّع — قبل مجيئه إليها — أملاكه بالشام (١) ، وحضر كما يقول العماد الاصفهانى «بأهله وجماعته ، وسبده ولبده »(٢) . وأن كثيراً من التجار وغيرهم ممن كانت لهم صلة بصلاح الدين حضروا معه (٣) .

ولما وصل أيوب إلى مصر خرج العاضد للقائه عند باب الفتوح (٤) وذلك تقليد لم تجر به عادة الخلفاء الفاطميين من قبل ويدل على مقدار تحكم صلاح الدين فى العاضد ونفاذ أمره عنده . وتقرر المراجع العربية أن صلاح الدين رغب فى أن يتنازل عن الوزارة لأبيه وأن أباه رفض ذلك العرض (٥) . وهذا يوضح شخصية أيوب وزهده فى المظاهر ، ورغبته فى المضى فى فكرته ، وهى ضرورة متابعة صلاح الدين وتأييده ومعاونته حتى يتحقق قيام دولة أيوبية فى مصر .

أما الوظيفة التى اكتفى بها نجم الدين فهى أن يكون على بيت المال (٦) وهى أهم وظائف الدولة . وأما بقية أفراد الأسرة فقد أقطعهم صلاح الدين

---

(١) العماد الاصفهانى . راجع الروضتين جـ ١ ص ١٨٣ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) ابن الأثير ، الكامل جـ ١١ ص ١٥٨ .

(٤) ابن أبى طى (الروضتين جـ ١ ص ١٨٤) .

(٥) نفس المصدر ص ١٨٣ ، ابن شداد ص ٣٥ .

(٦) ابن شداد ص ٣٥ .

أملاك السودانيين الذين اشتركوا فى مؤامرة نجاح(١) . وهكذا استقر بنو أيوب فى مصر وبدأوا يخطون خطوتهم النهائية لتأسيس دولتهم فيها .

هذا هو مدى استغلال صلاح الدين لتلك المؤامرة بالنسبة لنور الدين أما بالنسبة للعاضد فقد ضعف شأنه بعد القضاء على السودانيين فلم يعد له بعدهم نصير قوى (٢) . وبالإضافة إلى هذا فإن صلاح الدين نصب على شئون القصر الفاطمى من قبله رجلا حازما قويا هو بهاء الدين قراقوش(٣) فخطا بذلك خطوة هامة فى الاستحواذ على العاضد والقضاء على نفوذه . وبدأ بعد ذلك يمهد للقضاء على الخلافة الفاطمية نفسها .

أما من ناحية الصليبيين فإن فشلهم فى دمياط كان نقطة فاصلة فى أدوار الحروب الصليبية إذ انصرف الصليبيون عن التدخل فى شئون مصر مؤقتا بعد أن اقتنعوا بعقم محاولاتهم عليها . وظلوا على تلك الحال حتى أواخر عهد الدولة الأيوبية ومن ناحية أخرى فان ذلك الفشل جعل صلاح الدين يبدو للمصريين كما بدا شارل مارتل للفرنجة بعد نصرته على المسلمين فى موقعة تور . ثم أن صلاح الدين تشجع بعد جلاء الصليبيين عن دمياط على أن يقوم بالغارات المتتابعة على أملاكهم لتأمين حدود مصر الشرقية وكانت أولى تلك الإغارات أنه هاجم غزة (٤) سنة ١١٧٠ وفى طريقه

---

(١) من بين تلك الاقطاعات ان صلاح الدين أقطع أباه ايوب الاسكندرية ودمياط والبحيرة وأقطع أخاه تورانشاه قوص وأسوان وعيذاب .
ابن ابى طى (الروضتين جـ ١ ص ١٨٤) .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب جـ ١ ص ١١٠ (مخطوط) .

(٣) هو بهاء الدين عبد الله الأسدى وأصله عبد رومى من عبيد شيركوه Ency. Isl. art, Karakush وله ترجمة فى ابن خلكان جـ ١ ص ٤٣٠ .

(٤) Lane — Poole, saladin P. 106.

إليها ضرب الحصار على حصن الداروم ، فاستنجد حاكمه بالملك عمورى . ولكن صلاح الدين ترك الحصن ليلا وانسل إلى غزة . ثم عاد منها دون أن يحاول الاشتباك بجيش الصليبيين فى حصن الداروم (١) . وفى ديسمبر من السنة نفسها أغار صلاح الدين على أيله — على رأس خليج العقبة — وكانت مفتاح الطريق إلى البحر الأحمر وقتذاك وطريق الحجاج المسلمين إلى الحجاز . ولكى يستعيد صلاح الدين هذا المركز الهام الذى انتزعه الصليبيون من مصر قبل ذلك بنى السفن فى القاهرة على أجزاء ثم نقلها على ظهور الإبل إلى البحر الأحمر(٢) . ومن هناك أخذ يهاجم الحصن براً وبحراً حتى سقط فى يده . وبذلك أصبح طريق المسلمين آمنا إلى الحجاز .

وإذن فقد نجح صلاح الدين فى التغلب على العقبة الأولى التى اعترضت سبيله فى مصر ، بل استغلها استغلالا تاما لمصلحته الخاصة . وخطا — متكئا عليها — بضع خطوات هامة فى سبيل تحقيق أغراضه وهى تأسيس الدولة الأيوبية فى مصر . على أن تلك العقبة لم تكن الأخيرة بين العقبات التى صادفت صلاح الدين .

ذلك لأن نور الدين لم يكن ليكتفى من مصر بأن يكون له نائب فيها ، بل أنه أراد أن يزيل منها الدولة الفاطمية ، وأن يرجع مصر إلى حظيرة الخلافة العباسية، ويريد أيضا أن يفيد من موقعها الجغرافى الممتاز

---

(١) Lane Poole, saladin P. 106.

(٢) العماد الروضتين ج ١ ص ١٩١ ، ابن الأثير الكامل ج ١ ص ١٦٤ ابن واصل مفرج الكروب ج ١ ص ٣١ .

ومن مواردها الطائلة فى حروبه مع الصليبيين . ولذلك أخذ نور الدين منذ ثبتت أقدام رجاله فى مصر يلح على صلاح الدين بقطع خطبة العاضد، وكتب إليه — كما يقول النويرى — يأمره بالقبض على الخليفة الفاطمى والخطابة للخليفة العباسى المستضىء بالله (١) — الذى جاء بعد المستنجد — ولكن صلاح الدين أراد من ذلك — كما يقول المؤرخ نفسه وكما يقول غيره — أن يتقوى بالعاضد على نور الدين إن هو أراد الدخول إلى مصر (٢) . إلا أن نور الدين لم يأخذ بوجهة نظر صلاح الدين وألزمه بذلك إلزاماً لا قسمة له فيه . كما يقول ابن خلكان (٣) .

على أن إزالة الخلافة الفاطمية كانت أيضا من رغبات صلاح الدين، ذلك لأنه إذا كان مقصد نور الدين أن يزيل الدولة الشيعية فان رغبة صلاح الدين كانت الاستقلال بمصر، ليكوّن لنفسه ولأسرته دولة فيها. وهذا لا يتأتى — بالضرورة — إلا إذا سقطت الدولة القائمة . وإذن فقد كان من صالح الرجلين أن تسقط الخلافة الفاطمية ، ولا خلاف بينهما فى ذلك فيما عدا أن صلاح الدين أراد أن يتخذ للأمر أهبته حتى لا يعصف ذلك العمل الجرىء بمصالحه ومصالح أسرته ، تلك المصالح التى كان نور الدين بطبيعته عازما على وضع حد لها فى الوقت المناسب . ولهذا اتخذ صلاح الدين الحيطة لنفسه ، فأخذ ينظر إلى المستقبل

---

(١) النويرى ، نهاية الأرب ج ٢٦ ص ١٠٣ (مخطوط) .

(٢) المرجع السابق ، وراجع أيضاً ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(٣) الوفيات ج ٢ ص ٣٨٣ ، ابن الأثير ج ١١ ص ١٦٥ . ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٤ ج ٥ .

نظرة كلها حكمة وسداد فلو أنه أطاع نور الدين وقطع خطبة العاضد منذ وصول أوامره إليه بذلك، لكان من المتوقع ألا يمر ذلك العمل بسلام ولكنه فضَّل أن يمَّهد لتلك الغاية تمهيداً بطيئاً مثمراً ، وأن يهيء عقلية الأهالى ويوجِّه استعدادهم لخطوته حتى إذا كان الوقت المناسب أقدم على ما يريد وقطع خطبة العاضد وخطب للخليفة العباسى فى هدوء .

وكان مما قام به صلاح الدين للتمهيد لتلك الخطوة أنه أسرع بالقبض على من يخشى شرهم من أنصار العاضد عقب مؤامرة نجاح، وأوهم العاضد أن مصلحته إنما هى فى القبض عليهم ، لأنهم يعصونه ولا يطيعون أوامره (١) . وبذلك أبعد صلاح الدين أعوان الدولة الفاطمية .

ثم إن صلاح الدين أخذ يقضى على كثير من مظاهر المذهب الشيعى فى البلاد فأزال من الأذان عبارة « حىّ على خير العمل محمد وعلى خير البشر » . وأمر أن يبدل بها كلام مجمل مثل « اللهم أصلح العاضد لدينك» ثم إنه خطا خطوة أخرى فأمر أن تذكر أسماء الخلفاء الراشدين فى الخطبة (٢) وكذلك اسم نور الدين بعد العاضد (٣) وهذه كلها خطوات بطيئة مثمرة فى نفس الوقت ولا بد أنها هيأت الأذهان شيئاً فشيئاً إلى قبول قطع اسم العاضد والخلافة الفاطمية من الخطبه .

وفى الوقت الذى أخذ فيه صلاح الدين يزيل تلك المظاهر الشيعية ، عمل على نشر مبادىء المذهب السنى تدريجيا. فأزال القضاء الشيعى من مصر

(١) ابن الفرات وتاريخ الدول والملوك ج ٧ ص ٦٧ (مخطوط) .

(٢) العينى : عقد الجمان ج ٢١ ص ٤٥٨ (مخطوط) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٣٢ (مخطوط) .

سنة ١١٧٠ (٥٥٦٦) وولى صدر الدين بن درباس الشافعى منصب قاضى القضاة بها (١) كما استناب رجالا من الشافعية فى القضـــاء بجميع الأعمال (٢). ولم يكتف صلاح الدين بذلك ، بل أحضر كبار العلماء من السنيين ، وأنشأ المدارس فى القاهرة والإسكندرية لتدريس المذاهب الأربعة، ومنها مدرسة للفقهاء الشافعية (٣) بجوار الجامع العتيق، وأخرى المالكية وهى التى عرفت باسم المدرسة القمحية (٤) . وكذلك اشترى المظفر عمر — ابن أخى صلاح الدين — منازل الغز بمصر وعمَّرها مدرسة للشافعية ، ووقف عليها حمام الذهب والروضة وغيرهما (٥) وكانت نتيجة هذا كله أن اختفت مذاهب الشيعة — كما يقول المقريزى (٦) — والإسماعيلية والإمامية من نفوس المصريين ، ثم قضى صلاح الدين على مجالس الدعوة وكانت من أقوى الوسائل فى إذاعة المذهب الشيعى ونشره بين الناس .

ومن الواضح أن نجاح صلاح الدين فى تلك الخطوات معناه فى

---

(١) الحنبلى ، شفاء القلوب ص ١٨ ، العينى عقد الجمان ج ٢١ ص ٤٧٢ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٣ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ١١ ص ١٦٤ .

(٣) يقول ابن الأثير (المرجع السابق) إنه كان بمصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها من يراد حبسه ، فهدمها صلاح وبنى فيها مدرسة للشافعية كما بنى بدار العدل مدرسة للشافعية أيضاً .

(٤) المقريزى ، الخطط ج ٤ ص ١٩٢ ؛ السيوطى ، حسن المحـاضرة ج ٢ ص ١٤٠ .

(٥) الحنبلى ، شفاء القلوب ص ١٨ ، ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٦٤ .

(٦) ابن واصل ، مفرج الكروب ؛ ج ١ ص ١٩٦ ، الحنبلى ، شفـاء القلوب ص ١٨ المقريزى الخطط ج ٢ ص ٢٤٣ .

الواقع القضاء على الدولة الفاطمية ، تلك الدولة التى لم يبق لها إلا أن يذكر اسم خليفتها فى الخطبة . أما ما يؤيد الدعوة نفسها ويشيع وجودها بين الناس ، فقد قضى عليه صلاح الدين . أى أنه نجح فى القضاء عليها من الناحيتين النظرية والعملية ، وهذا ما يميل بالباحث إلى الاعتقاد ، بأنه لم يكن فى الأمر مؤامرة لقطع اسم العاضد من الخطبة ، إذ الواضح مما سبق أن الخلافة الفاطمية أصبحت إسماً ليس له معنى عملى . فلم يكن فى قطع الخطبة بعد ذلك ما يعتبر عملا فجائيا بالنسبة لعقائد الناس أو بالنسبة لما ألفوه ، إذ تعوّدوا — منذ جاء صلاح الدين — ألا يسمعوا اسم العاضد وحده . كما أخذت رسوم المذهب الشيعى وزخارفه تتضاءل أمامهم وتضمحل شيئاً فشيئاً ، فسهل عليهم بعد ذلك أن يسمعوا اسم الخليفة العباسى ويرضوا بقطع اسم العاضد . وهذا هو التفسير المعقول لما هو معروف من عدم قيام أحد للاحتجاج على ماقام به صلاح الدين من قطع اسم الخليفة من الخطبة كما سيلى .

ثم إنه يجب ألا يغيب عن الذهن أن المذهب الشيعى لم يكن مذهبا أصيلا فى مصر ، وأن المصريين أنفسهم لم يكونوا على استعداد للدفاع عنه إذ لم يكن لهم دخل فى الحكم أو فى الإدارة ، وكانت تلك الأعمال من اختصاص طائفة معينة. أما الشعب فلم يكن يريد إلا أن يمضى فى عمله هادئا لا يعكر صفوه ما طغى على الدولة فى أيامها الأخيرة من فوضى وانحلال .

وعلى كل حال فقد انتظر صلاح الدين — بعد أن أطمأن إلى ترتيبه المثمر — حتى تسنح الفرصه المناسبة ليضرب ضربته القاضية وسنحت

تلك الفرصة أخيرا حين مرض العاضد (١) واحتجب فى قصره ويئس المتصلون به من شفائه وكان مرضه قد بدأ من أواخر أغسطس سنة ١١٧١ (ذى الحجة سنة ٥٥٦ هـ) وبعد ذلك بأيام جلس العاضد فى قصره فشوهد وهو على ماذاع بين الناس من ضعف القوى وتخاذل الأعضاء حتى أمسك طبيبه ابن السديد عن الحضور إليه وامتنع عن مداواته (٢) أى أن صلاح الدين أقدم على ذلك العمل بعدما رجح عنده أن الموت أقرب إلى العاضد من الحياة . وهذا مبالغة منه فى الحذر والاحتياط .

ومع ذلك كله، فان صلاح الدين لم يشأ أن يتعرض للأمر بنفسه. وإنما عهد به إلى أبيه أيوب حتى إذا كانت هناك معارضة اعتذر بأنه لا يعرف ماحدث (٣) . وفعلا نزل نجم الدين أيوب فى جماعة من أصحابه إلى الجامع فى الجمعة الأولى من المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١٠ سبتمبر سنة ١١٧١) وأمر باحضار خطيب الجامع اليه فهدده إن هو خطب للعاضد، وأمره أن يخطب للمستضىء العباسى . فلما صعد الخطيب المنبر ووصل فى خطبته إلى ذكر العاضد لم يذكر أحدا ، ولكنه دعا للأئمة المهديين وللملك الناصر صلاح الدين واعتذر بعدئذ بانه لم يتذكر اسم المستضىء ، ووعد أن يفعل ذلك فى الجمعة التالية (٤) . ولكن العاضد لم يمتد أجله إلى تلك

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٦٥ .

(٢) أبوا المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥٧ ، الحنبلى شفاء القلوب ص ١٩ العينى ، عقد الجمان ج ٢١ ص ٤٨٠ .

(٤) هذا هو رأى ابن أبى طى (المرجع السابق) ويذهب ابن الأثير (الكامل ج ١١ ص ١٦٥) إلى أن الخطيب فى تلك الجمعة كان فقيها أعجمياً هو الخبوشانى ويدعى بالأمير العالم (ابن خلدون ، العبر ج ٤ ص ١٨ ويبدوا أن ابن أبى طى =

الجمعة ، إذ مات بعد ذلك بثلاثة أيام . ويقال إنه مات هماً وكمداً على قطع اسمه من الخطبة (١) . فلما لم يستنكر الناس ماحدث ولم يبدو منهم شيء من الاعتراض عليه أمر صلاح الدين أن تقطع خطبة العاضد من جميع المساجد فتم له ما أراد . وتم الانقلاب الذى يرجوه نور الدين معه وسقطت الدولة الفاطمية منذ ذلك اليوم سقوطا صامتا بعد قيامها فى مصر قرنين ونصف قرن من الزمان .

وكان لسقوط الخلافة الفاطمية فى مصر هزة فرح بالغة عمّت أوساط المذهب السنى فى الشرق الأدنى كله ، وسارت البشائر بذلك الحادث الهام ، فكتب العماد الاصفهانى بشارة تقرأ فى سائر البلاد الاسلامية وفى كل قرية ومدينة حتى يصل حاملها إلى بغداد(٢). وبشارة ثانية تقرأ بحضرة المستضىء على يد شهاب الدين ابن ابى عصرون (٣) . ولما وصلت البشائر إلى المستضىء بعث بخلعه إلى نور الدين بالشام وصلاح الدين بمصر . ومن بين تلك الخلع سيفان لنور الدين أحدهما قلده به المستضىء للشام والثانى لمصر على أن يكون صلاح الدين نائبه فيها (٤) . ثم قرر صلاح

= هو أوضح المراجع ، لأنه لو دعى للمستضىء فى تلك الجمعة والعاضد على قيد الحياة — كما يذهب ابن الأثير وابن خلدون — لكان من المحتمل ألا تمر المسألة بسلام . أى أن المعقول أن الدعوة ظلت مبهمة والعاضد على قيد الحياة . فلما توفى فى الجمعة التالية عمم قطع اسمه والخطبة للمستضىء فى جميع المساجد واجع الروضتين ج ١ ص ١٩٦ ابن الأثير ج ١١ ص ١٦٥ ، ابن خلدون المعبر ج ٤ ص ١٨ .

(١) ابن أبى طى (الروضتين ج ١ ص ١٩٦) .

(٢) المقريزى ، السلوك ج ١ ص ٤٤ ، أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٣ ونص تلك البشارة وارد فى أبى شامة بالروضتين ج ١ ص ١٩٧ — ١٩٨ .

(٣) المقريزى السلوك ج ١ ص ٤٤ . أبو المحاسن . النجوم ج ١ ص ٦٣ .

(٤) أبو المحاسن ، النجوم ج ٦ ص ٦٤ .

الدين أن تضرب السكة باسم المستضىء وباسم نور الدين فنقش اسم كل منهما فى وجه (١) كما أمر بازالة المنـاطق الفضية بمحاريب جوامع القاهرة ، تلك المنـاطق التى كانت تحوى أسماء الخلفاء الفاطميين (٢).

ثم بلغ الانقلاب مداه فنصبت الأعلام السود على منابر الجوامع المصرية ولبس الخطباء الثياب السوداء أيضا تلك التى أرسلت خصيصا من بغداد (٣) وأذيع فى الناس ألا يتأخر أحد عن صلاة الجمعة ، ومن عثر عليه عومل بالحبس والتقييد واللوم والتفنيد ، كما يقول المقريزى(٤) وعلى تلك الصورة عادت مصر مرة أخرى إلى حظيرة الدولة العباسية - أسميا بالطبع - أما من الناحية العملية فقد كانت تلك الخطوة من أهم الخطوات التى خطاها صلاح الدين لتحقيق استقلاله بمصر وتكوين دولة فيها .

والظاهر أن سقوط الخلافة الفاطمية لم يحدث اضطرابا ملحوظا فى أوساط المذهب الاسماعيلى ، فان رجال هذا المذهب انقسموا على أنفسهم وأصبحوا جماعات متنافرة متنافسة ، فالطيبية كانوا يرجون زوالها والنزارية لم يكونوا أقل رغبة منهم فى ذلك (٥) ومما لاشك فيه أن تلك الانقسامات المذهبية كانت من أهم العوامل فى نجاح صلاح الدين .

---

(١) المقريزى ، السلوك ج ١ ص ٤٥ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) نفس المصدر .

(٤) نفس المصدر .

(٥) راجع الفصل الأول .

ولعله قد وضح الآن أن صلاح الدين أصبح القوه الكبرى فى مصر يعاونه أبوه وأفراد أسرته فى سياسته وأهدافه . على أنه لم يشأ أن يظهر بمظهر المغتبط بمأساة الفاطميين بل كانت تصرفاته كلها بعد وفاة العاضد سديدة حاسمة،إذ شيّع جنازته وأقام مأتمه ، ثم أمر بعد ذلك بخزائن القصر ففتحت ووزع ما فيها على أتباعه وأنصاره ولم ينس أن يرسل منها إلى نور الدين(١) . غير أنه عزم على القضاء على تعاليم الشيعة فى مصر القضاء الأخير فأمر القاضى الفاضل بفتح خزائن الكتب الفاطمية(٢) وأطلق له حرية التصرف فيها ، فاحتفظ القاضى الفاضل بالملائم منها وأحرق الباقى . . وأما آل العاضد وأبناؤه وأقاربه فقد أخرجهم صلاح الدين من القصر وأودعهم داراً فسيحة تحت إشراف بهاء الدين قراقوش وحال بينهم وبين الاختلاط بعضهم بالبعض الآخر(٣) . أما هو نفسه فقد ظل فى دار الوزارة ولم ينتقل إلى قصر الخلافة حتى لا يثير بمسلكه شيئاً من الظنون .

وهكذا خطى صلاح الدين تلك الخطوه أيضا وهو متمتع برضى نور الدين — ولو ظاهريا — وظلت العلاقات بين الرجلين طيبة فيما يبدو للمعاصرين حتى ذلك الوقت لسبب واضح وهو أن الغاية التى يسعيان إليها كانت واحدة وهى إسقاط الخلافة . ولعل قيام صلاح الدين بتلك الخطوة قد أزال من نفس نور الدين بعض الشك . ولكن صلاح الدين كانت له

(١) الروضتين ج ١ ص ١٨٣ .

(٢) السيوطى حسن المحاضرة ج٢ ص ٢٥ .

(٣) ابن الأثير . الكامل ج ١١ ص ١٦٥ ، ابن خلكان الوفيات ج ٢ ص ٣٨٣ ابن واصل ؛ مفرج الكروب ج ١ ص ٣٢ .

غاية أخرى أبعد وأعمق ، وأصبح عليه من بعد ذلك أن يمضى قدما لتحقيقها ، ولما كان هذا التحقيق لا بد أن يكون على حساب نور الدين فقد بدأ التنافر يظهر بينهما حتى أدى إلى الوحشة التى يحكى عنها المؤرخون .

ذلك لأن نور الدين أصبح من بعد ذلك وجها لوجه أمام نور الدين. لقد نال نور الدين من مصر كثيراً مما كان يبتغيه فأصبحت — فى نظره على الأقل — ملكا له ، يحكمها نائب من قِبَله وأكدّ ذلك الخليفة العباسى المستضىء — ولعله فعل ذلك بناء على رغبة نور الدين — عند ما بعث إليه بسيفين ، أحدهما قلده إياه للشام والثانى لمصر (١) . ثم أن نور الدين لم يعد يخشى أن يملكها الصليبيون — كما كان الحال من قبل — بل أصبح فى استطاعته هو أن يهاجمهم من الشمال والشرق والجنوب وأن يحصرهم فى مواقعهم الساحلية . أما الخلافة الفاطمية فقد سقطت ولم يعد فى مصر بعد ذلك من المشاكل ما ينتظر الحل . هكذا ظن نور الدين فتوقع أن يبدأ صلاح الدين فى مساعدته وفى جهاده ضد الصليبيين (٢). وانتظر ثمرة ما أنفق فى سبيل مصر وما بذل من مال منذ استنجد به شاور لتسع سنوات خلت ، ولكن الحوادث التالية سارت فى طريق غير الذى رسمه نور الدين إذ كانت لصلاح الدين وأسرته أطماع فى مصر عليه أن يحققها ولو أدى ذلك إلى الوحشة بينهما .

لقد أراد صلاح الدين أن يُرضى نور الدين فأرسل إليه — بعد استيلائه على القصور الفاطمية — كثيراً من الهدايا والتحف فما كان من

---

(١) انظر ما سبق ص ١٧٨

(٢) Stevenson p. 199.

نور الدين إلا أن قال : « ما كانت بنا حاجة إلى المال ، ولا نسد به خلة الإقلال فهو يعلم أننا ما أنفقنا الذهب فى ملك مصر ، وبنا إلى الذهب فقر ، وما لهذا المحمول فى مقابلة ما وجدنا به قدراً » ثم تمثل بقول تمام فى هذا المعنى (١) .

ولقد صدق نور الدين أنه لم يكن فى حاجة إلى المال وحده بل إنه كان فى حاجة إلى صلاح الدين نفسه وإلى رجاله ليستعين بهم فى جهاده ضد الصليبيين . حقيقة إنه أرسل إلى نور الدين مما وجد فى قصور الفاطميين وسك باسمه العملة وخطب له على المنابر ، ولكن صلاح الدين كان - فى الوقت نفسه — الحاكم بأمره فى مصر ، فلديه جيش قوى على رأسه إخوته(٢) ، وأبناء اخوته . وكان نور الدين يعلم ذلك بالضبط، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً ، لأنه مشغول بطبيعة موقفه بجهاد الصليبيين ومشاكل سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى وغيرهم من حكام الجزيرة ولذلك فلم يجد الفرصة الملائمة للتفرغ لصلاح الدين (٣) .

أما صلاح الدين فإنه لم ينطلق بكليته إلى حرب الصليبيين — كما كان ينتظر نور الدين — بل راح يوطد أقدامه فى الملحقات الجغرافية الطبيعية لمصر . وبدأ بأقليم برقة . وعقد لذلك مجلسا بالإسكندرية حضره أبوه أيوب وخاله الحارمى وابن أخيه تقى الدين عمر (٤) وتقرر فى ذلك المجلس أن يغزو تقى الدين عمر ذلك الأقليم . وجهزت الحمله فعلا وتم الفتح فى منتصف

(١) لم ينفق الذهب المربى بكثرته   على الحصا وبه فقر الى الذهب
راجع مفرج الكروب ص ٤٠ والروضتين جـ ١ ص ٢٠٦

(٢) لصلاح الدين خمسة اخوته وأكبر الجميع شمس الدولة تورانشاه ثم

(٣) Lane-Poole, p. 120

(٤) راجع المقريزى السلوك جـ ١ ص ٤٨

عام ١١٧١ م (٥٦٧ هـ) ثم أخذ صلاح الدين من بعد ذلك يتابع تأمين حدود مصر من جهة الشرق . وكان فى اتجاه صلاح الدين ذلك الاتجاه بداية الوحشة العلنية بينه وبين نور الدين ذلك لأن صلاح الدين سار فى أواخر ذلك العام إلى حصن الشوبك بفلسطين وحاصره . ليزيل تلك العقبة الكئود فى سبيل القدوم إلى مصر أو الخروج منها (١) وأوشك صلاح الدين أن يفتح ذلك الحصن (٢) . فلما علم بذلك نور الدين أراد أن يساعده فتوجّه إليه من دمشق . ولكن أتباع صلاح الدين خوّفوه من ذلك اللقاء (٣) . فرحل من الحصن وأرسل إلى نور الدين يعتذر إليه بأن الموقف فى مصر يستدعى رجوعه . فشق ذلك على نور الدين، وعزم على الدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين منها (٤) .

على أن الناظر فى أحوال مصر الداخلية فى تلك الفترة لا يجد مبررا لاعتذار صلاح الدين إذ لم يحـدث وقتذاك شىء يستدعى رجوعه من غزوته البته ، مما يدل على صحة ما تواتر بين المؤرخين من أن صلاح الدين لم يشأ أن يقابل نور الدين خوفا من أن يقبض عليه . ويبدو أن صلاح الدين قد أحس بأن العلاقة بينه وبين نور الدين أخذت تتطور

(١) وانما بدأ بها (بالشوبك والكرك) لأنها كانت أقرب اليه فى الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية وكان لايمكن أن تصل قافلة حتى يخرج (صلاح الدين) هو بنفسه يعبرها بلاد العدو ، فاراد توسيع الطريق وتسهيلة لتتصل البلاد بعضها ببعض وتسهل على السابلة ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٢٦

راجع أيضا المقريزى السلوك ج ١ ص ٥٠

(٢) ابن الاثير الكامل ج ١ ص ١٦٦ ، ابن خلدون ، العبر ج ص ٣٥٠

(٣) ابن واصل مفرج الكروب (مخطوط) ص ٣٨ — ٣٩

(٤) نفس المرجعين السابقين

تطوراً خطيرا . فجمع من أجل ذلك — كعادته عندما تتحرج الأمور — أسرته ، وفيهم والده أيوب وخاله الحارمى وأخبرهم بما ذاع عن عزم نور الدين على قصد مصر . فقام أحد أفراد الأسرة الأيوبية وهو تقى الدين عمر واقترح قتال نور الدين إن هو قصد مصر . ووافق تقى الدين كثير من الحاضرين ، إلا أن نجم الدين لم يوافق على ذلك الرأى ، ونهر ابنه وحفيده ، وأعلن على الملأ الحاضر خضوعهم التام لنور الدين (١) . وانفضّ المجلس عند رأى أيوب . وكانت النتيجة أن كتب كثيرون ممن حضروا الاجتماع إلى نور الدين بما حدث — وذلك نفس ما توقعه أيوب — فانخدع نور الدين بما سمع ، وعدل مؤقتاً عن قصد مصر . فلما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين لامه على إعلان رأيه ، وأفهمه أن بنى أيوب على استعداد لمقاتلة نور الدين — حتى الرمق الأخير — إن هو قصدهم بسوء . ثم ختم كلامه بقوله « والأيام تندرج والله عز وجل — كل يوم هو فى شأن » ولا غرابة فى أن يسلك أيوب ذلك المسلك الماكر ، فله فى مثل ذلك الموقف رأى مشابه عندما مرض نور الدين ذات مرة وأراد شيركوه — منتهزاً فرصة ذلك المرض — أن يعلن نيات الأسرة الأيوبية لولا أن ردته حكمة أيوب وبعد نظره .

وفى هذا المحضر العائلى الأيوبى الذى تحدثت عنه جميع المراجع (٢)

---

(١) أضاف ابن الأثير (الكامل جـ ١١ ص ١٦٧) أن أيوبا اقترح أثناء الاجتماع أن يكتب صلاح الدين الى نور الدين كتابا يقول فيه « بلغنى أنك تريد الحركة لأجل البلاد . فأى حاجة الى هذا ؟ يرسل المولى (نور الدين) حاجبا يضع فى رقبتى منديلا ويأخذنى اليك وما ههنا من يمتنع .

(٢) انظر المقريزى ، السلوك جـ ١ ص ٤٩ ، ابراهيم الحنبلى ، شفاء القلوب ص ٢١ ابن خلدون العبر جـ ٥ ص ٢٥١ ، ابن الأثر الكامل جـ ١١ ص ١٦٧ ابن واصل مفرج الكروب جـ ١ ٣٨١

التى تعالج موضوع هذا البحث دليل واضح على نوايا الأيوبيين ورغبتهم فى مصر ، وفيه أيضا ما يلقى ضوءا على شخصية أيوب وعمقه ودهائه وأياديه البيضاء فى تأسيس الدولة الأيوبية وأهمية وجوده بجانب ابنه صلاح الدين . على أن صلاح الدين لم يطمئن — كما يبدو — إلى عدول نور الدين عن قصد مصر ، فأراد أن يتخذ الحيطة لنفسه ، ولذلك فكّر الأيوبيون فى أن يضعوا أيديهم على مكان يلجأون إليه أن قصدهم نور الدين فى مصر واضطرهم إلى الخروج منها (١) . واستقر الرأى على غزو بلاد النوبة . وجُهِّزت لذلك حملة كبيرة بقيادة شمس الدولة تورانشاه . وسار تورانشاه إلى أسوان فى أواخر سنة ١١٧٢ (جمادى الأولى سنة ٥٦٨ هـ) ومنها إلى بلاد النوبة حتى استولى على أبريم ثم عاد إلى مصر (٢) بعد أن وجد أن تلك البلاد لا تصلح للغرض الذى أرسل إليها من أجله (٣) .

وقد تذرع صلاح الدين بأن الغرض من تلك الحملة إنما هو القضاء على بقية السودانيين الذين فروا إلى تلك الأصقاع عقب هزيمتهم الماضية ، وهذا كله ليخفى غرضه الحقيقى منها (٤) ، إذ المعروف أن السودانيين

---

(١) راجع ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٧٣

(٢) اقطع تورانشاه بلاد النوبة لأحد رجاله وهو ابراهيم الكردى وارسل معه رسولا يكشف خبرها فسار ذلك الرسول حتى دنقلة وعاد يقول «وجدت بلادا ضيقة ليس بها من الزرع سوى الذرة ونخل صغير منه أدامهم» ، وهذة هى حالة بلاد النوبة ، السلوك ج ١ ص ٥١

(٣) يقول المقريزى (نفس المرجع) أن نور الدين عظم همه فى تلك السنة (سنة ٥٦٨ هـ) بأمر مصر وأخذه من استيلاء صلاح الدين عليها المقيم المقعد وأكثر من مراسلته بحمل الأموال .

(٤) لم يذكر ابن الأثير وهو أدق مرجع فى هذا الموضوع شيئاً عن السودانيين

لم تقم لها قائمة إلا بعد أن جمعهم حوله أحد المصريين من أبناء الصعيد وهو كنز الدولة فيما بعد .

ثم حدث بعد ذلك أن صدر الأمر من نور الدين إلى صلاح الدين في بداية سنة ١١٧٣ (جمادى الأولى سنة ٥٦٨ هـ) بغزو حصن الكرك ، وكانا قد اتفقا من قبل على ذلك ، بعد أن أعتذر صلاح الدين عما حدث في الغزوة الماضية وكانت الخطة الموضوعة أن يخرج صلاح الدين من مصر ونور الدين من دمشق فأيهما سبق إلى الحصن انتظر صاحبه فخرج صلاح الدين من مصر في مايو سنة ١١٧٣ (شوال سنة ٥٦٨) وحاصر الحصن فعلا ولكنه رجع عنه عندما علم بقرب وصول نور الدين . وكان عذره تلك المرة أنه سمع بمرض والده ثم أرسل صلاح الدين الفقيه عيسى الهكاري يعتذر إلى نور الدين بهذا العذر وأرسل معه كثيرا من الهدايا الثمينة . فزادت تلك الحادثة من وحشة نور الدين وغضبه على صلاح الدين (١) .

ولما عاد صلاح الدين إلى مصر وجد أن أباه أيوبا قد توفى ، ولكن

= وخروجهم على صلاح الدين . إنما ذكر السبب صريحا فقال أن الايوبيين عرفوا نوايا نور الدين نحوهم فاستقر رأيهم على فتح بلاد النوبة ليلجأوا اليها أن هو قصدهم وهزمهم .

الكامل ج ١١ ص ١٧٣

(١) يقول بن الأثير (الكامل ج ١١ ص ١٧٦) أن نور الدين غضب لعودة صلاح الدين وأن كان يعرف تماماً الغرض من تلك العودة إلا أنه لم يظهر للرسول شيئاً من ذلك بل قال له حفظ مصر أهم عندنا من غيرها وفي هذا دليل على أن نور الدين تأكد من نوايا الأيوبيين ولكنه آثر أن يتغاضى عن سلوكهم حتى تتساح له الفرصة المناسبة التي يستطيع فيها أن ينقض عليهم وأن يخرجهم من مصر .

الوفاة لم تكن نتيجة مرض كما ادعى . وأنما سببها أن أيوبا ركب فرسا فنفرت به نفرةً أسقطته على الأرض(١) وبقى بعد تلك السقطة أياماً ثم توفى (٢) فى ٩ أغسطس سنة ١١٧٣ (٢٧ ذى الحجة سنة ٥٦٨ ﻫ) . وبذلك انتهت حياة ذلك الرجل الذى يعتبر بحق العقلية المدبرة فيما نالته الأسرة الأيوبية من نجاح وبذلك أيضاً أصبح على صلاح الدين أن يقابل وحده ما يحيط به من مشاكل وعقبات

وإذن فقد أصبحت الوحشة بين الرجلين حقيقة واضحة لا شك فيها وبات منتظراً أن يلجأ نور الدين إلى القوة فى إخراج صلاح الدين من مصر أورده إلى الطاعة والخضوع . لولا أن المشاكل التى واجهها فى ذلك الوقت — ومنها نزاعه مع قليج أرسلان سلطان السلاجقة الروم ووفاة أخيه قطب الدين مودود وقائده مجد الدين ابن الداية (٣) — قد اضطرته إلى الانتظار حتى تسنح الفرصة الملائمة .

أما صلاح الدين فلم يقف مكتوف اليدين . بل فكر فى مكان آخر يلجأ إليه أن هاجمه نور الدين هذه المرة . ووقع الاختيار على بلاد اليمن — بعد أن وضح لديه أن بلاد النوبة لا تصلح لذلك — والأسباب التى تذكرها المراجع العربية عن تلك الحملة هى أن تورانشاه — أخا صلاح الدين وقائد الحملة — لم يكن أقطاعه بمصر يقوم بنفقته (٤). وأن عمارة اليمنى

---

(١) راجع ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٧٦ ، ابن شداد ص ٤٦ ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٧ ، ٦٨ وغيرها .

(٢) دفن أيوب أولا مع أخيه شيركوه ثم نقلت جثتاهما معاً بعد ذلك إلى الحجاز المقريزى السلوك ج ١ ص ٥١ .

(٣) راجع ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٥٩ ، ١٦٥ .

(٤) ابن أبى طى الروضتين ج ١ ص ٢١٦ .

وكانت ثقته به قد توثقت ظلّ يغريه بفتحها وبخيراتها حتى اقتنع (١) وجرّد حملة عليها بعد أن استأذن أخاه صلاح الدين الذى استأذن بدوره نور الدين . أما عن السبب الأول فلا يحتاج تفنيده إلى عناء كبير إذ ليس من المعقول أن ينشط تورانشاه لفتح هذا الإقليم البعيد لمجرد أن إيراده فى مصر لا يكفيه . وكان من السهل عليه أن يطلب زيادة إقطاعه وبخاصة وأن صلاح الدين لم يكن ضنيناً على أسرته بشىء فى تلك الناحية . أما عن الثانى وهو إغراء عمارة له ليمهد سبيل إبعاد جزء كبير من الجيش ليثور المتآمرون على صلاح الدين ويوقعوا به الهزيمة . فشىء له نصيبه من الصحة ولكنه ليس السبب الأساسى لفتح بلاد اليمن على كل حال (٢) .

أما السبب الحقيقى لهذا الفتح فهو أن صلاح الدين كان يريد أن يطمئن كما سبق القول — إلى مكان يأوى إليه إذا هاجمه نور الدين وغلبه على أمره واضطره إلى الخروج منها (٣) . ولكنه تذرع أمام نور الدين

---

(١) الأبيات الشعرية التى قالها كثيرة نكتفى منها ما يأتى :—

فاخلق لنفسك ملكا لا تضاف به ... إلى سواك وأور النار فى العلم

وتخلق ملكا لا يميل بفخره ... على أحد إلا على عزمك العلى

ومنها قالوا إلى اليمن الميمون رحلته ... فقلت ما دونه شىء سوى السفر

سير يسر بنى الدنيا وطيب الثنا ... وطول عمر كذا يحكى عن الخضر

أنظر الروضتين ج ١ ص ٢٨٧ المقريزى السلوك ج ١ ص ٥٢ .

(٢) يقول ابن أبى طى أن شريفاً من أهل اليمن يسمى هاشم بن غانم كتب إلى عمارة يبلغه استعداده بمساعدة الحملة المصرية وذلك لأن ابن المهدى اعتدى على ذلك الشريف الذى أراد أن ينتقم لنفسه . وعلى كل فقد يكون ذلك عاملا من عوامل نجاح الحملة . راجع الروضتين ج ١ ص ٢١ .

(٣) يقول ابراهيم الحنبلى (شفاء القلوب) ص ١١ السبب فى ذلك « فتح اليمن » أن صلاح الدين كان يخشى أن يخرجه نور الدين من مصر فأراد أن يحصل بلداً يلجأ

بأسباب دينيه هى إجلاء المهدى الخارجى عن زبيد وطرد بنى كرم الشيعيين عن عدن (١) فأذن له نور الدين وهناك سبب آخر هو أن بلاد اليمن كانت تعتبر مكملة لمصر فى ذلك العهد إذ الواضح أن صلاح الدين حاول بعد أن استقر فى مصر أن يفتح ملحقاتها ويؤمن حدودها ويؤيد ذلك حملاته الحربية على الشوبك والكرك وأيله وبرقه والنوبة تلك الحملات التى سبق الكلام عليها .

والخلاصة أن صلاح الدين أرسل أخاه تورانشاه لفتح اليمن (٢) ؛ فسار ذلك القائد الأيوبى فى أسطول بحرى وجيش برى وخرج وهو فى طريقة على الحجاز زائراً ثم استمر فى طريقه إلى اليمن حيث لم يجد

= إليه عند الخوف فلم تعجبه النوبة فسار إلى اليمن بعد أن استئذن نورالدين . راجع فى ذلك أيضا ابن الأثير الكامل ج ١١ ص١١٧ ، ابن واصل مفرج الكروب ص٤٢ ويذهب ابن شداد إلى أن صلاح الدين رأى قوته العسكرية وعدد اخوته وقوة بأسهم وبلغه خبر ابن المهدى فأراد أن يستغل قوته فى اخضاع ذلك الخارجى « راجع سيرة صلاح الدين ص ٣٦ » .

على أنه لا ينتظر أن يذكر ابن شداد أكثر من هذا وهو الذى يلاحظ عليه شدة التحفظ فى التعرض للعلاقة بين نور الدين وصلاح الدين .

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة تورانشاه .

(٢) يذهب ابو المحاسن (النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨٧) إلى أن تورانشاه كان يرى فى نفسه أنه أحق بالملك من صلاح الدين لأنه أكبر منه سنا ، وأن تورانشاه كانت تبدو منه فى حالة سكره كلمات فى حق صلاح الدين . فأراد صلاح الدين أن يبعده عن مصر ولذلك أرسله إلى اليمن .

وربما كان رأى أبى المحاسن صحيحا فى شطره الأول . ولكنه بادى الضعف فى الشطر الثانى لأن صلاح الدين لا يغامر بجزء كبير من جيشه لمجرد أنه يريد أن يبعد أخاه تورانشاه وعلى كل فمن المعنى المحتمل أن صلاح الدين كان يرمى للغرضين — أى فتح اليمن وإبعاد تورانشاه فى وقت واحد .

مقاومة تذكر فى فتحها فكللت مجهوداته عليها بالنجاح (١). والواقع أن لتلك الحملة مغزى بعيدا فلو أن صلاح الدين كان لا يزال مخلصا لنور الدين لكان جديراً به أن يبعث بتلك الحملة لتشاطر فى حروب نور الدين بدلا من أن يغامر بها فى تلك الرحلة غير المأمونة العاقبة.

ومن مظاهر تلك الوحشة أيضاً أن نور الدين لم يعد يثق فى صلاح الدين إذ أرسل إليه رسـولا من قبله وصل إلى مصر فى سنة ١١٧٣ (٥٦٩ هـ) هو خالد ابن القيسرانى (٢). ليكشف له أخبارها وليحاسب صلاح الدين على ما أخذ وما أنفق ويقدر عليه مالا سنويا يدفعه إلى نور الدين. ولكن صلاح الدين استطاع أن يقنع ابن القيسرانى بأن قدمه لم تستقر بعد فى مصر وأن ذلك الاستقرار يحتاج إلى نفقات باهظة ثم عاد الرسول إلى نور الدين محملا بالهدايا.

بقيت أمام صلاح الدين بعد ذلك مشكلة لعلها لا تقل خطورة عن المشاكل السابقة ذلك أن سلالة الفاطميين وأنصارهم رغبوا فى أن يعيدوا دولة آبائهم وأجدادهم المنهارة. وقد قاموا بمحاولات لإرجاعها، ووصل

---

(١) يراجع عن أخبار الحملة فى اليمن — ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٧٨ — ١٧٩، ابن أبى طى (الروضتين ص ٢١٧).

(٢) فى هذا الصدد يقول ابراهيم الحنبلى «وبعث (نور الدين) خالد بن القيسرانى أمينا على حواصل البلاد (المصرية) فأكرمه صلاح الدين وقال — نحن مماليك نور الدين. افعل ما أمرك إلا أن جماعة من أكابر الدولة قد تصرفوا فى أماكن لا يمكن نزعها منهم» وقال الحنبلى «فعلم خالد أن طاعته مخادعة فسكت» أنظر شفاء القلوب ص ٢١.

راجع أيضاً، ابن واصل مفرج الكروب ص ٤١ والمقريزى، السلوك ج ١١ ص ٥١ — ٥٢.

بهم الحد إلى الاتفاق مع الصليبيين كما فعلوا أول مرة — ليعضدوهم ضد صلاح الدين وكانت حركة — فى الواقع — خطيرة ولكن صلاح الدين استطاع أن يتغلب عليها .

على أنه يمكن أن تقسم تلك المشكلة إلى حركتين مناوئتين لصلاح الدين إحداهما سرية والأخرى علنية . أما الحركة السرية فغايتها واضحة وهى إعادة الدولة الفاطمية : ولكن القائمين عليها اختلفوا فيمن يكون خليفة فرأى البعض أن تكون الخلافة فى أنجال العاضد . ورأى البعض الآخر أن تكون فى ذوى قرابته (١) . أما الفريق الأول فحجته النظرية التى تقول بالخلافة من الأب إلى الإبن . ولكنهم اختلفوا بعد ذلك أيضا إذ ترك العاضد ولدين . وكان اختلافهم على أيهما يكون خليفة . وأما الفريق الثانى فرأى أن يرشح للخلافة رجـــلاً قادراً من الفاطميين دون التقيد بمدى قرابته للعاضد حتى يستطيع أن يعيد الأمور إلى نصابها . وأن يكون كفئاً للكفاح ضد صلاح الدين · وكان من نتائج تلك الحركة أن أحد ابنى العاضد وهو داؤود — الذى لقبه أنصاره بالحامد لله (٢) — قام يطالب بملك أبيه . وخشى صلاح الدين تلك الحركة فقبض على داؤود وسجنه (٣) سنة ١١٧٤ (٥٦٩ ﻫ) ولم يخرجه من سجنه إلا بعد أن أمن خطره وخطر أنصاره . غير أن الدعوة السرية لم تستكن بعد القبض على داؤود · إذ ظلت بعده فى ابنه سليمان

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٢١ (٢) ابن واصل، مفرج الكروب ج ١ ص ٤٦

(٢) المقريزى ، الخطط ج ١ ص ٣٩٢ ·

(٣) ابن خلدون ، العبر ج ٤ ص ٨٢ ·

الذى خرج فى الصعيد فقبض عليه صلاح الدين وسجنه حتى توفى (١). ومما يجدر ذكره أن ابن واصل الذى زار مصر سنة ٦٤١ هـ شاهد سليمان ولحظ شدة اهتمام أنصاره به. وآمالهم الكبيرة المعقودة عليه (٢) وقد امتد نشاط تلك الحركة خارج الحدود المصرية . إذ قامت ثورة أخرى بعد ذلك فى بلاد المغرب تدعو لأحد أحفاد العاضد وهو محمد بن عبد الله بن العاضد ولكن الحركة أخفقت . إذ قبض على ذلك الحفيد وقتل (٣) وانتهى خطره .

وهذه هى الحركة السرية التى عمل اتباعها على مناوئة صلاح الدين والتى امتدت إلى ما بعد حياته . ولكنها لم تنجح فى أغراضها لعاملين أساسيين أولهما أنها كانت حركة سلبية اقتصرت على الجدل النظرى ولم تستطع أن تقوم بعمل إيجابى حاسم وثانيهما شدة يقظة صلاح الدين وحساسيته بدقة موقفه ، وقضاؤه على كل فتنة وهى فى مهدها .

أما الحركة الثانية فكانت خطيرة ،ولولا يقظة صلاح الدين وما كان يبثه حول أعدائه من العيون والأرصاد لأتت تلك الحركة على ملكه الناشىء من أساسه .

والرأى الذى يجمع عليه المؤرخون العرب هو أن تلك الحركة إنما قامت لإرجاع الدولة الفاطمية لذاتها . وهذا القول يحتاج فى الحقيقة إلى تعديل فإن المتآمرين الذين قاموا بها لم يكونوا إلا أشتاتا جمع بينهم

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٨٢ .

(٢) مفرج الكروب ج ١ ص ٣٥ ويذكر ابن واصل أن سليمان هذا توفى سنة ٦٤٤ هـ .

(٣) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٨٢ .

الحقد على الدولة الجديدة — دولة صلاح الدين — وقطعها لأرزاقهم ومناصبهم ، وقد عبّر رئيس المؤامرة وهو عمارة اليمنى عن ذلك أحسن تعبير فى بيت من الشعر يقول فيه أن الدنيا قد صارت إلى بنى أيوب فلا ينبغى أن يشبعوا منها ويتركوهم جياعا (١). فهم والحالة هذه — طلاب مناصب قبل أن يكونوا دعاة مبادىء . وحسب الباحث أن يذكر أنهم وزّعوا أولا وقبل كل شىء مناصب الدولة فيما بينهم (٢)، أى أنهم أرادوا أن يطمئنوا إلى مناصبهم قبل أن يطمئنوا إلى قيام الدولة ، وفى معنى آخر أن مصالحهم الشخصية سبقت كل غرض آخر سواه

وإن نظرة واحدة إلى أسماء المتآمرين لتدل على أن المتآمرين جميعاً كانوا من أرباب المناصب فى الدولة الفاطمية ، وأنهم قاموا بحركتهم لتعود إليهم مناصبهم فكان على رأس المؤامرة عمارة اليمنى الذى كان عند الفاطميين المتأخرين بمنزلة الوزير (٣) . ومن أعضائها البارزين داعى الدعاة عبد الجبّار بن إسماعيل ، وقاضى القضاة ابن كامل والكاتب عبد الصمد وجماعه من بنى رزيك وآخرين من أسرة شاور والعوريس ناظر الديوان (٤) .

---

(١) فى هذا البيت الشعرى يقول عمارة :

فقد صارت الدنيا إليكم بأسرها   فلا تشبعوا منها ونحن جياع

أنظر الروضتين ج ١ ص ٢٢٢ .

(٢) ابن واصل مفرج الكروب ج ١ ص ١٩٤٥ .

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧٠ .

(٤) المقريزى ، السلوك ج ١ ص ٥٤ ، ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٧٩ مفرج الكروب ج ١ ص ٤٤ .

وهناك دليل واضح يؤيد هذا الرأى وهو أن عمارة اليمنى — رأس المؤامرة — لم يكن شيعياً فى يوم من الأيام . بل لقد عرض عليه الفاطميو أكثر من مرة أن يعتنق مذهبهم فكان جوابه دائما الرفض البات فكيف يقدم عمارة إذن على تلك الحركة ليقيم دولة لا يؤمن بعقائدها لقد أراد عمارة أن يستعطف صلاح الدين بعد أن ضاقت فى وج سبل العيش ، فلم يجد شيئاً ظن أنه يقربه إليه سوى أن يذكر له ساب نصرته للمذهب السنى فى مصر يوم لم يكن لهذا المذهب فيها ناصر (١) فالحقيقة التى لا شك فيها إذن هى أن أولئك المتآمرين أرادو وظائفهم أولا . أما إعادة الدولة فشيء يتلو ذلك ولا يسبقه .

ولتكن سيرة عمارة نفسه مثلا على ذلك . فقد مدح ذلك الشاع وزراء العاضد الفاطمى جميعا دون استثناء . ونال جوائزهم وهبات جميعاً ، بالرغم من تنافر أولئك الوزراء ومجيئهم الواحد منهم على أنقاض الآخر . فلما جاء صلاح الدين ظن عمارة — وهو الشاعر الذى وفق مدح أولئك الوزراء المتنافرين إن باستطاعته الاحتفاظ بمركزه عن صلاح الدين . وطال انتظاره وهو يؤمل الحصول على عطفه ولك انتظاره كان على غير طائل . فأخذ يستعطفه بذكر غلمانه ونسو

---

(١) يقول عماره فى هذا المعنى مخاطبا صلاح الدين :

فان كنت ترعى الناس للفقه وحده — فنه طرازى بل لثامى وبرقعى
ألم ترعى للشافعى وأنتم — أجل شفيع عند أعلى مشفع
ونصرى له فى حيث لا أنت ناصر — بضرب صقيلات ولا طعن شرع
ليالى لا فقه العراق بمسمع — بمصر ولا ريح الشآم بزعزع

وديوانه (١) . فلم يكن لذلك كله صدى عند صلاح الدين .

ويبدو أن حالة عمارة النفسية ساءت بعـــد ذلك . وأن اليأس قد بلغ به مبلغا كبيرا (٢) . فكانت النتيجة الطبيعية أنه حقد على صلاح الدين ، وودّ لو رجعت أيام الدولة الفاطمية . ورجع له برجوعها مركزه الممتاز . ومن ثم اضطر إلى القيام بتلك المؤامرة . والظاهر أن عمارة أختير لرآستها بوصف أنه شاعر يجيد القول ويحسن التعبير من أغراضها والدعاية لها .

ومهما يكن من شيء فإن المؤامرة كانت واسعة النطاق . إذ فاوض المتآمرون ملك صقلية النورماندى وملك بيت المقدس الصليبي ورئيس الاسماعيلية الحشيشية راشد الدين سنان ليهاجموا الشواطىء المصرية فى الوقت الذى يعلنون فيه الثورة على القاهرة (٣) . — وهذه هى نفس الخطة التى اتبعها نجاح من قبل — ووصلت أخبار المؤامرة إلى صلاح

---

(١) يقول عمارة مستعطفا صلاح الدين .

أقمت لـكم ضيفا ثلاثة أشهر ... أقول لصدرى كلما ضاع وسع
أنازل غلمانى وخيلى ونسوتى ... بما سفت من عذر ضعيف مرقع
وضايقنى أهل الديون فلم يكن ... سوى بابـكم فيه ملاذى ومفزعى

راجع النـكت المصرية ج ١ ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

(٢) مما يدل على ذلك قوله :

أنادى من الاخوان غير مجيب ... وأمنح بالأشعار غير مثيب
وأقطع أياماً تقـول همومها ... لأنفـاس نفسى كيف شئت فذوبى
ومستنجد ما بال حالك حالـكاً ... فقلت سقـام لم يعن بطبيب
ولا خير فى أسجـاع من جاع بطنه ... ولو أعربت يوماً بلحن عريب

النـكت ج ١ ص ١٨٣ .

(٣) المقريزى السلوك ج ١ ص ٥٣ .

الدين على يد أحد أعوانه وهو زين الدين على بن نجا الذى ظل يداخلهم ويشترك معهم حتى عرف خطتهم كاملة . وعندئذ أدلى بها إلى صلاح الدين (١) . فأحضرهم واحد واحدا : فأقروا واعترفوا واعتذروا بقطع أرزاقهم وأخذ أموالهم (٢). فاستفتى صلاح الدين العلماء بشأنهم فأفتوا بقتلهم وصلبهم . فشنقهم جميعا بما فى ذلك عمارة اليمنى وكان ذلك فى أبريل سنة ١١٧٤ (رمضان سنة سنة ٥٦٩ هـ) وأخذ صلاح الدين من بعد ذلك حذره فأمر بأن يرحل الجنود المصريون إلى أقاصى الصعيد واشتد فى مراقبة من بقى من سلالة الفاطميين (٣) . وبينما يرى ابن دقماق أن عمارة قتل لولوعه بمراثى العاضد والتعريض ببنى أيوب (٥) . يرى الحنبلى أنه قتل لبيتين قالهما من الشعر (٤) .

وهكذا نجح صلاح الدين فى القضاء على تلك الفتنة ثم لم تلبث المشاكل المعلقة بينه وبين نور الدين أن انتهت أيضا انتهاء تلقائياً إذ توفى الرجل الطيب القلب فى ١٥ مايو سنة ١١٧٤ (شوال سنة ٥٦٩ هـ) وهو يستعد لغزو مصر (٦) :

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ص ١٨٠ .

(٢) النويرى ، نهاية الأرب (مخطوط) ج ٢٦ ص ١١٢ ، الحنبلى شفاء القلوب ص ٢١ . ابن أبى على (الروضتين ج ١ ص ٢٢٠) .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٨٠ .

(٤) هذان البيتان هما :

والله لا فاز يوم الحشر ظالمكم ... ولا نجا من عذاب الله غير ولى

ولا رأى جنة الخلد التى وعدت ... من خان عهد الامام العاضد بن على

شفاء القلوب ص ٢٠ .

(٥) الانتصار ج ٤ ص ٥٤ .

(٦) ابن واصل ، مفرج القلوب ج ١ ص ٤٨ ، ابن الأثير ج ١١ ص ١٦٦ — ١٧٦ — ١٨٠ .

على أنه يمكن أن تفسر تلك الحركات جميعاالتى شهدتهامصر فى آخر أيام الدولة الفاطمية تفسيرا أكثر سعة وشمولا . وهو أن الطبقات الحاكمة فى مصر — فى ذلك الوقت — قد جنحت إلى أن تتعاون مع الأجانب للاحتفاظ بمناصبها ومصالحها الخاصة دون أن تفكر فى الاستناد إلى الشعب للاحتفاظ بتلك المناصب والمصالح بالرغم من أن الغالبية الكبرى من الوزراء الفاطميين المتأخرين لم يصلوا إلى منصب الوزارة إلا بالاستعانة بالشعب . والدليل على ذلك شاور نفسه . فان ذلك الوزير لم يستطيع أن يهزم العادل إلا بعد أن حضر من ولاية قوص ، ومعه الجموع الغفيرة من العربان وأبناء الصعيد (١) . فلما اطمأن إلى منصبه تنكر لتلك الطبقات . حتى إذا نشب النزاع بينه وبين ضرغام لم يستطيع أن يلجأ إلى أنصاره مرة أخرى . مما اضطره إلى الاستعانة بنور الدين : وقد أراد شيركوه — فيما يبدو — خلال حملاته على مصر ، أن يفيد من تلك القوة الشعبية . فتوغل فى الصعيد غير مرة . وربما كان ذلك أساساً للسياسة التى سار عليها صلاح الدين ، وهى سياسة التقرب إلى الشعب بإلغاء المظالم وتخفيف المكوس والتساهل مع الطوائف الدينية وغير ذلك . وعلى أساس ذلك التفسير يمكن أن يفهم موقف كل من نجاح وعمارة اليمنى وأمثالهما وجنوحهم إلى التعاون مع الصليبيين والحشيشيين والنورمانديين . بعد أن فقدوا ثقة الشعب ، وأصبح مسعاهم كله لمصالحهم الخاصة . فنجاح صلاح الدين — إذن — فى التغلب على على تلك العقبات وعلى غيرها — مما يأتى ذكره — لا يرجع إلى قوة خارقة

---

(١) راجع الفصل الثالث .

أو إلى ما يشبه ذلك من الأسباب المخالفة للعقل والمنطق . وإنما يرجع إلى أساس محسوس هو استناد صلاح الدين إلى قوة الشعب . وعمله على توفير أسباب الأمن والطمأنينة لهم وهذا بالإضافة إلى مختلف الأسباب التي سبق ذكرها ومن هنا يمكن أن يقال أن رضاء المصريين عن سياسة صلاح الدين ، وأخلادهم إلى الهدوء والسكينة في عهده ، قد قطع على أعدائه خط الرجعة ، وأتاح لصلاح الدين الفرصة الملائمة والوقت الكافي للتفرغ لهم . فكان ذلك عاملا هاما من عوامل قيام الدولة الأيوبية في مصر .

والخلاصة أن صلاح الدين نجح نجاحاً تاما في التغلب على ما صادفه من عقبات منذ أن أصبح وزيرا حتى وفاة نور الدين.وسواء أكانت تلك العقبات داخلية أم خارجية . فقضى على مؤتمن الخلافة بنجاح ، وصدّ الصليبيين عن دمياط ونجح في فتح اليمن . وفي تأمين الحدود المصرية . واستطاع أن يصمد أمام نور الدين حتى اندرجت الأيام ـ على حد قول والده أيوب ـ وتطورت لصالحه . وبذلك تحققت أطماع الأسرة الأيوبية على يديه فان الأساس الذي وضعه والده أيوب وشارك في بنائه عمه شيركوه . فلم يبق عليه بعد ذلك سوى بضع مشاكل داخلية وأخرى خارجية .

الفصل الخامس

سلطنة صلاح الدين الأيوبى

وفاة نور الدين — أغراض جديدة لصلاح الدين — اسماعيل ابن نور الدين وخليفته — أمراء دمشق — أمراء حلب — النزاع بينهما — سيف الدين غازى — سر نجاح صلاح الدين — انتقال اسماعيل إلى حلب — سعد الدين كمشتكين — القبض على ابن الداية — خوف أمراء دمشق — مكاتبتهم لسيف الدين غازى — مكاتبتهم لصلاح الدين — ترحيب صلاح الدين بالفرصة .

حالة الصليبيين — وفاة عمورى — ابنه بلدوين الرابع — حالته الصحية — وصاية رايمند الثالث عليه — رايمند الثالث .

دخول صلاح الدين دمشق — رسالة أمراء حلب إلى صلاح الدين غزوه لشمال الشام — فتوحاته — حصار حلب — فشل الحصار — وسائل أعدائه لهزيمته — فشل تلك الوسائل — اعلان صلاح الدين استقلاله — رسالته للخليفة العباسى يطلب تقليده السلطنة — أهميتها — .

تغير سياسة صلاح الدين — موقعة قرون حماة — الصلح — نقض الصلح — موقعة تل السلطان — انتصار صلاح الدين — حصار حلب للمرة الثانية — استيلاؤه على ما حولها — فشل الحصار — الصلح — تأديب الحشيشية — مهادنة الصليبيين — عودة صلاح الدين إلى مصر — بناء القلعة — سور القاهرة — تحصين الاسكندرية — الأسطول — نظام

المدارس — نظام التعليم — أثر ذلك فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى.

* * *

توفى نور الدين فى ١٥ مايو سنة ١١٧٤ (١١ شوال سنة ٥٦٩) ، وزالت بوفاته الشخصية التى حسب لها صلاح الدين كل حساب ، غير أنه لم يظهر بمسرح الحوادث بالشرق الأدنى من رجال البيت الزنكى من يمكن أن يشار إليه بأنه أصلح من يكون خلفا لنور الدين . وكان لا بد من أن يتقدم أحد أفراد ذلك البيت أو أحد أمراء نور الدين ، ليملأ ذلك المكان الشاغر ، لأن السياسة التقليدية التى سار عليها الشرق الأدنى الإسلامى منذ أيام زنكى تطلبت أن يوجد بين المسلمين زعيم يستطيع أن يواجه الصليبيين بقوة إسلامية كبرى ، ولأن إسماعيل بن نور الدين لم يكن إلا طفلا لا يصلح البتة للقيام بذلك الدور — وإن كان قد لُقّب بالصالح — إذا لم تكن سنه — وقت وفاة أبيه ، تزيد عن الحادية عشرة (١) .

على أنه كان هناك من أبناء البيت الزنكى بمملكة الموصل أبنان لقطب الدين مودود أخى نور الدين وهما عماد الدين زنكى (الثانى) وسيف الدين غازى (الثانى) ، وقدكان من المنتظر أن يبرز أحدهما ليملأ مكان عمه نور الدين ، لو أنهما تعاونا معا على الوصول إلى تلك الغاية ، واستغلا الظروف السانحة التى سادت بالشرق الأدنى فى ذلك الوقت . على أنه لم يكن هناك شىء من الوفاق بين هذين الأخوين ،

(١) ابن خلكان ، الوفيات ج ٢ ص ٢٩ .

ومرجع ذلك أن أباهما قطب الدين مودود أوصى فى حياته أن تكون مملكة الموصل لابنه غازى متخطيا بذلك ابنه الأكبر زنكى . وقد فعل مودود ذلك نتيجة لمساعى زوجه خاتون ابنة تمرتاش وبإشارة من وزيره فخر الدين عبد المسيح .

أما خاتون فقد سعت لابنها لأن زنكى كان زوجا لابنة عمه نور الدين وقد خشى أن يكون فى ولاية العهد له اندماج لأملاك مودود فى املاك أخيه نور الدين (١)

وسار زنكى إلى عمه نور الدين مستنصرا به ، فلما حدث فى ذلك الوقت أن توفى مودود فى ٦ سبتمبر سنة ١١٧٠ (٢٢ ذى الحجة سنة ٥٦٥) أخذ نور الدين يعمل على تسوية النزاع بين ابنى أخيه ، ويبدو أنه انتهز تلك الفرصة ليفرض عليهما ما يشبه الحماية (٢) بدليل أنه ترك على قلعة الموصل — وهى عاصمة ذلك القسم الشرقى من البلاد الزنكية — خصيا من خصيانه هو كمشتكين ، وأمر غازى «أن لا ينفرد عنه بقليل من الأمور ولا بكثير» على حد قول ابن الأثير (٤) .

وخلاصة هذا كله أن زنكى الثانى وغازى الثانى ابنى مودود وأبرز رجال البيت الزنكى بعد نور الدين لم يكونا على شىء من الوفاق فيما بينهما ، فكان ذلك عاملا هاما من عوامل نجاح صلاح الدين فى كل خطوة من خطواته لأنه لم يجد من البيت الزنكى المقاومة الموحدة التى

---

(١) راجع ابن الأثير ، الكامل ح ١١ ص ١٥٩ — ١٦٣ .

(٢) Lane-Poole, Saladin p. 133

(٣) الكامل ح ١١ ١٦٣ .

تستطيع أن تقف أمام أطماعه ومراميه . وقد عبّر عن ذلك كمال الدين ابن الشهرزورى (١) أحسن تعبير فى قوله « هذا (الخلف) طريق إلى أذى يحصل ببيت الأتابك زنكى ، لأن عماد الدين كبير لايرى طاعة سيف الدين ، وسيف الدين هو الملك لا يرى الإغضاء لعماد الدين فيحصل الخلف ويطمع الأعداء » (٢) .

وعلى ذلك فقد وضح أنه ليس من المنتظر أن يستطيع أحد هذين الأخوين أن يملأ مكان عمه نور الدين ، كما بات واضحا أيضاً أن يتقدم أحد أمراء نور الدين ليملأ مكانه كصلاح الدين مثلا أو غيره من أولئك الأمراء . وكيفما كان الأمر فان أمراء نور الدين حلفوا جميعاً — بما فيهم صلاح الدين(٣) — للسلطان إسماعيل وأعلنوا ولاءهم له فخطبوا له على المنابر وضربوا بإسمه العملة (٤) . وانفرد من بينهم بالوصاية على إسماعيل شمس الدين محمد بن المقدّم أكبر أمراء دمشق وقد أغضبت تلك

(١) ينتسب أبو الفضل محمد بن أبى محمد عبد الله الشهرزورى إلى بيت من بيوت العلم والدين وقد اختص منذ نشأته بخدمة سيف الدين غازى الأول ثم بأخية قطب الدين مودود ثم انتقل بعد ذلك إلى خدمة نور الدين محمود ونال فى بلاطه مكانة ممتازة وقد ظل ابن الشهرزورى من بعد نور الدين مخلصا لابنه اسماعيل حتى انتقل إلى خدمة صلاح الدين ، راجع ترجمة حياته فى ابن خلكان بالوفيات ج ١ ص ٤٧٢ — ٤٧٣ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٦٣ .

(٣) ذكر ابن الأثير (المرجع السابق ص ١٨٢) أن صلاح الدين كتب إلى الملك الصالح اسماعيل يعزيه ويهنئه بالملك وأرسل إليه دنانير مصرية منقوش عليها اسم الصالح دليلا على ولائه له — كما أعلن صلاح أنه مقيم على الولاء لاسماعيل كما كانت الحال أيام أبيه ، راجع أيضاً العينى ، عقد الجمان ج ٢١ ص ٥٤٦ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٨٢ .

الوصاية صلاح الدين فى مصر كما أغضبت ابن الداية ـــ أمير حلب من قبل نور الدين . أما صلاح الدين فقد أرسل إلى ابن المقدم ـــ عقب سماعه بوصايته ـــ يقول « لو علم نور الدين أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق إليه مثل ثقته إلىّ لسلّم إليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى »(١) ويبدو أن ابن المقدم أراد أن يقطع على صلاح الدين خط الرجعة وأن يثير عليه الرأى العام فكتب إليه يقول « لا يقال عنك أنك طمعت فى بيت من غرسك ، ورباك وأسسك وأصفى مشربك وأضفى ملبسك وأجلى سكونك لملك مصر وفى دسته أجلسك »(٢) . وكان من نتيجة تلك المراسلة أن وجد صلاح الدين نفسه مضطراً إلى القنوع بمركزه فى مصر حتى لا يثير أمراء نور الدين عليه الرأى الإسلامى العام بدعوى أنه طامع فى ملك نور الدين وفى الافتئات على حقوق ابنه إسماعيل . ولذا اكتفى فى رده على ابن المقدم بأنه لا يطلب للإسلام والمسلمين إلا جمع الشمل ولا يبغى للبيت الزنكى الأتابكى إلا ما يدفع عنه الضرر ويجلب النفع ويحفظ له الأصل والفرع (٣) .

الواضح من هذا أن ابن المقدم أصبح وصياً على إسماعيل دون أن يشارك صلاح الدين فى شىء من ذلك . وقد اقترح كمال الدين بن الشهرزورى على ابن المقدم وغيره من الأمراء أن يشركوا صلاح الدين فى مشاوراتهم بوصفه أميراً من أمراء نور الدين ـــ حتى لا يتخذ من

---

(١) نفس المصدر ، أنظر أيضاً ، ابن واصل مفرج الكروب ج ١ ص ٦٠

(٢) راجع الروضتين ج ١ ص ٢٣٤ ، الحنبلى شفاء القلوب ص ٢٢ .

(٣) الروضتين ح ١ ص ٢٣٤ .

إغفالهم له حجة عليهم فيخرج عن إجماعهم ويعلن عداءه لهم (١). غير أن ذلك الرأى الصائب لم يجد قبولا عند أمراء دمشق إذ خشوا أن يكون فى دعوتهم لصلاح الدين ما يتيح له سبيل التدخل فى أمور الشام (٢).

على أن صلاح الدين لم يقتصر على مخاطبة ابن المقدم أو غيره من الأمراء فحسب وإنما كتب إلى إسماعيل نفسه ـ غداة وفاة والده ـ يقول له إن منعاة السلطان نور الدين قد وصلته عن طريق الصليبيين ويرجو ألا يكون الخبر صحيحاً، ويعلن جزعه وحزنه على الحادث ثم يقول إن النصال تدخر للحوادث والرجال تصطنع للأيام، وينصح بالاتحاد والوئام وعدم الاختلاف والتفرق خوفا من الأعداء ثم يعلن بعد ذلك أنه نصير للسلطان إسماعيل وللبيت الأتابكى، لا يخذله ولا يسلمه، وأنه معه وعلى من عاداه أو ناوأه (٣). وفى هذا ما يدل على أن صلاح الدين أراد أن يتقرب من السلطان إسماعيل ليزيل من نفسه آثار الوحشة التى حدثت بينه وبين والده نور الدين وليسهل عليه بعد ذلك أن يكون وصياً عليه.

اضطر صلاح الدين إذاً إلى أن يستمر فترة فى مصر انتظاراً للفرصة الملائمة ليحقق مأرباً واضحا بمختلف الوسائل التى تقدمت الإشارة إليها، ثم حدثت خلال تلك الفترة عدة حوادث بين مدينتى دمشق وحلب كانت هى نفس الفرصة التى ينتظرها صلاح الدين . ومنشأ تلك الحوادث أن أمراء هاتين المدينتين أرادوا ـ كل فريق على حدة ـ أن يستأثروا

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٨٢ .

(٢) نفس المصدر راجع أيضاً ابن خلدون العبر ج ٥ ص ٢٨٩ .

(٣) أنظر نص هذا الكتاب فى الروضتين ج ١ ص ٢٣٠ .

بالسلطان الطفل ليتخذوه ستاراً إلى السلطة والنفوذ . ومعنى ذلك أن الشرق الاسلامى الأدنى الذى بذل زنكى وابنه نور الدين ما استطاعا من جهد ليجعلاه قوة موحّـده ضد الصليبيين وغيرهم ، قد بات مهدداً من جديد بالرجوع إلى الوراء أى إلى الفوضى والتفكك والانحلال ، نتيجة لتنازع الأمراء وإيثارهم المنافع الخاصة على صالح المجموع ، ولعل فشل أولئك الأمراء أخيراً يرجع إلى خطأ السياسة التى ساروا عليها وعدم ملاءمتها لروح العصر ، على حين نجح صلاح الدين لأنه سار على المبدأ الذى أثبتت الأيام والحوادث صلاحيته وضرورة السير عليه منذ أيام زنكى .

وعلى كل حال فقد ثار النزاع بين أمراء دمشق وأمراء حلب حول إقامة السلطان اسماعيل . والظاهر أن أكبر أمراء نور الدين بحلب وهو ابن الداية لم يكن يشك فى أنه سيكون الوصى على اسماعيل(١) . ولكنه كان عند وفاة نور الدين مريضاً(٢) فتأخر لذلك السبب عن الوصول إلى دمشق عند تولية السلطان الجديد بها وإعلان وصاية ابن المقدم . ولهذا أرسل ابن الداية إلى اسماعيل يدعوه إلى حلب وحجته فى ذلك أن وجود اسماعيل فى حلب يحمى بلاده من ابن عمه غازى(٣) وكان غازى قد تحرك فعلا بعد وفاة عمه نور الدين ، فاستولى على نصيبين والخابور وحران والرها والرقة وغيرها من املاك نور الدين فى الجزيرة (٤) . أى أن

(١) العماد . الروضتين ج ١ ص ٢٢٢ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٨٣ .

(٣) نفس المصدر ص ١٨٢ — ١٨٣ .

(٤) نفس المرجع ، أنظر أيضاً ابن واصل ، مفرج الكروب ح ١ ص ٥٩

سلالة البيت الأتابكى نفسه لم يستطيعوا أن يفرقوا بين مصالحهم الشخصية وبين ضرورة بقاء الدولة وحدة حتى تنتهى من مهمتها إزاء الصليبيين . ويبدو أن صلاح الدين أراد أن يتخذ من اعتداء غازى على أملاك نور الدين ذريعة إلى السفر إلى الشام، بدعوى مساعدته اسماعيل وحمايته من ابن عمه غازى (١) إذ أرسل الى اسماعيل ـ عند سماعه بذلك النبأ ـ يظهر استعداده للحضور الى نجدته . ولكن اسماعيل لم يوافق على ذلك بتأثير المحيطين به من أمراء دمشق . وهذا — فى ذاته دليل يضاف إلى مختلف الأدلة السابقة على أن صلاح الدين كان يعرف كيف يدعو لنفسه فى الوقت المناسب .

ويذهب ابن أبى طى إلى أن نور الدين أوصى بأن تكون إقامة ابنه اسماعيل بعد وفاته فى حلب(٢) . لشدة وثوقه فى إخلاص أمراء تلك المدينة له ولابنه من بعده . والواقع أن ابن الداية أمير حلب كان من أكبر الأمراء المقربين إلى نور الدين ، والسبب فى ذلك — كما يذكر العماد الأصفهانى — أن أخاه الأكبر أبا بكر بن الداية أخو رضاع نور الدين وقد تربى معه ولزمه منذ بداية أمره ، فوثق فيه نور الدين وفى إخوته فولاه على حلب ، كما ولى أخاه علياً قلعة شيزر ، حتى إذا توفى أبو بكر انتقل هذا الأخ الثانى إلى ولاية حلب فبقى عليها متمتعاً بثقة نور الدين . ومن الواضح أن تلك الأسرة كانت موضع الحظوة لدى نور الدين طوال عهده ، إذ كانت ولاية جعبر وتل باشر بيد أخ ثالث وهو سابق الدين عثمان

(١) ابن الأثير الكامل حـ ١١ ص ١٨٣ .

(٢) راجع الروضتين جـ ١ ص ١٧٤

كما كانت مدينة حارم بيد أخ رابع وهو بدر الدين حسن(١) وإذاً فليس عجيباً أن يعتبر ابن الداية أمير حلب أنه أحق الأمراء بالوصاية على اسماعيل ولكنه كان — كما سبق — مريضاً ، فلم يستطع أن يقوم بعمل إيجابى حاسم ، كأن ينتقل مثلا إلى دمشق ليكون بجانبه وقت تنصيبه ملكا .

وفى ذلك الوقت كان كمشتكين — وهو الذى عيّنه نور الدين قبل وفاته على قلعة الموصل . قد فرّ عن غازى عند سماعه بوفاة سيده نور الدين (٢) . وحضر إلى حلب(٣) . فأرسله ابن الداية إلى دمشق فى بعثة لاقناع اسماعيل بوجوب الانتقال إلى حلب ولكن ابن المقدّم اتخذ أهبته فلم يستطع كمشتكين أن يدخل دمشق وعاد بعد أن نهبت أثقاله(٤)على أن ابن الداية لم ييأس وأرسل كمشتكين إلى دمشق مرة ثانية ونجح كمشتكين تلك المرة فى أن يدخل دمشق وأن يجتمع هناك بالسلطان اسماعيل وبأمرائه وأن يقنعهم بالانتقال إلى حلب . ووافق الأمراء ومن بينهم ابن المقدم على ذلك الطلب.وهكذا انتقل اسماعيل من دمشق إلى حلب فى أغسطس سنة ١١٧٤(٥) (ذى الحجة سنة ٥٦٩ هـ) .

وبدا كأنما أغراض ابن الداية قد تحققت ، ولكن الحقيقة هى أنه وأخوته كانوا أول الضحايا التى سببها انتقال السلطان إلى حلب ، إذ لم يكد كمشتكين يدخل المدينة فى ركاب اسماعيل ، حتى أخذ فى الاستيلاء

(١) العماد (الروضتين ج ١ ص ٢٣٢)
(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٨١ ، ١٨٣
(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨١
(٤) ابن خلدون ، العبر ج ٥ ص ٢٨٩
(٥) راجع ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٨٧

على قلعتها ، ثم لم يلبث أن قبض على ابن الداية واخوته وأودعهم السجن(١) واستأثر هو بالأمر كله دون الجميع .

وقد كان لعمل كمشتكين رد فعل فى دمشق بالنسبة لابن المقدم ومن معه إذ بدأوا يوجسون منه خيفة وخافوا أن يمتد أذاه إليهم ، ولذلك أرادوا أن يحتاطوا لما عسى أن يقوم به ضدهم ، فأرسلوا إلى غازى يعرضون عليه دمشق ويطلبون حضوره لتسلمها(٢) ، ولو كان غازى شخصية ناضجة مهيئة للقيام بدور الزعيم وملء الفراغ الذى تركه عمه ، لما أفلتت منه تلك الفرصة ، ولكنه كان ككثيرين غيره من رجال ذلك العصر ، يكثرون عند الطمع ويقلون عند الفزع . إذ خاف أن يكون فى الأمر مكيدة مدبرة ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق،فيهاجمه ابن المقدم من وراء ظهره ويقطع عليه خط الرجعة(٣) . ولذلك لم يرفض غازى ذلك العرض السخى فحسب ، وإنما أرسل زيادة على ذلك إلى ابن المقدم يفاوضه على إقرار ما بيده . وانتهت المفاوضة بالموافقة(٤) وقنع غازى بما استولى عليه من أملاك نور الدين فى الجزيرة . أما السلطان اسماعيل فإنه بقى بحلب فى يد كمشتكين ، حتى ليقول ابن الأثير إنه تمكن منه تمكناً يقارب الحجر عليه(٥) . عندئذ أرسل ابن المقدم إلى صلاح الدين بمصر

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٣٨ ، ابن خلدون العبر ج ٥ ص ٢٨٩
(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٨٧
(٣) علق ابن الأثير (الكامل ج ١١ ص ١٨٧) على موقف غازى ببيت من الشعر هو :

يرى الجبناء أن الجبن حزم   وتلك طبيعة الرجل الجبان

(٤) ابن خلدون ج ٥ ص ٢٧٩
(٥) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٨٧

يعرض نفس العرض(١) الذى رفضه غازى ، وهو الحضور إلى دمشق وهذه هى الفرصة التى كان ينتظرها صلاح الدين .

تلك هى حالة المملكة النورية بالشام بعد وفاة نور الدين ؛ سلطان طفل لم يكن قد بلغ الحلم بعد يتنافس فى الاستحواذ عليه والاستئثار به جماعة من الأمراء ، لا يختلفون كثيراً عن أولئك الذين التفوا حول عرش العاضد الفاطمى وغيره من الخلفاء الفاطميين المتأخرين . أما السليل القوى من بيت زنكى — إذا قورن بالصالح إسماعيل — وهو غازى ، فقد كان لا يقل طمعا فى ملك عمه الراحل وابن عمه الطفل عن ابن الداية وابن المقدم وغيرهما من الأمراء .

ويكمّل تصوير تلك الحالة وصف ما كان عليه الصليبيون فى ذلك الوقت . وخلاصته أن عمورى الأول ملك بيت المقدس استغل فرصة وفاة منافسه نور الدين ، واضطراب حالة المسلمين بعده وحاصر حصن بانياس فى آخر مايو سنة ١١٧٤ (آخر شوال سنة ٥٦٩) فأسرع ابن المقدم إلى مفاوضته ، وانتهت المفاوضة برفع الحصار عن ذلك الحصن بعد خمسة عشر يوما نظير مبلغ من المال وإطلاق سراح بعض الأسرى الصليبيين (٢) ومما تجب الإشارة إليه هنا أن صلاح الدين لمّا سمع بذلك الصلح كتب إلى السلطان إسماعيل وأمرائه يستنكر ما وقع ، ويظهر استعداده للمعاونة

---

(١) المرجع السابق .
راجع أيضا ابن شداد سيرة صلاح الدين ص ٣٩

(٢) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٨٤ ، ابن واصل مفرج الكروب ج ١ ص ٦٠ و Stevenson P. 213.

ضد الصليبيين (١)، على أنه يمكن القول بأن صلاح الدين كان يرمى من وراء ذلك إلى غرض آخر هو السفر إلى الشام بدعوة من إسماعيل نفسه وفى هذا المعنى يقول ابن الأثير «وكان قصد (صلاح الدين) أن يسير له طريق إلى بلاد الشام ليتملك البلاد»(٢)، غير أن الأجل لم يمتد بعمورى الأول بعد ذلك طويلا إذ توفى فى ١١ يوليه من تلك السنة.

كانت وفاة عمورى الأول خسارة كبرى بالنسبة للصليبيين. حقيقة أن المسلمين أصيبوا بمثل تلك الخسارة بوفاة نور الدين، ولكن الفرق بين الحالتين واضح فقد وجد بين صفوف المسلمين من استطاع أن يملأ فراغ نور الدين وهو صلاح الدين على حين لم توجد مثل تلك الشخصية الكبرى بين الصليبيين. ذلك لأن عمورى لم يترك سوى إبنه بلدوين الرابع وهو طفل فى الثانية عشرة من عمره. على أن صغر سن ذلك الوريث لم تكن وحدها موضع الضعف فى شخصيته، إذ كان فوق ذلك طفلا مريضاً أبرص (٣) لا يرجى له شفاء. ولذا اختير للوصاية عليه رايمند الثالث أمير طرابلس وهو صليبى مكث فى أسر المسلمين مايقرب من عشر سنوات (٤) ولم يطلق سراحه إلا قبيل وفاة نور الدين (٥)

(١) يظهر أن صلاح الدين كان قد أعد عدته للسفر إلى الشام وقطع فعلا أربعة مراحل ولم يمنعه من اتمام رحلته سوى علمه بما تم من الصلح بين الصليبيين وابن المقدم راجع العماد (الروضتين جـ ١ ص ٢٣١) وابن أبى طى نفس المرجع ص ٢٣٣

(٢) ابن الأثير، الكامل جـ ١١ ص ١٨٤

(٣) ابن الأثير الكامل جـ ١١ ص ١٨٩

(٤) Stevenson P. 213.

(٥) أسر نور الدين رايمند سنة ٥٥٩ عند حصاره حارم. ويستفاد مما ورد فى ابن الأثير (الكامل جـ ١١ ص ١٧٩) انه لم يطلق سراح رايمند إلا بعد وفاة

غير أن ذلك الوصى لم يكن كفأ للقيام بما ألقى عليه من أعباء . بل أن إخلاصه للحرب الصليبية كان موضع الشك ويقال أن آراءه فى حرب المسلمين لم تكن خالصة ، وانما كان يشوبها الحرص على مصالحه الخاصة فى طرابلس . ذلك أن رايمند الثالث رأى أن ما يمكن أن يناله بالمفاوضة أكثر فعلا مما يستطيع ان يحصل عليه السيف . ولهـذا لم يشأ بل لعله لم يستطع – أن يستغل ما حدث فى صفوف المسلمين من اضطراب لصالح الصليبيين . ويتفرع على هذه المشكلة مشكلة أخرى وهى أن بلدوين الرابع بن عمورى كان ميئوسا من ذريته إذا تزوج فاستقر الرأى على أن تتزوج أخته الأميرة سيبلا من وليم منتفرات(١) . غير أن ذلك الزواج الذى تم سنة ١١٧٦ (نوفمبر) لم يحل المشكلة بل زادها تعقيداً . إذا توفى وليم منتفرات بعد سنة واحدة من زواجه بعد أن أعقب طفلا . وعلى كل حال فليس هذا هو المجال لتعقيب تلك المشاكل الصليبية ، ويكفى القول بأن صفوف الصليبيين قد خلت بعد عمورى ممن يستطيع أن يحل محله فى زعامة الصليبيين فكان ذلك عاملا هاماً من عوامل نجاح صلاح الدين فيما بعد .

وهكذا خلا الجو تماما أمام صلاح الدين فى الشام ، إذ توفى نورالدين

= نور الدين إذ أطلقه كمشتكين سنة ٥٧٠ ه نظير ٠٠٠ر١٥٠ دينار وألف أسير راجع أيضا العماد ، الروضتين ج ١ ص ٢٤٠) إلا أن أبا الفرج بن الجوزى يذهب إلى أن رايمند أطلق من الأسر فى حياة نور الدين نفسه لا بعد وفاته . راجع المنتظم ج ٨ ص ٢١٦ .

(١) Stevenson P. 215.

وعمورى وأعقب كلا منهما طفل لا يرجى منه . أما المحيطون بهذين الطفلين فلم يكن صلاح الدين ليعبأ بهم كثيراً بعد أن جرّب من أمثالهم فى أواخر أيام الدولة الفاطمية . والواقع أنه لم يبق أمام صلاح الدين من عقبة سوى أن يتحرك من مصر ليغامر فى حوادث الشام ، ويحقق تلك الأغراض الجديدة التى استقرت فى نفسه بعد وفاة نور الدين وخلاصتها أن صلاح الدين أصبح يعتقد بأنه الوريث الفعلى لنور الدين (١) — وهذا واضح من كتبه ورسله للخليفة العباسى ولغيره — وأن واجبه الأسمى هو إجلاء الصليبيين عن بلاد المسلمين . ولعل هذا هو السبب فى أن صلاح الدين لم يتسرع فى جهاد الصليبيين ، وإنما أراد أولا أن يجّهز «المسرح» تجهيزاً حسناً ، حتى إذا بدأ حروبه لم تكن غايتها مجرد مبادلة الهزيمة والنصر وإنما طرد الصليبيين نهائياً من أرض الشام . والواقع أنه لو لم يتدخل صلاح الدين فى أمور الشام لانقسمت أملاك نور الدين إلى إقطاعات صغيرة وعجز الشرق الأدنى عجزاً تاماً عن مقاومة الصليبيين ، وهذا هو الاتجاه الذى بدا واضحاً بعد وفاة نور الدين .

وبالرغم من ذلك فان صلاح الدين لم يتسرع بالسفر إلى الشام وظل فى مصر حوالى خمسة أشهر ، ومرجع ذلك أنه أراد أن ينتظر حتى تسنح الفرصة المناسبة للانتقال إلى الشام (٢) — كما سبق القول — بدعوة من السلطان إسماعيل أو من بعض أمرائه حتى ينفى عن نفسه تهمة الهجوم والعدوان ، وهذا واضح من مكاتبته لإسماعيل عند مهاجمة غازى

---

(١) Stevenson P. 205

(٢) Ibid P. 209

والصليبيين لأملاكه مظهراً استعداده للحضور إلى نجدته .

على أن انتظار صلاح الدين لتلك الفرصة لم يكن السبب الوحيد لبقائه فى مصر إذ تعرّض صلاح الدين خلال تلك المدة لأزمتين كبيرتين لم يستطع إزاءهما ترك مصر إلى الشام. أما أولاهما فكانت ذيلا لمؤامرة عمارة اليمنى وسببها أن أخبار القضاء على تلك المؤامرة فى مهدها لم تصل وليم الثانى النورمانى ملك صقليه وإن كانت قد وصلت إلى مملكة بيت المقدس وإلى الاسماعيلية الذين سبقت الاشارة إلى اتفاقهم مع زعماء المؤامرة على مهاجمة الشواطىء المصرية فى الوقت الذى تكون الثورة فيه قد أعلنت فى القاهرة(١) . أما ملك بيت المقدس فقد علم بسقوط المؤامرة فلم يتحرك من فلسطين(٢) . وأما وليم الثانى النورماندى فقد بعث بحملة إلى الاسكندرية حسب اتفاقه المبيّت مع المتآمرين. ووصلت الحملة إلى الاسكندرية فى يوليو سنة ١١٧٤ (ذى الحجة سنة ٥٦٩ هـ) على حين غفلة من أهلها — كما يقول ابن الأثير(٣) . وتقدم رجالها إلى المدينة فنصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات وأسرع أهل الاسكندرية بإخبار صلاح الدين ومضى اليوم الأول والأسكندريون يقاومون فى بسالة وصبر وفى اليوم الثانى وصل لنجدتهم من الجيش المصرى من كان إقطاعه قريباً من الاسكندرية(٤) . فشجع ذلك الاسكندريين على المضى فى

(١) أنظر الفصل الرابع

(٢) Stevenson P. 203

(٣) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٨٦

(٤) نفس المرجع السابق .

المقاومة . أما صلاح الدين فقد وصله الخبر وهو على فاقوس(١) فأسرع بإرسال رسول من قبله إلى الاسكندرية ليبلغ بقرب وصوله ، ثم بعث بفريق من جيشه إلى دمياط(٢) . خوفا من أن تكون قد وصلت إليها حملة صليبية أخرى — وهذا مثال واضح لمدى يقظة صلاح الدين ومقدار أفادته من خبراته السابقة . ووصل رسوله إلى الاسكندرية عصر اليوم الثالث والاسكندريون منصرفون من المعركة فنادى الرسول بقرب مجيء صلاح الدين فلما سمع الناس نداءه عادوا إلى القتال وقد زال مابهم من تعب وألم ، وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه ، فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله ، وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين فى عسكره فسقط فى أيديهم وازدادوا تعباً وفتوراً ثم هاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا إلى خيامهم فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة ،(٣) وكانت نتيجة ذلك أن هزم النورمان وغادروا الاسكندرية مخفقين قبل أن يصل إليها صلاح الدين(٤) .

تلك هى الأزمة الأولى التى صادفها صلاح الدين فى مصر فى أواخر سنة ١١٧٤ . أما الأزمة الثانية فقد كانت فى أسوان وقوص وسببها أن كنز الدولة وهو مصرى من الصعيد نزح إلى أسوان(٥) . بعد فتنة

(١) المقريزى ، السلوك ج ١ ص ٥٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ج ١ ص ٦٢١ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ج ١١ ص ١٨٦ . راجع أيضا العماد (الروضتين ج١ ص ٢٣٤—٢٣٥ ، ابن واصل مفرج الكروب ج١ ص ٦٢ .

(٣) نص كلام ابن الأثير فى الكامل ج١١ ص١٨٦ وابن شداد سيرة صلاح الدين ص ٣٨ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٧ ، الروضتين ج١ ص ٢٣٥ .

(٥) ابن واصل مفرج الكروب ج ١ ص ٦٢—٦٣ .

مؤتمن الخلافة نجاح ، واستطاع هناك أن يجمع حوله بقايا الجنود السودانية وغيرهم من أنصار الدولة الفاطمية ولما أنس كنز الدولة من نفسه القوة لمناهضة صلاح الدين ، قام بحركة يبغى بها إعادة الدولة الفاطمية(١) فقتل بعض أمراء صلاح الدين فى تلك الجهات. وفى الوقت نفسه خرج عباس بن شادى فى قرية طود واستولى على بعض بلاد قوص فأرسل صلاح الدين إلى هذين الخارجين أخاه الملك العادل بجيش كثيف وما زال العادل حتى قتل ابن شادى وبدّد جموعه ثم التقى العادل بكنز الدولة فى طود وقتله أيضاً(٢) وانتهت تلك الحركة كلها فى سبتمبر سنة ١١٧٤ (صفر سنة ٥٧٠ هـ) .

وإذن فقد كانت ظروف صلاح الدين مواتية وبدت خالية من المشاغل الداخلية عندما وصلته رسل ابن المقدّم تطلب حضوره لتسلم دمشق. على أن صلاح الدين لم يكتف بتلك الدعوة كحجة يبرر بها سفره إلى الشام ، بل أخذ يذيع بين الناس أنه إنما يريد أن يكون بجانب ابن سيده المتوفى ليحافظ على أملاكه من الطامعين والمغامرين ، وليرد له جميل والده القديم عليه وعلى أسرته (٣) .

وفى استطاعة الباحث أن يعرف الأسباب التى تذرع بها صلاح الدين للذهاب إلى الشام — كما ذكرها بنفسه — من إحدى رسائله إلى الخليفة العباسى . وفى إحدى تلك الرسائل برّر صلاح الدين مغادرته مصر إلى

---

(١) المقريزى ، السلوك ج ١ ص ٥٨ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) انظر ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٨٨ .

الشام بما أصبحت عليه الدولة النورية من تشعب الآراء وتشتت الأمور وطمع أمراء نور الدين فيما تحت أيديهم من أملاك ، تلك الحالة التى لابد من أن تزيد من أطماع الصليبيين فى بلاد المسلمين . واحتج صلاح الدين فى تلك الرسالة بالقبض على كبار أمراء نور الدين فى حلب ومنهم ابن الداية وإخوته وبما وصله من قيام بعض أمراء دمشق بالتقرب إلى الصليبيين . كما أعلن صلاح الدين بأنه عزم على جهاد الصليبيين وهو ما لا يستطيع أن يقوم به خير قيام دون أن يكون قريبا من أملاكهم أى فى بلاد الشام نفسها ، وكان ختام تلك الأسباب التى تذرع بها صلاح الدين أنه يريد أن يحفظ السلطان إسماعيل ممن يحيطون به من أمراء « يأكلون الدنيا بإسمه ويظهرون الوفاء فى خدمته وهم عاملون بظلمه (١) » .

والقارىء لتلك الرسالة يلحظ إلى أى حد عمل صلاح الدين على أن يكسب الرأى العام الإسلامى وذلك بإعلانه الجهاد ضد الصليبيين ، وحملته على الأمراء النوريين الذين التجأوا إليهم أو تحالفوا معهم ، ثم بإعلان سخطه واستيائه من أعمال كمشتكين وقبضه على ابن الداية وأخوته وغيرهم من أمراء نور الدين ، وهذا عدا ظهوره بمظهر المدافع عن مصالح السلطان إسماعيل الحافظ لحقوقه الذاكر لحق أبيه نور الدين عليه.

ومن ذلك يتضح أن صلاح الدين نجح فى أن يحوّل الأمر من مسألة خاصة تهمه بالذات إلى مشكلة عامة تهم الجميع . وبذلك استطاع أن يكسب القلوب وأن يشعر المعاصرين بأن نجاحه إنما هو نجاح للفكرة الاسلامية

---

(١) راجع هذه الرسالة فى الروضتين جـ ١ ص ٢٤١ — ٢٤٣ .

وأن فشله يهدد قواهم المتحدة بالانحلال ويعرض أملاك المسلمين للضياع على أيدى الصليبيين . وهذا عامل آخر من عوامل نجاح صلاح الدين إذ نجح فى الظروف التى فشل فيها غازى . لأنه سار على السياسة التى يرتضيها المعاصرون والتى تشبع رغباتهم المكبوتة ، على حين لم يستطع غازى أن يفهم تلك الروح أو أن يسير على تلك السياسة .

والخلاصة أن صلاح الدين أخذ يتجهز للسفر فى النصف الثانى من سنة ١١٧٤ (أوائل سنة ٥٧٠ هـ) وكانت رسل ابن المقدم وابن جاولى صاحب بصرى لا تزال مقيمة بمصر تستحثه على الأسراع (١) . وترك صلاح الدين على مصر أخاه الملك العادل (٢) ثم خرج إلى بركة الفيل وانتظر هناك حتى اجتمعت عساكره ثم رحل منها إلى بلبيس ثم إلى بصرى (٣) حيث رحب به حاكمها ومنهـا خرج إلى صرخـد ثم إلى دمشق (٤) فدخلها فى آخر أكتوبر من تلك السنة (ربيع الآخر سنة ٥٧٠ هـ) وقد دخل صلاح الدين دمشق بعد مقاومة يسيرة (٥) وهذا واضح من إحدى الرسائل الدورية التى كان يكتبها القاضى الفاضل إلى

(١) العماد الروضتين جـ ١ ص ٢٣٦ .

(٢) المقريزى السلوك جـ ١ ص ٥٨ .

(٣) يرسم المقريزى خط سير صلاح الدين إلى الشام بشكل مختلف فيقول أنه نزل أولا بالجب وهو متنزه يقع بظاهر القاهرة من الجهة الشمالية ثم سار إلى قلعة صدر ثم إلى إيكه فبصرى . راجع السلوك جـ ١ ص ٥٨ .

(٤) Grousset P. 621.

(٥) يقول أبو المحاسن (النجوم جـ ٦ ص ٨٣) أن ريحان الخادم عزم على قتال صلاح الدين وجهز لذلك الغرض جيشاً . فلما التقى بصلاح الدين نثر صلاح الدين على جيش ريحان الدراهم والدنانير . فلم يغلق فى وجهه باب ولا منعه مانع .

مصر على لسان صلاح الدين(١) ومما يستحق الذكر أن صلاح الدين لم يكد يدخل دمشق حتى ذهب إلى دار العقيقى (٢) وهى مسكن أبيه أيام إقامته بدمشق .

ثم بدأ صلاح الدين بمكاتبة جمال الدين ريحان حاكم القلعة بدمشق حتى أقنعه بتسليمها (٣) . ثم تسلّمها فعلا وأنزل بها أخاه ظهير الدين طغتكين (٤) وأخذ صلاح الدين من بعد ذلك يذيع أسباب مجيئه ويؤكد أنه إنما جاء ليقيم بجانب ابن سيده المتوفى وحمايته من ابن عمه غازى وغيره من الأمراء المستبدين بشئونه . وكذلك أصدر أوامره بإزالة المكوس والمظالم وإصلاح الحال التى اختلفت وتغيرت من بعد وفاة نور الدين (٥) ، وهذه هى الخطة نفسها التى سار عليها غداة توليه الوزارة فى مصر .

استقرت إذن قدم صلاح الدين فى دمشق . فماذا كان موقف سعد الدين كمشتكين منه ، لقد سمع كمشتكين بما ناله صلاح الدين من نصر وتأييد فأشفق هو ومن يؤيده من أمراء نور الدين بحلب على أنفسهم وخافوا أن يقصدهم (٦) ولذلك أجمعوا رأيهم على أن يكتبوا إليه يخوّفونه ويهددونه ويتهمونه بالاعتداء على ابن سيده صاحب الفضل عليه، وحمّلوا

(١) راجع الروضتين جـ ١ ص ٢٣٦ .
(٢) ابن خلدون ، العبر جـ ٥ ص ١٨٩ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل جـ ١١ ص ١٨٨ .
(٤) المقريزى السلوك ج ١ ص ٨٥ .
(٥) نفس المصدر .
(٦) ابن أبى طى (الروضتين جـ ١ ص ٢٣٧) .

ما كتبوا لقطب الدين ينال بن حسان المنبجي — وهو أحد القواد الذين أرسلهم نور الدين إلى مصر فى الحملة الثالثة وكانت رسالة أرعد فيها الأمراء النوريون وأبرقوا ، على حد قول ابن أبي طى (١) إذ قالوا فيها أن السيوف التى ملكته مصر بأيديهم والرماح التى حوى بها قصور المصريين على أكتافهم ، هى التى ستصده وترده عن حلب وترجعه إلى طوره وحده (٢) .

ثم وصل المنبجي إلى دمشق بعد استيلاء صلاح الدين عليها بقليل يحمل تلك الرسالة . وكان صلاح الدين لبقا حقاً حينما خرج للقائه خارج المدينة (٣) مبالغة فى إكرامه والترحيب به ، على أنه تركه دون أن يقابله (٤) ثلاثة أيام . ثم أحضر المنبجي إلى صلاح الدين ، فذكر ما فى الرسالة واتهم صلاح الدين بافتئاته على حقوق السلطان إسماعيل وطمعه فى أملاكه . لكن صلاح الدين أغضى عن كل ما سمع — شيمة الرجل القوى الواثق من نفسه — وأكد للمنبجي أنه لا يريد ملكا لنفسه وأنه لم يحضر إلى الشام إلا لجمع الكلمة « وتهذيب الأمور وحياطة الجمهور وسد الثغور وتربية ولد نور الدين وكف عادية المعتدين (٥) ، وانتهت

---

(١) المرجع السابق.

(٢) نفس المرجع . وراجع أيضاً العماد (المرجع نفسه ص ٢٤٠) والحنبلى شفاء القلوب ص ٢٢ .

(٣) العماد الأصفهانى (الروضتين ج ١ ص ٢٤٠) .

(٤) ابن أبى طى المرجع نفسه .

(٥) نص كلام ابن أبى طى بالروضتين ج ١ ص ٢٣٨ . راجع الحنبلى (شفاء القلوب ص ٢٢) حيث يقول أن صلاح الدين غضب لدى سماعه لكلام المنبجي وهم بأن يقتله لولا أنه رسول إليه .

المقابلة بين الرجلين دون أن يستطيع أحدهما إقناع الآخر فعاد المنبجي إلى حلب غاضباً . وفهم صلاح الدين من ذلك أن كمشتكين لن يسلم له بالوصاية على الصالح اسماعيل . وعندئذ صمم على غزو الشام.

والواقع أن الأسباب التى أعلنها صلاح الدين لتبرير مجيئه إلى الشام ولو أنها ظاهرية ، كانت كافية لإغضاب أولئك الأمراء . فليس هناك معنى لرغبته فى الوصاية على إسماعيل إلا أنه يريد أن يطرد من حوله من الأمراء . وهذا السبب وحده كاف لإثارة المشاكل بينه وبينهم وقد عمد كمشتكين ومن معه من الأمراء إلى محاربة صلاح الدين بنفس السلاح الذى اختاره لمحاربتهم . إذ أذاعوا أن صلاح الدين جاء ليستحوذ على أملاك السلطان اسماعيل . ومعنى ذلك أن ذلك السلطان الطفل أصبح ستاراً للفريقين كل يدعى أنه يعمل لمصلحته ويدافع عن أملاكه والحقيقة أن مصلحة اسماعيل كانت آخر ما يفكر فيه الجميع .

ثم خرج صلاح الدين من دمشق فى أواخر سنة ١١٧٤ متجهاً إلى حمص فوصلها فى ٨ ديسمبر (١١ جمادى الأولى سنة ٥٧٠ هـ) ولم تلبث المدينة أن سلّمت إليه وامتنعت عليه القلعة (١) . غير أن صلاح الدين لم يشأ أن يضيع وقته عليها فترك عليها من يحاصرها ثم غادرها إلى حماه ووصل إلى تلك المدينة فى ٢٨ ديسمبر (أول جمادى الثانى) فخرج إليه صاحبها عز الدين جرديك — وهو زميله القديم فى القبض على الوزير شاور وقتله — وسلّمه حماه دون قلعتها التى لم تكن تحت يده ، وذلك بعد أن استحلفه أن يكون وفياً للسلطان اسماعيل(٢) . ثم اتفق الاثنان على

(١) المقريزى السلوك ج ١ ص ٥٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٦٣ .

أن يكون جرديك سفيراً بين صلاح الدين وبين مدينة حلب لإقرار الصلح ومنع القتال . فلما وصل جرديك إلى حلب وفاتح كمشتكين فى أمر الصلح اتهمه كمشتكين بممالأته لصلاح الدين وقبض عليه (١) . وأودعه الجب الذى أودع فيه ابن الداية واخوته . أما صلاح الدين فقد ظل ينتظر أوبة جرديك حتى وصل أحد غلمانه وأخبره بما حدث فعاد إلى حماة ونجح تلك المرة فى أخذ قلعتها(٢) . وولى عليها أحد رجاله ثم غادرها إلى حلب .

ووصل صلاح الدين إلى ظاهر حلب فى ٣٠ ديسمبر سنة ١١٧٤ (٣ جمادى الأول الثانى) ونشر أعلامه . فخشى كمشتكين أن يسلم إليه الحلبيين المدينة — كما حدث فى دمشق — وأخذ يستثير حماسة الناس كما أشار على الصالح أن يخطبهم . ومن أجل ذلك أمر كمشتكين أن يجتمع الناس فى أحد الميادين العامة وقف الصالح فى رأس الميدان وخطبهم خطبة قصيرة(٣) . ولكنها مؤثرة إذ أخنقته العبرة خلال كلامه . فعلا تشيج الناس واشتد صياحهم وأعلنوا فى صوت واحد الوقوف إلى جانبه ضد صلاح الدين(٤) . ولم تقتصر سياسة كمشتكين إزاء الحلبيين على ذلك

(١) المقريزى السلوك ج ١ ص ٥٨ . ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٨٨ .

(٢) راجع ابن أبى طى (الروضتين ج ١ ص ٢٣٨) .

(٣) نص تلك الخطبة حسبما وردت فى الروضتين ج ١ ص ٢٣٨ هو « يا أهل حلب أنا ربيبكم ونزيلكم واللاجىء إليكم كبيركم عندى بمنزلة الأب وشابكم عندى بمنزلة الأخ وصغيركم عندى يحل محل الولد ثم خنقته العبرة وسبقته الدمعة وعلا نشيجه فافتتن الناس وصاحوا صيحة واحدة ورموا بعمائمهم وضجوا بالبكاء والعويل وقالوا نحن عبيدك وعبيد أبيك نقاتل بين يديك ونبذل أموالنا وأنفسنا لك .

(٤) يقول ابن الأثير أن صلاح الدين لما حاصر حلب ركب الملك الصالح وجمع =

بل تساهل مع الشيعة وترك لهم حرية العمل بمذهبهم فجهروا « لأول مرة بعد وفاة نور الدين ، بحي على خير العمل وبذكر الأئمة الاثنى عشر أمام الجنائز(١) وهكذا أى أن ما كان يحاربه نور الدين فى حياته : استباحة الوصى على ابنه بعد وفاته لا اسبب إلا لكى يستقل ذلك الابن وينفذ بإسمه أغراضه . وقد أراد صلاح الدين أن يقاوم تلك الخطة الماهرة فأعلن من جديد أنه جاء لاستخلاص ابن الداية من سجنه . ولعل صلاح الدين كان يؤمل أن ينضم إليه أنصار ذلك الأمير من أهل حلب ولكن ذلك لم يجد نفعاً فى دخوله المدينة .

على أن كمشتكين لم يعتمد فقط على الحلبيين بل ظل يحيك الدسائس ويدبر المؤامرات للقضاء على صلاح الدين. ومن ضمن ما فكر فيه ونفذه للوصول إلى ذلك الغرض أنه راسل سنان مقدم الحشيشية — وهو الذى سبق أن استعان به عمارة اليمنى قبل أن يقبض عليه ويشنق(٢) — للفتك بصلاح الدين نظير عدد من القرى ومبلغ من المال(٣) . كما استعان برايمند الثالث(٤) . الوصى على بلدوين الرابع ملك بيت المقدس . أما سنان فقد أرسل جماعة من رجاله اختلطوا بجيش صلاح الدين ولكنهم

= اهل حلب وقال لهم : قد عرفتم إحسان أبى إليكم ومحبته لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم وقد جاء هذا الظالم (صلاح الدين) الجاحد إحسان والدى إليه يأخذ بلدى ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق وقال من هذا كثير وبكى فأبكى الناس فبذلوا له الأموال والأنفس واتفقوا على القتال دونه والمنع عن بلده . راجع ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٨٩

(١) راجع الروضتين ج ١ ص ٢٣١ — ٢٣٩ .

(٢) راجع ما سبق ص ١٢١ .

(٣) ابن أبى طى (الروضتين ج ١ ص ٢٣٩) .

(٤) Grousset vol II P. 622 . ابن خلدون العبر ج ٥ ص ٢٩٠ .

فشلوا فى اغتياله . وأما رايمند الثالث فقد قصد إلى حمص التى سبق القول بأنها خضعت لصلاح الدين وكان رسول رايمند إليها فى أول فبراير سنة ١١٧٥ (٦ ربيع الأول) فاضطر صلاح الدين إزاء ذلك إلى رفع الحصار عن حلب لملاقاة رايمند على حمص وكان وصوله إليها فى اليوم التالى كافياً لرحيل الصليبيين عنها ورجوعهم من حيث أتوا(١) . واغتنم صلاح الدين تلك الفرصة فاستولى على قلعة حمص وهى التى ظلّت على مقاومته حتى ذلك الوقت . ثم أقطع المدينة وقلعتها لابن عمه محمد بن شيركوه (٢) . وفى ذلك ما يستدعى الالتفات لأن تلك المدينة كانت إقطاع شيركوه أيام خدمته فى بلاط نور الدين ثم استردها نور الدين من نوابه بعد أن علم باستقرار صلاح الدين فى مصر (٣) . فكأن صلاح الدين قد أراد أن يرد بذلك اعتبار الأسرة الأيوبية . ثم استولى صلاح الدين على قلعة بعلبك بعد أن يئس حاكمها من معونة حلب (٤) وهكذا فشل كمشتكين فى القضاء على صلاح الدين وهو فى بداية مغامراته بأرض الشام ولكنه نجح — على كل حال — فى فك حصار حلب .

لم يشأ صلاح الدين بعد ذلك أن يخفى نياته تحت ستار المطالبة بالوصاية على إسماعيل بل عزم على أن يجاهر باستقلاله (٥) ولهذا أرسل

---

(١) المقريزى السلوك ج ١ ص ٥٩ . ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٨٩ .
(٢) راجع ابن الأثير وابن خلكان الوفيات ج ١ ص ٢٢٧ .
(٣) انظر الفصل الرابع .
(٤) المقريزى السلوك ج ١ ص ٥٩ .
(٥) Grousset vol II P, 626

إلى الخليفة العباسى رسالة طويلة (١) على يد الخطيب ابن البيضاء (٢). وذكر له فيها ما له من الأيادى البيضاء على المسلمين فى حياة نور الدين وبعد وفاته وعدد الخدمات التى أدّاها للخلافة العباسية وطلب فى ختامها أن يقلده الخليفة المستضىء تقليداً جامعا لمصر واليمن والمغرب والشام وجميع ما اشتملت عليه المملكة النورية وكل ما يفتحه بسيفه. ومما يدل على أن صلاح الدين كان يريد أن يؤسس لأسرته لا لنفسه فقط أنه طلب أيضاً أن يكون التقليد بحيث يشمل من يجىء بعده من بنى أيوب.

وهذه الرسالة فى الواقع لا تمكن المبالغة فى أهميتها بالنسبة لموضوع هذا البحث فقد استعرض فيها القاضى الفاضل - على لسان صلاح الدين - جهاد بنى أيوب منذ إقامتهم بالشام فى خدمة نور الدين وأهمية هذه الرسالة لا تقتصر فقط على أنها كشفت نوايا صلاح الدين التى حرص على إخفائها طوال تلك المدة. وإنما هى فوق ذلك وثيقة هامة على جميع خطوات الأسرة الأيوبية وفيها يكشف القاضى الفاضل أيضا عن صفحة مجهولة من شباب صلاح الدين قيل أنه قضاها خاملا والحقيقة هى العكس تماما إذ يقول «كان أول أمرنا أن كنا فى الشام لفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا ونجاهد الكفار متقدمين لعساكرنا نحن ووالدنا وعمنا فى أى مدينة فتحت أو معقل ملك أو عسكر للعدو كسر أو مصاف للإسلام معه ضرب فما يجهل أحد صفّنا ولا يجحد عدونا أننا نصطلى الجمرة ونملك الكرّة ونتقدم الجماعة ونرتب المقاتلة وندبر التعبئة إلى أن

(١) راجع نص هذه الرسالة بالروضتين ج ١ ص ٢٤١ — ٢٤٣ وأنظر تلخيصها أيضا فى المقريزى: السلوك ج ١ ص ٥٩ — ٦٠.

(٢) زيادة (السلوك ج ١ ص ٦ حاشية ١).

ظهرت فى الشام الآثار التى لنا أجرها ولا يضيرنا أن يكون لغيرنا ذكرها (١) .

هذه سطور من تلك الرسالة الهامة يكشف فيها صلاح الدين لأول مرة عن جهاده وجهاد أبيه وعمه فى سبيل المسلمين ذلك الجهاد الذى يقول عنه إنه لا يضره أن يكون لغيره ذكره — وهو يقصد هنا نور الدين — ما دام له عند الله أجره . فاذا تحدثت الرسالة بعد ذلك عن فتح مصر ذكر القاضى — فى عبارة لا تقبل الشك — ما يفيد بأن بنى أيوب فكّروا فى الاستيلاء على مصر وهم لا يزالون فى بلاط نور الدين وذلك حيث يقول «وكانت أخبار مصر تأتينا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير وبما دولتها عليه من غلبة صغير على كبير (٢) » وبعد أن وصفت الرسالة حالة مصر الداخلية فى ذلك الوقت وصفاً يدل على تمام علم الأيوبيين بها يقول صلاح الدين «فسمت همتنا دون همم أهل الأرض إلى أن نستفتح مقفلها ونسترجع للإسلام شاردها وتعيد على الدين ضالته منها (٣) » ولعل فى هذا كله ما يؤيد ما سبق قوله فى هذا البحث من طمع الأيوبيين فى مصر ورغبتهم فى ملكها وهم لا يزالون بالشام .

ثم تمضى الرسالة بعد ذلك فتبين أن بنى أيوب فتحوا مصر بأموالهم الخاصة لا بأموال نور الدين وفى ذلك الصدد يقول القاضى على لسان صلاح الدين « فسرنا إليها فى عساكر ضخمة وجموع جمة وبأموال انتهكت الموجود وبلغت منا المجهود وأنفقناها من حاصل ذمتنا وكسب

---

(١) راجع الروضتين ج ١ ص ٢٤١ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ٢٤١ .

(٣) نفس المصدر .

أيدينا ومن أسارى الفرنج الواقعين فى قبضتنا(١) » وعلى الجملة فان رسالة صلاح الدين إلى الخليفة العباسى المستضىء بالله تعتبر وثيقة هامة إذ تكشف عن كل خطوة خطاها صلاح الدين وبنو أيوب بصفة عامة فتلقى بذلك ضوءاً كبيراً على موضوع قيام دولتهم فى مصر .

ومهما يكن من شيء فقد اختلف الوضع بعد أن أعلن صلاح الدين استقلاله وطلب من الخليفة العباسى تقليده السلطنة إذ اختلفت تبعاً لذلك سياسته . فقد كان أولا يحارب باسم اسماعيل أو بمعنى أدق بدعوى حمايته ويدعى أنه إنما جاء لنصرته والدفاع عنه فلما فشل فى الوصول إلى أغراضه عن ذلك الطريق سلك طريقاً آخر هو طريق العمل العانى فقطع اسم الصالح اسماعيل من الخطبة وحذفه من العملة بالقاهرة ودمشق وقد يبدو أن صلاح الدين لم يكن فى حاجة إلى من تقليد الخليفة العباسى أو غيره . وهذا صحيح من الناحية العملية . ولكنه وجد من ناحية أخرى أنه لا بد من الحصول على ذلك التقليد تثبيتاً لمركزه شرعيا أمام المعاصرين .

وكان لتلك السياسة رد فعل بالنسبة للبيت الزنكى الأتابكى . فقد وضحت لأفراد ذلك البيت نوايا صلاح الدين على حقيقتها وفى صورة لا تقبل الشك أو الجدل وعرفوا تماما ماذا يريد صلاح الدين بهم وبأملاكهم ومن ثم تجمعوا لمقاومته(٢) . ومما يدل على ذلك تمام الدلالة أن سيف الدين غازى وهو الذى آثر الابتعاد عن مشاكل الشام وقنع بما استولى عليه من أملاك نور الدين لم يستطع أن يقف مكتوف اليدين

(١) نفس المصدر .

(٢) Grousset vol II p. 628

أمام الوضع الجديد ووجد أنه لا بد من تضافر أفراد البيت الزنكى لمقاومة صلاح الدين والقضاء عليه قبل أن يقضى هو عليهم ، ويبدو أن صلاح الدين خشى عاقبة اتحادهم فبدأ يوقع بينهم . والمثل الواضح على ذلك ما فعله صلاح الدين مع زنكى أخى غازى . إذ أرسل إليه يطمعه فى الملك ويوحى إليه بأحقيته فيه(١) . فأثار بذلك كامن النزاع بين الأخوين وأوجد برسالته فى صفوفهما ثغرة وكان ذلك عاملا آخر من عوامل نجاحه فى النهاية .

والخلاصة أن غازى أحس أن صلاح الدين قد استفحل أمره وخاف إن هو غفل عنه أن « يستحوذ على البلاد ويستقر قدمه فى الملك (٢) » . وفى نفس الوقت وصلت إليه رسل السلطان اسماعيل وكتبه بطلب النجدة فجهز غازى من أجل ذلك عسكراً كثيفا جعل عليه أخاه الآخر مسعوداً(٣) . وسار الجيش إلى حلب وغايته القضاء على صلاح الدين وإيقافه عند حده وهناك انضم إليه جيش اسماعيل وانتظر الجميع المعركة .

كان صلاح الدين فى ذلك الوقت فى حمص(٤) فوصل إلى علمه ما أعد له ولم يكن على استعداد للاشتباك معهم . ولكنه لم يشأ أن يتراجع فيطمع فيه عدوه ولذلك أرسل يطلب المدد من مصر . ولكى يحول بين أعدائه وبين مهاجمته خلال فترة الانتظار أرسل يفاوضهم فى طلب الصلح

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٩٠ .

(٢) ابن شداد . سيرة صلاح الدين ص ٣٩ .

(٣) ابن خلكان . الوفيات ج ٢ ص ٩٤ .

(٤) المقريزى السلوك ج ١ ص ٥٩ .

واشتط المواصلة والحلبيون فى شروطهم وهو يؤخرهم ويطاولهم فاذا عزموا على لقائه أبطل عزيمتهم « بمراسلة يفتعلها تسويفاً للوقت وقطعاً للزمان » — على قول ابن أبى طى(١) — وبلغ صلاح الدين الأمر أنه عرض عليهم أن يتنازل عن حمص وحماة وبعلبك على أن يبقى بدمشق نائباً للسلطان اسماعيل فيها(٢) . وبالرغم من ذلك فان غازى واسماعيل لم يقبلا ذلك العرض السخى . وقد عمل صلاح الدين خلال تلك الفترة أيضاً على أن يفسد جيش أعدائه فكتب إلى فريق منهم يغريهم بالانضمام إليه ويبدو أنه نجح فى إقناعهم فكانوا عند اللقاء من دعاة الهزيمة والفرار(٣) . وهكذا وجد صلاح الدين نفسه فى ذلك الموقف الحرج فاحتال وفكر وقدر حتى خرج منه ظافراً .

وأخيراً وصل المدد المنشود وفى الوقت المناسب أى عند بدء المعركة وعلى رأسه فرخشاه وتقى الدين عمر وغيرهما من شباب البيت الأيوبى وبدأت المعركة عند قرون حماة فى ١٣ أبريل سنة ١١٧٥ (١٩ رمضان سنة ٥٧٠ هـ) وانتهت بانتصاره . كما هو معروف .

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٤٩ .

(٢) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١١٠ .

(٣) ابن أبى طى الروضتين ج ١ ص ٢٥٠ .

(٤) يقول ابن شداد (سيرة صلاح الدين ص ٤٠) . لما وقعت هذه الواقعة (قرون حماة) كان سيف الدين على سنجار يحاصر أخاه عماد الدين بقصد أخذها منه ودخوله فى طاعته وكان قد أظهر أخوه الانتماء إلى السلطان (صلاح الدين) واعتصم بذلك واشتد سيف الدين (غازى) فى حصار المكان وضربه بالمنجنيق حتى انهدم من سوره ثلم كثيرة وأشرف على الأخذ فبلغه وقوع هذه الوقعة فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشتد أمره فراسله إلى الصالح فصالحه .

ويرجع السبب فى انتصار صلاح الدين إلى النزاع بين غازى وأخيه زنكى(١) . فقد شغل غازى فى ذلك النزاع عن حضور المعركة بنفسه ثم يرجع ذلك الإنتصار أيضا إلى جهل قائد غازى وهو المعروف بزلفندار(١) وهذا عدا ما انعقد لصلاح الدين من هيبة ملأت صدور المعاصرين «ولو لا ذلك لكانوا قد ناهزوا الفرصة ونالوا منه الغرض» كما يقول ابن أبى طى(٢) .

وكانت نتيجة تلك المعركة أن وضح للسلطان اسماعيل ولابن عمه غازى أن لا جدوى فى مقاومة صلاح الدين وأن الصلح معه خير وأبقى فأرسل اسماعيل إلى صلاح الدين رسله يطلب الهدنة وانتهى الأمر بالاتفاق على أن يكون للصالح اسماعيل ما هو جار تحت حكمه فى شمال الشام إلى حماة والعمرة وكفر طابه(٣) . وأن يكون صلاح الدين عونا له على كل عدو وأن يستمر الدعاء له على المنابر وأن تظل العملة باسمه وقفل صلاح الدين بعد تلك الهدنة راجعا إلى دمشق . فلم يكد يصل إلى حماة فى مايو سنة ١١٧٥ حتى وصلت إليه رسل الخليفة المستضىء ومعهم التشريفات والأعلام والتوقيع من الديوان الخليفى ببغداد بسلطنة صلاح الدين على مصر والشام وغيرهما(٤) . واستولى صلاح الدين وهو فى

(١) راجع ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٩٠ حيث يقول « وكان زلفندار جاهلا بالحروب والقتال غير عالم بتدبيرها مع جبن فيه إلا أنه قد رزق سعادة وقبولا من سيف الدين (غازى) » .

(٢) الروضتين ج ١ ص ٢٥٠ .

(٣) المرجع السابق . وهنا يقول ابن أبى طى أن صلاح الدين اقترح أولا حداً فاصلا بين أملاك الفريقين فرفض السلطان اسماعيل ذلك ولم يوافق على الهدنة إلا بعد أن أضيفت إليه مع حماة المصرة وكفر طابه .

(٤) العماد (الروضتين) ج ١ ص ٢٥٢ ، المقريزى السلوك ج ١ ص ٦٠ .

طريقه على حصن باريه حتى إذا وصل دمشق جاءته رسل الصليبيين يطلبون الهدنة أيضا(١) — وهو ما كان يريده صلاح الدين — فوافق على طلبهم. وكان العام مجدبا فأذن صلاح الدين لجيشه بالرحيل إلى مصر. أما هو فقد ظل فترة يواظب على الجلوس بدار العدل بدمشق وعلى الصيد(٢) فى أرباضها وضواحيها.

وهنا يبدو أن صلاح الدين قد حقق ما انطوت عليه الأيام وأن قيام الدولة الأيوبية فى مصر قد أصبح حقيقة واضحة بعد أن اعترف الخليفة العباسى بسلطنة صلاح الدين وبعد أن قبل السلطان اسماعيل وابن عمه غازى تملك صلاح الدين لما تحت يده من أملاك. غير أن الصلح مع غازى واسماعيل لم يستمر طويلا مما دعا صلاح الدين إلى استئناف النضال فى سبيل دولته الناشئة من جديد. ذلك أن غازى نقض الاتفاقية بعد عام واحد من إبرامها وكان صلاح الدين مطمئنا إلى تلك الاتفاقية ولذلك سمح لجيشه بالسفر إلى مصر. وقد علم صلاح الدين بذلك عندما وصلت إليه نسخة من يمين الحلبيين المواصلة بنقض الاتفاقية(٣). وانتهز صلاح الدين تلك الفرصة وأراد أن يدعو لنفسه كزعيم للمسلمين لا يبغى إلا إجلاء الصليبيين عن بلادهم فكتب إلى الخليفة العباسى (٤). يخبره بنقض غازى واسماعيل الاتفاقية التى أقسما على احترامها وتنفيذها ومدى ما يصيب الجبهة الإسلامية من جراء ذلك

(١) السلوك ج ١ ص ٥٩.
(٢) العماد الروضتين ج ١ ص ٢٥٢.
(٣) راجع العماد (الروضتين ج ١ ص ٢٥٤) الحنبلى شفاء القلوب ص ٢٣.
(٤) أنظر ذلك الكتاب بالمرجع السابق.

من ضرر ووهن ثم طلب فى كتابه إلى الخليفة أن يصدر أمراً لملوك الأطراف ليرسلوا إلى صلاح الدين بجيوشهم حتى يستطيع أن ينصرف إلى جهـاد الصليبيين وأن يستخلص منهم بيت المقدس « الذى طابت النفوس عن ثاره وطأطأت الرؤوس تحت عاره وصارت القلوب صخرة لا ترق على صخرته والعزائم قاصية عن تطهير أقصاه من رجس الشرك ومعرته » .

ويبدو أن صلاح الدين أراد أن يثير الرأى العام الإسلامى ضد غازى واسماعيل عند ما قال فى نفس الرسالة « فإن قعدت بهم (يقصد غازى واسماعيل) العزائم وأخذتهم فى الله لومة لائم فلا أقل من أن لا يكونوا أعواناً عليه (أى صلاح الدين) يلقنونه عن قصده . حريصين على اتصال المكروه إليه» وفى هذا ما يدل على أن صلاح الدين قدعزم منذ ذلك الوقت على جهاد الصليبيين .

على أن صلاح الدين لم يركن إلى مراسلة الخليفة العباسى ولم يلجأ إليه ليفض ما بينه وبين اسماعيل وغازى من نزاع ، وإنما فعل ذلك فقط ليكسب الخليفة والرأى العام بدليل أنه أرسل فى الوقت نفسه يطالب بالمدد من مصر ليصفى حسابه مع اسماعيل وابن عمه غازى وأتباعهما . ووصل المدد المنشود ورحل صلاح الدين من مصر واتجه شمالا واستعان أعداؤه بالصليبيين — كعادتهم — وأطلقوا من فى أسرهم من رجالهم — عربوناً للصداقة المقبلة — ومنهم رايمند دى شاتيون المعروف فى المراجع العربية باسم أرناط(١) . والتقى الفريقان عند تل السلطان

(١) العماد (الروضتين ج ١ ص ٢٥٥) .

فى ٢٣ أبريل سنة ١١٧٥ (١٠ شوال سنة ٥٧١) وكانت نتيجة المعركة أن هزم جيش غازى واسماعيل ووقع جماعة من كبار أمرائهما فى أسر صلاح الدين . ومما يدل على أن صلاح الدين كان يريد أن يكسب القلوب قبل البلاد وأنه كان يعرف كيف يدعو لنفسه أنه أطلق سراح من وقع فى أسره بل انه خلع عليهم الخلع السنية(١) . فكان ذلك العمل كافياً لأن يغير أولئك الأسرى رأيهم فى صلاح الدين ويرغبون فى العمل تحت لوائه

ويرجع ابن الأثير الهزيمة إلى جهل زلفندار « قائد جيوش غازى » بفنون القتال ويضرب المثل على ذلك بأن زلفندار أمر بوضع الأعلام فى وهدة من الأرض لا يراها من قرب منها . فلما دارت رحى القتال ولم ير رجال الجيش أعلامهم ظنوا أن جيشهم هزم فلم يثبتوا وفروا منهزمين(٢) . وسواء أكان سبب تلك الهزائم المتكررة المتلاحقة راجعاً إلى جهل غازى وقائده بالقتال أم غير ذلك من الأسباب(٣) . فالأمر الواضح هو أن نجم صلاح الدين علا وأن شخصيته أخذت تكتسح ما يقف فى سبيله من الرجال أو العقبات ومما يدل على الفرق الواضح بينه وبين أعدائه ما وجد فى معسكر أولئك الأعداء — بعد هزيمتهم —

(١) ابن شداد ص ٤٣ . المقريزى السلوك ج ١ ص ٦١ .

(٢) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٩٣ .

(٣) يذكر ابن الأثير أيضاً (المرجع السابق) إن وصول جيش صلاح الدين إلى تل السلطان كان بعد وصول غازى إليها — وكان صلاح الدين متعباً وقد نال العطش وطول الطريق من جيشه فاقترح بعض القواد على غازى أن يهاجم فى تلك اللحظة جيش صلاح الدين فلم يوافق زلفندار على ذلك الرأى ورأى أن يؤجل القتال إلى الغد فلما جاء الغد كان جيش صلاح الدين قد استراح فتأتى له بذلك أن ينتصر .

من خمر وعيدان ومغنين ومغنيات(١) . وطيور مختلفة منها القمارى والبلابل والهزار فى أقفاصها(٢) .

وقد أراد صلاح الدين بعد ذلك النصر أن يهاجم حلب للمرة الثانية لأنه لم يعد يثق بأمرائها ولا بعهودهم ومواثيقهم وكانوا - على ما يبدو - يتوقعون منه ذلك العمل فاستعدوا له . وحاصرهم صلاح الدين . فلما ترامى له أن حصار تلك المدينة قد يطول عزم على الإستيلاء على ما حولها ليتسنى له عزلها وسهولة الانتصار عليها . ومن ثم استولى على حصون بزاعة ومنبج(٣) . وعزاز ولكنه ترك الحصن الأخير لإسماعيل إكراماً لأخته خاتون ابنة نور الدين(٤) . وقد أغار الحلبيون عليه وهو يحاصر ذلك الحصن ولكن دون جدوى فاستعانوا عليه من جديد بالحشيشية

---

(١) العماد (الروضتين ج ١ ص ٢٥٥) .

(٢) استدعى صلاح الدين أحد الندماء وسلمه تلك الأقفاص ليوصلها إلى غازى وقال له « سلم منا عليه وقل له عدد إلى اللعب بهذه الطيور فهى سليمة لا توقعك فى مثل هذا المحذور » أنظر المرجع السابق .

(٣) كان على تلك المدينة نيال بن حسان المنبجى أحد القواد الذين ارسلوهم نور الدين إلى مصر مع شيركوه فى الحملة الثالثة . والمعروف أن ذلك القائد اقتنع بوزارة صلاح الدين بعد مفاوضات الهكارى المعروفة . على أن ابن الأثير يقول : « الكامل ج ١١ ص ١٩٤ » أن المنبجى أصبح شديد العداوة لصلاح الدين وانه قاومه على منبج مقاومة عنيفة . ولعل المنبجى ادرك وهو فى مصر مطامع صلاح الدين والأسرة الأيوبية فغادر مصر إلى الشام واشتدت عداوته لصلاح الدين لذلك السبب .

(٤) أرسل إسماعيل أخته خاتون إلى صلاح الدين وهو على حصار حلب لتسأله أن يرد على أخيها عزاز فأعطاها أياها وقدم لها كثيراً من الجواهر والتحف . راجع أبا المحاسن النجوم ج ٦ ص ٧٦ .

ونجا صلاح الدين تلك المرة أيضاً من أيدى أولئك الفدائيين بأعجوبة(١). مما دعا إلى أن يحترس لنفسه بعد ذلك، وكانت تلك الحادثة سبباً فى ازدياد حقد صلاح الدين على أمراء حلب. فلم يكد ينتهى من عزاز حتى حاصر حلب وضيّق على أهلها بل أقطع عسكره ضياعها وأمر بجباية أموالها ومنع أن يدخلها أو يخرج منها أحد(٢). وكان كمشتكين فى تلك الأثناء خارج حلب فى حماة التى انتزعها من أبناء الداية والتى كان يخشى أن يقصدها صلاح الدين بعد عزاز. وخشى كمشتكين أن يتم الصلح وهو بعيد عن حلب فاحتال حتى دخلها وسمح له صلاح الدين بذلك وهو يؤمل أن يكون رسولا للصلح(٣). وتبادل الفريقان الرهائن فعلا. ولكن كمشتكين نكث عهده بعد أن دخل حلب وظل صلاح الدين على حصارها حتى تضايق أهلها وطلبوا الصلح. وكان الصلح يحقق رغبة الطرفين فان الأمراء المحيطين باسماعيل خافوا أن يطول الحصار فيضجر الأهالى ويستسلمون كما أن صلاح الدين رأى أن الوقت لم يحن بعد لاقتحام تلك المدينة الحصينة (٤) فأجابهم إليه وأهم شروطه أن السلطان اسماعيل اعترف بتملك صلاح الدين تملكا شرعياً لجميع ما فتحه من مصر إلى حماة فى شمال الشام وتم ذلك الصلح فى ٢٥ يوليه سنة ١١٧٦ (المحرم سنة ٥٧٢ هـ).

(١) تفاصيل هذه الحادثة بالروضتين ج ١ ص ٢٥٨ . والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٧٦ .
(٢) الروضتين ج ١ ص ٢٥٩ . المقريزى السلوك ج ١ ص ٦٣ .
(٣) نفس المصدر .
(٤) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٩٥ .

ومنذ ذلك الوقت أصبح صلاح الدين ملكا مستقلا على مصر والشام إذ اعترفت له الخلافة العباسية بذلك . كما أقره إسماعيل الوريث الشرعى لنور الدين ولم يعد بعد ذلك من اعتبار سياسى أوشرعى يمكن أن ينقص تلك الحقيقة .

ومنذ ذلك الوقت أيضاً أى منذ سنة ١١٧٦ (المحرم ٥٧٢هـ) أصبح صلاح الدين أقوى حاكم مسلم فى الشرق الأدنى .

وأهم ما فعله صلاح الدين بعد ذلك الصلح أنه حاول القضاء على الحشيشية لمحاولاتهم المتعددة للقضاء عليه . فهاجمهم فى حصنهم مصاب وأوسعهم قتلا وأسراً(١) . حتى شفع فيهم خاله محمود الحارمى . على أن تلك الشفاعة لم تكن وحدها السبب فى رفع الحصار عنهم . بل كان السبب أن الصليبيين أغاروا فى ذلك الوقت على البقاع(٢) . فخرج إليهم ابن المقدم من بعلبك وأوقع بهم وقتل منهم وأسر(٣) . ولهذا خشى صلاح الدين أن يغتنموا فرصة انشغاله ويغيرون على أملاك المسلمين وفى ذلك الوقت كان تورانشاه أخو صلاح الدين قد عاد من اليمن فتركه صلاح الدين على دمشق(٤) . وعاد إلى مصر فى سبتمبر من تلك السنة لينظم أمورها ويحصن حدودها ويجعل منها أداة نافعة فى جهاد الصليبيين واجلائهم نهائياً عن الشام .

---

(١) نفس المصدر ص ١٩٧ وراجع أيضاً السلوك ج ١ ص ٦٣ والروضتين ج ١ ص ٢٦١ .

(٢) أرض واسعة بين دمشق وبعلبك وحمص . أنظر ياقوت ح ١ ص ٢٩٩ .

(٣) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٩٧ .

(٤) المقريزى السلوك ج ١ ص ٦٣ .

والمعروف أن مصر كانت قبل مجيء الأيوبيين إليها خالية من قلعة تحميها فكان لا بد لصلاح الدين من أن يبنى بالقاهرة قلعة يستند إليها خوفا مما يقوم به من أنصار الفاطميين عنده من حركات(١) . وبخاصة وقد وجد نفسه مضطراً لترك مصر إلى الشام لجهاد الصليبيين . وقد انتهز صلاح الدين فرصة وجوده بالقاهرة ليكمل ذلك النقص فبدأ فى بناء(٢) القلعة بعد عودته من الشام مباشرة سنة ١١٧٦ (٥٧٢ ﻫ) ولكن بناءها لم يتم فى حياته والذى تمَّ منها إنما هو هيكلها والبئر الحلزونى الذى حفر فى الصخر داخلها ومما تجب الإشارة إليه أن مبانى صلاح الدين تختلف عمَّا كان موجوداً قبلها . إذ أن تلك المبانى القديمة كانت فى الغالب على النمط البيزنطى لاختلاط العرب بالدولة البيزنطية وأخذهم عنها ، بينما كانت مبانى صلاح الدين على النمط الفرنجى والسبب فى هذا واضح وهو أن صلاح الدين نشأ فى الشام وقضى شبابه فى محاربة الصليبيين . وعرف أساليب دفاعهم وهم فى حصونهم ، فبنى على نمطها . وربما يرجع ذلك أيضاً إلى أنه استخدم الأسرى الصليبيين فى بنائها(٣) . فكان لهم نصيب فى التصميم وطريقة البناء .

كذلك بنى صلاح الدين قلعة المقس وهى برج كبير بنى على النيل وبنيت بالقرب منها أبراج أخرى كلها على النمط الفرنجى . فلما تمت تلك الأعمال أمر صلاح الدين بأن يقام سور يحيط بمصر والقاهره .وقد بنى

---

(١) المقريزى الخطط ج ٣ ص ٣٣٠ .

(٢) ابن الأثير الكامل ج ١١ ص ١٩٨ ، المقريزى السلوك ج ١ ص٦٣ .

(٣) ابن جبير ص ٢٠ ، ٢١ .

ذلك السور من حجارة المقطم والاهرام(١) . واستخدم لبنائه عدداً كبيراً من أسرى الصليبيين(٢) . وهذا السور هو ثالث الأسوار التي بنيت حول القاهرة وأولها بناه جوهر الصقلي وثانيها بناه بدر الجمالي. وقد بني الاثنان من اللبن .

وكما حصّن صلاح الدين القاهرة فكذلك حصّن الاسكندرية وهي تلك المدينة التي كانت محط أنظار الصليبيين وغيرهم فعمّر أسوارها وأبراجها ولم ينس أن يزيد من قوة مصر البحرية ، فبنى السفن والأساطيل بل جعل للأسطول ديوانا خاصاً (٣) . وكانت تبنى سفنه في الفسطاط وقوص ، ومنها ترسل إلى ثغور الاسكندرية ودمياط وتنيس وقد كان لذلك الأسطول أثره في حروب صلاح الدين وانتصاراته على الصليبيين .

وقد قام بتلك الأعمال البنائية كلها بهاء الدين قراقوش ، الذي يبدو أن صلاح الدين اعتمد عليه في تلك الناحية كل الاعتماد .

أما النقطة الهامة الأخرى فهي أن صلاح الدين أدخل نظاما جديدا في مصر لم يكن معروفا من قبل هو نظام المدارس . حقيقة وجدت قبل مجيئه مدارس أخرى كدار الحكمة والجامع الأزهر ولكنهما أنشئتا لغرض خاص هو إذاعة المبادىء الشيعية بين الناس . أما المدارس التي نشرها صلاح الدين فهي دور للعلم يدرس فيها الجميع الشريعة الإسلامية

---

(١) المقريزي ، الخطط ج ٢ ص ٣٣٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٢٢ .

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٤٨٢ — ٤٨٣ .

على المذاهب الأربعة وقد بدأ صلاح الدين فى إنشاء هذه المدارس من أيام وزارته كالمدرسة الناصرية التى أسست سنة ١١٧٠ (٥٥٦ هـ) بجوار جامع عمرو (١) وقصرت على الشافعية والمدرسة القمحية بالقرب منها (٢) وكانت خاصة بالمالكية ، والمدرسة الحنفية التى بنيت سنة ١١٧٦ (٥٧٢ هـ) فى دار الوزير البطائحى والمدرسة الصلاحية بجوار الإمام الشافعى (٣) . والغرض من بناء المدارس معروف وهو نشر المذهب السنى فى مصر وإحلاله محل المذهب الشيعى (٤) .

والخلاصة أن صلاح الدين استطاع أن يخلق لمصر شخصية مستقلة لها طابعها سواء من الناحية الحربية أو السياسية أو الاجتماعية ، فكان من أثر إنشاء المدارس مثلا أن وجدت فى مصر طبقة دراسة مثقفة ثقافة دينية وشرعية واسعة استطاعت أن تقف فى وجه الظلم والطغيان وأن تكون ملجأ الشعب ضد من عسى أن يظلمهم من الحكام . ولعل هذا هو السبب فى أن المستوى الاجتماعى والخلقى لم ينحط فى مصر كما انحط فى أوربا فى العصور الوسطى . ولعل هذا هو السبب أيضاً فى أن مصر تصدت لتلك الغزوات الساحقة التى هبت على الشرق الإسلامى من أواسط آسيا فأوقفتها عند حدها وحمت الإسلام والحضارة من تخريبها وطغيانها .

---

(١) المقريزى الخطط ج ٤ ص ١٩٢ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) السيوطى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٠ .

(٤) ذكر ابن جبير نصوصا هامه عن مدى اهتمام صلاح الدين بالمدارس وبطلاب العلم فيها أنظر ص ١٠ وما يتلوها .

وهكذا نجح صلاح فى أن يكمل تأسيس الدولة الأيوبية فى مصر وأن يحقق أغراض أسرته ، تلك الأسرة التى ظلت مدة طويلة تتحين الفرص للتكوين لنفسها حتى إذا وصلت إلى مسامعهم أخبار مصر وسوء أحوالها الداخلية وجدوا فيها الضالة المنشودة فظل أيوب وشيركوه يعملان جاهدين ليقيما فيها الدولة الأيوبية حتى إذا توفى الأخوان تكفل صلاح الدين باتمام الخطوات الباقية من ذلك البناء الخالد فنجح فى ذلك نجاحاً لعله أكثر كان من المنشود .

خاتمة

ليس الغرض من هذه الكلمة الختامية أن تكون تلخيصاً لما انتهى إليه البحث من نتائج . وإلا لما خرج الأمر عن أن يكون تكراراً لا مبرر له . وإنما هى كلمة لعلها أن تكون ختاماً مناسباً للموضوع . ولعل فيها أيضاً ما يساعد على الخروج بفكرة واضحة عنه .

والفكرة الأولى التى أريدَ توكيدها — فى الفصل الأول — هى أن الأحوال العامة فى الشرق الأدنى فى نهاية القرن الحادى عشر وبداية القرن الثانى عشر الميلادى — أى قبيل قيام الدولة الأيوبية فى مصر — كانت صالحة إلى حد كبير — لقيام أية دولة جديدة . إذا توافر للقائمين عليها فهم روح ذلك العصر ومعرفة الوسائل المؤدية لتحقيق تلك الغاية . ذلك لأنه لم تكن هناك سلطة مركزية قوية تستطيع أن تحد من رغبات أهل الطموح والمغامرة . فالخلافة الإسلامية — سواء فى بغداد أو فى القاهرة — بدا عجزها التام عن الاحتفاظ بهيبتها وقوتها ، الأمر الذى أدّى إلى وقوع الخلفاء — فى كلتا المدينتين — تحت سيطرة قوادهم ووزرائهم . وزاد الطين بلة أن السلاجقة الذين استطاع سلاطينهم الثلاثة الأول أن يوحدوا الجزء الأكبر من الشرق الأدنى قد انتهت حالهم بعد انتهاء حكم أولئك السلاطين الثلاثة إلى الانقسام والنزاع والفتن الداخلية . فأتاح ذلك الفرصة أمام المغامرين لاستغلال النظام الإقطاعى الذى نشره السلاجقة ونشأت من ثم الدول الأتابكية المختلفة فى الموصل ودمشق وسنجار وأربل وغيرها .

فى ذلك الظرف الملائم بدأ بنو أيوب يغامرون فى حوادث الشرق الأدنى — بعد مغادرتهم موطنهم الأصلى فى دوين وبدا فى حركاتهم وتنقلاتهم ما يدل على أن البارزين منهم قد وطدوا العزم على أن يؤسسوا لأنفسهم دولة شأن غيرهم من القواد وغير القواد ممن أوجدتهم الحوادث فى ذلك الوقت. وهذه هى الفكرة الثانية التى يرجى أن تكون قد وضحت فى الفصل الثانى .

على أن كلا من القائدين أيوب وشيركوه اصطدما بعقبة لم يكن من السهل التغلب عليها وقتئذ . ذلك لأن نزول الصليبيين بأرض الشام فى نهاية القرن الحادى عشر ونجاحهم فى تأسيس اماراتهم اللاتينية الأربعة المعروفة ذلك النجاح الذى يعزى أيضاً إلى ضعف السلطة المركزية فى العالم الاسلامى — قد أثار الروح الدينية الكامنة فى نفوس المسلمين . الذين بدأوا يفيقون لذلك الخطر الصليبي الداهم . ويفهمون أغراض الصليبيين ومراميهم . وعندئذ وضح لبعض الشخصيات الإسلامية الكبرى كعماد الدين زنكى أنه لا سبيل إلى مقاومة ذلك الخطر إلا بتوحيد القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى وهنا لم يعد من الحكمة أو بعد النظر أن يعلن الأيوبيون عن أغراضهم فى ذلك الوقت الذى تكتلت فيه جميع القوى لمقاومة ذلك الخطر الخارجى . ولهذا حرص الأيوبيون على ألا يبدو من سلوكهم ما يدل على أغراضهم الحقيقية . ولهذا أيضاً لم يوافق أيوب أخاه شيركوه على الاستيلاء على دمشق عندما مرض نور الدين بحلب . وأرجف الناس – يومذاك بوفاته. ولعل هذا التكتم الذى حرص عليه الأيوبيون هو علة ما يلاقيه الباحث من صعوبات فى موضوع هذا البحث . ذلك لأن المؤرخين المعاصرين

لم يستطيعوا أن يكتبوا فى تلك الناحية بما يمكن أن يرضى الباحث الحديث .

أما الفكرة الثالثة فهى أن الفرصة المناسبة — فى ذاتها لم تتح لأيوب أو شيركوه لتأسيس الدولة التى يحلمان بها . فإن المدن التى أتيح لهما أن يحكماها - وفقاً للنظام الإقطاعى السائد — وهى تكريت وبلبعك وحمص والرحبة لم تكن إحداهما تصلح كقاعدة مستقلة . ولذا رحب الأيوبيون بغزو مصر . وفى رسالة صلاح الدين إلى الخليفة العباسى المستضىء — وهى الرسالة التى أرسلها صلاح الدين يطلب تقايده السلطنة — ما يدل دلالة قاطعة على أن الأيوبيين فكروا فى الاستيلاء على مصر منذ أن سمعوا باضطراب أحوالها الداخلية وما ينتابها من فتن وقلاقل . أى قبيل أن يرسل نور الدين حملته الأولى إليها .

وليس عجبا أن يفكر الأيوبيون فى الاستيلاء على مصر ليقيموا دولتهم فيها ، وهى البلاد الواضحة الحدود والمعالم الطائلة الثروة . وربما يكون الأيوبيون قد قرأوا شيئا عن تاريخها فعرفوا كيف رآها عمرو ابن العاص فى الجاهلية ، فكان أكبر الداعين إلى فتحها بعد انتشار الاسلام !

وربما عرفوا أيضا كيف استطاع أن يستقل بها أحمد بن طولون ومحمد ابن طغج الأخشيد من بعده ، وكيف أن الفاطميين لم ينجحوا فى بسط نفوذهم إلا بعد الاستيلاء على مصر . بالرغم من أن دولتهم كانت قد قامت فعلا فى شمال أفريقية .

وهناك رأى آخر يرجى أيضا أن يكون قد وضح فى ثنايا البحث

وهو أن الأيوبيين أرادوا أن يعدوا أحد شبانهم البارزين ضماناً لاستمرار سياستهم وبقائها .

وقد وقع اختيارهم على صلاح الدين يوسف بن أيوب لينفذ سياستهم ويحقق أغراضهم .

ومما يدل على ذلك حرص الأسرة الأيوبية على أن يصحب صلاح الدين عمه شيركوه فى الحملات النورية الثلاث على مصر .

ولعل فى هذا بعض السر فى أن بعض الشعراء من أصدقاء الأيوبيين كعرقلة والعماد الاصفهانى قد أخذ يمدح صلاح الدين مدحا له مغزاه ويحيطه بهالة من العبقرية والنبوغ . وقد منح أولئك الشعراء صلاح الدين وتمنوا له أن يملك مصر وأن يدعو اخوته وأهله إليها كما فعل النبي يوسف ابن يعقوب عليه السلام وهو ما فعله صلاح الدين تماما .

هذا يدل على أن أولئك الشعراء ـ المقربين إلى الأيوبيين ـ كانوا يعرفون الشيء الكثير عن أغراضهم وعن سياستهم المرسومة للاستيلاء على مصر .

وقد وضحت تلك الأغراض خلال الحملات النورية الثلاث على مصر ـ تلك الحملات التى كان شيركوه القاعد الأعلى لها ـ وضوحا لاسبيل إلى إنكاره . بل لقد تأتى لنور الدين نفسه أن يعرف شيئا عن تلك الأغراض فبدأ يستشعر الخطر من استقرار الأيوبيين بمصر عندما وزر شيركوه للعاضد الفاطمى بعد مقتل شاور . وصح ما توقعه نور الدين . إذ خلف صلاح الدين عمه شيركوه فى وزارته للعاضد وبدا فى سلوكه وسياسته ما يدل على أنه إنما يعمل لنفسه ولأسرته ـ وقد وضحت تلك الحقيقة فيما تتابع من حوادث ـ وينتحي فى فتوحاته ناحية تمكّن له

في مصر قبل أي شيء آخر فقتح برقة ووطد أقدامه في أطراف مصر الشرقية دون أن يساهم بشيء في حروب نور الدين . وقد نتج عن ذلك كله ما عرف بين المؤرخين بإسم الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين ولولا وفاة نور الدين لوصلت تلك الوحشة إلى نتيجة محتومة في حرب سافرة بين الرجلين .

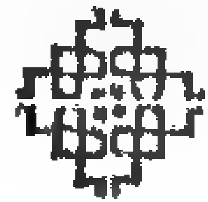
على أن صلاح الدين الذي كان يبتعد جهد طاقته عن المغامرة في حوادث الشام في حياة نور الدين . قد أخذ يتحين الفرص — بعد وفاته — للسفر إليها . ولا غرابة في ذلك ما دام الوريث الشرعي لنور الدين وهو ابنه اسماعيل لم يكن — عند وفاة أبيه — يزيد عن الثانية عشرة من عمره ومن ثم بدت لصلاح الدين أغراض جديدة أراد تحقيقها وهي أنه الوريث الفعلي لنور الدين . ثم جاءت الفرصة المناسبة لسفر صلاح الدين إلى الشام عند دعوة شمس الدين بن المقدم أمير دمشق له . وعندئذ انحدر صلاح الدين إلى الشام بعد أن انتهى من آخر مشاكله في مصر وهي أجلاء الحملة النورماندية عن الإسكندرية والقضاء على بقايا أنصار الفاطميين الذين قاموا في أسوان وقوص تحت زعامة كنز الدولة وعباس بن شادي .

وقد لقي صلاح الدين كثيرا من العنت في الشام وكان أكثر ماضايقه دعاية أعدائه من أمراء حلب وغيرهم من الأمراء النوريين . بأنه انقلب على ولي نعمته نور الدين قبيل وفاته . وأنه يريد أن يستحوذ على ملك ابنه بعده . ويظهر أن صلاح الدين وجد ألا سبيل إلى تحقيق أغراضه عن طريق التمسح بإسماعيل والدعوى بأنه جاء إلى الشام ليحميه ويقوم على شئونه . فاضطر إلى أن يسلك الطريق العملي ولذلك أعلن استقلالا له

بما تحت يديه من أملاك . وقطع اسم اسماعيل من الخطبة والعملة . وهى مظاهر التبعية فى ذلك الوقت.ثم أرسل صلاح الدين إلى الخليفة العباسى المستضىء رسالته الهامة التى يطالب فيها بتقليده سلطنة مصر والشام واليمن وغيرها من البلاد التى فتحها وأن يكون ذلك التقليد له ولمن يجىء بعده من أفراد أسرته . وعندئذ ثار ثائر أفراد البيت الزنكى واستعانوا عليه بالصليبيين والحشيشيين ولكن ذلك كله لم يجد شيئاً ولم يستطع أن يطفىء من نجم صلاح الدين .

وإزاء ذلك لم يجد السلطان اسماعيل — أو بالأحرى من حوله من الأمراء — وابن عمه غازى بدا من مصالحة صلاح الدين والاعتراف بتملكه تملكا شرعياً لما تحت يديه من أملاك . وفى خلال ذلك الوقت كانت رسل الخليفة العباسى قد وصلت إلى صلاح الدين تحمل تقليدا الخليفة له بالسلطنة . فلم يعد بعد ذلك كله من دليل شرعى أو عملى ينقض قيام الدولة الأيوبية فى مصر قياماً شرعياً لا سبيل إلى الشك فيه .

ثم بدا لصلاح الدين أن يوحد القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى وهى الفكرة التى نادى بها ونفذها زنكى العظيم وابنه نور الدين محمود والتى أثبتت الأيام صلاحيتها وأهميتها فعمل صلاح الدين على تحقيق تلك الفكرة تمهيداً لجهاد الصليبيين جهاداً الغرض منه إجلاؤهم عن الشام لا مجرد مبادلة الهزيمة والنصر ولكن ذلك الدور لا يدخل فى نطاق هذا البحث بعد أن أصبح قيام الدولة الأيوبية فى مصر حقيقة لا تحتاج إلى إيضاح أو دليل جديد .



مصادر البحث

ابن الأثير (ت ٦٢٠هـ ١٢٢٨م) : على بن أحمد بن أبى الكرم .

١ ـــ الكامل فى التاريخ ج ١٠ ، ١١ . المطبعة الأزهرية بالقاهرة سنة ١٣٠١ هـ .

٢ ـــ تاريخ الدولة الأتابكية Recueil des Histoires Croisados. Historiens Orientaux. Tome II.

إسامة بن منقذ (ت ٥٨٤ هـ ١١٨٨ م) ـــ أبو المظفرين مرشد بن على بن مقلد بن نصر .

٣ ـــ الاعتبار . (نشر فيليب حتى) .

الإسحاقى محمد بن عبد المعطى .

٤ ـــ لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول . القاهرة طبع حجر ١٢٧٦ .

O, Leary de Lacy.

٥ ـــ A short History of the Fatimid Khalifate. London 1923

٦ ـــ أمين زكى بك : خلاصة تاريخ الكرد وكردستان باللغة الكردية ترجمه إلى العربية محمد على عونى .

ابن إياس (ت ٩٣٠هـ ١٥٢٢م) . أبو البركات محمد بن أحمد .

٧ ـــ بدائع الزهور .

بيلى (أحمد بيلى) .

٨ ـــ صلاح الدين الأيوبى ـــ القاهرة سنة ١٩٢٢ م .

ابن جبير (+ ٦١٤هـ ١٢١٧م) أبو الحسن محمد بن أحمد الكتانى.

٩ — رحلة ابن جبير ـ مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٢٦-١٩٠٨م.

١٠ — Grousset (René) Histoire des Croisades. Paris 1932.

١١ — Gibb, (H.A.R.) The Damascus Chronicle of the Crusades London 1932

ابن الجوزى (+ ٥٩٧ هـ ١٢٠٠ م) أبو الفرج عبد الرحمن ابن على بن الجوزى .

١٢ — المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم. مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٢٩٦ (تاريخ)

حسن ابراهيم (الدكتور حسن ابراهيم حسن) .

١٣ — الفاطميون فى مصر — المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٣٢

الحسينى (+ ٦٢٣ هـ) صدر الدين بن ناصر بن على .

١٤ — أخبار الدولة السلجوقية .

١٥ — أبو حديد (محمد فريد بك)

صلاح الدين الأيوبى وعصره دار الكتب سنة ١٩٢٧ .

(الحنبلى ابراهيم الحنبلى) .

١٦ — شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب . مخطوط بمكتبة الجامعة رقم ٢٤٠٣١ .

ابن خلدون (+ ٨٠٨ هـ ١٤٠٥ م) . عبد الرحمن بن محمد .

١٧ — العبر وديوان المبتدأ والخبر . القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ .

ابن خلكان (+ ٦٨١ هـ ١٢٨١م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم .

١٨ — وفيات الأعيان جزآن . القاهرة ١٣١٠ .

ابن دحلان (+ ١٣٠٤ هـ) السيد أحمد بن زين .

١٩ — تاريخ الدولة الإسلامية بالجداول المرضية . القاهرة سنة ١٣٠٦ هـ

ابن دقماق (+ ٨٠٩ هـ . ١٤٠٦ — ١٤٠٧م) ابراهيم ابن محمد المصرى .

٢٠ — الانتصار لواسطة عقد الأمصار . القاهرة ١٣٠٩هـ ١٨٩٣م .

الذهبى (٧٤٨ هـ ١٣٤٧ — ١٣٤٨) شمس الدين محمد ابن أحمد

٢١ — تاريخ الإسلام — مخطوط . بدار الكتب بالقاهرة زيادة (الدكتور محمد مصطفى) .

٢٢ — مصر والحروب الصليبية . محاضرة ألقيت بنادى الاتحاد الإنجليزى المصرى القاهرة سنة ١٩٤٢ .

٢٣ — محاضرات غير مطبوعة فى تاريخ الدولة الأيوبية .

زيادة (نيقولا زيادة) .

٢٤ — رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى . عدد خاص من المقتطف القاهرة ١٩٤٣ .

٢٥ — Stevenson: The Crusaders in the East. Cambridge 1907.

٢٦ — سبط بن الجوزى (+ ٦٥٤ هـ ١٢٥٧ م) — أبو المظفر بن قيزوغلى : مرآة الزمان مخطوط .

٢٧ — السيوطى (٩١١ هـ ١٥٠٥م) عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين
٢٨ — حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة . القاهرة ١٣٢٧ .

Gustave Schlumberger.

٢٩ — Compagnes du Roi Amaury. Ier. Paris 1906.

أبو شامة (٦٦٥ هـ . ١٢٦٧ — ١٢٦٨ م) عبد الرحمن
ابن اسماعيل بن ابراهيم .

٣٠ — كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين . القاهرة ١٢٨٧ هـ .

ابن شداد (+ ٦٣٢ — ١٢٣٤ هـ) القاضى بهاء الدين
أبو المحاسن يوسف بن رافع .

٣١ — النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المعروف بسيرة
صلاح الدين . القاهرة ١٣٤٦

أبوا صالح (٦٠٥ هـ ١٢٠٨ م) الأرمنى .

٣٢ — كنائس واديرة مصر — اكسفورد سنة ١٨٩٤ .

عبد اللطيف البغدادى (٦٢٩ هـ ١٢٣١ م) موفق الدين
عبد اللطيف .

٣٣ — مختصر تاريخ مصر .

٣٤ — على سيدو الكوروانى . من عمان إلى العمادية .

على مبارك باشا .

٣٥ — الخطط التوفيقية . المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣٠٦هـ .

عماد الدين الاصفهانى (٥٩٧ هـ ١٢٠١ م) أبو عبد الله محمد
بن أبى الرجاد .

٣٦— البرق الشامى (مقتطفات فى الروضتين) .
٣٧ — دولة آل سلجوق (مختصر البندارى) مطبعة الموسوعات بالقاهرة (١٣١٨ هـ ١٩٠٠ م) .
عمارة اليمنى (٥٦٩ هـ ١١٧٤ م) أبو الحسن نجم الدين اليمنى .
ديوانه .
٣٨— ابن العماد . شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . القاهرة سنة ١٣٥١ .
٣٩ — كتاب النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية . شالون سنة ١٨٩٧ م .
العينى .
٤٠ — عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ Vasil Ev A, A .
٤١ — Combridge Medioval History Vol. IV.
أبو الفدا (+ ٧٣٢هـ ١٣٣١م) اسماعيل بن على صاحب حماة .
٤٢ — المختصر فى أخبار البشر .
ابن الفرات .
٤٣ — تاريخ الدولة والملوك . مخطوط بدار الكتب المصرية
أبو الفرج الملطى (+ ٦٨٥ هـ ١٢٨٦ م) .
٤٤ — مختصر الدول
Wiet (Gaston)
٤٥ — L'Egypte Arabe, Histoire de la Nation Arabe.
٤٦ — Précis de L'histoire d'Egypte.
الفرمانى (+ ١٠٢٩ هـ) .

٤٧= أخبار الدول وآثار الأول. بغداد سنة ١٢٨٢ هـ(طبع حجر).
ابن القلانسى (+ ٥٥٥ هـ — ١١٦٠ م) أبو يعلى حمزة .
٤٨= ذيل تاريخ دمشق.
القلقشندى (+ ٨٢١ هـ ١٤١٨ م (أبو العباسى أحمد .
٤٩= صبح الأعشا فى صناعة الانشا : (طبعة دار الكتب)
الكتبي (٧٦٤ هـ ١٣٦٢ — ١٣٦٣ م) محمد بن شاكر
بن أحمد الحلبي .
٥٠— فوات الوفيات (مولان سنة ١٢٩٩ هـ) .

٥١ — La monte: The Arab Heritage (Crusade and fi had)
Le Strange (G).
٥٢ — Palestine under the moslemes.
٥٣ — Baghdad during the Ablasid Chaliphate London 1900
Stanly Lane-Poole.
٥٤ — The Story of Cairo. London 1901.
٥٥ — A history of Egypt in the Middle Ages London 1901
٥٦ — Saladin and the Fall of the Kingdem of Jerusalem
London 1893.
٥٧ — The Mohammedan Dynasties Paris 1925.
Margeliouth (D,S.)
٥٨ — Cairo, Jorusajom, and Damaseus Oxford 1907.
أبو المحاسن (٨٧٤ هـ ٢٤٦٩ م) جمال الدين بن يوسف
ابن تغرى يروي .

٥٩ — النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طبعة دار الكتب) .

المسعودى (+ ٣٤٦ ، ٩٥٦ م) .

٦٠ — مروج الذهب ومعادن الجوهر (القاهرة ١٣٠٣ هـ) .

٦١ — ابن مسكويه (٤٢١ هـ ، ١٠٣٠) تجارب الأمم (طبعة أن روز) .

المقريزى (+ ٨٤٥ هـ ١٤٤١ م) تقى الدين على بن أحمد .

٦٢ — المواعظ والإعتبار فى ذكر الخطط والآثار .

٦٣ — السلوك لمعرفة دول الملوك (نشر الدكتور زيادة) القاهرة سنة ١٩٣٤ .

٦٤ — إغاثة الأمة بكشف الغمة (نشر الدكتور زيادة وجمال الدين الشيال) القاهرة سنة ١٩٤٠ .

ابن ميسر (+ ٦٧٧ هـ ١٢٨٨ م) محمد بن على بن يوسف .

٦٥ — تاريخ مصر . المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة بالقاهرة سنة ١٩١٩ .

٦٦ — نظام الملك سياسة نامة ترجمه إلى االغة الفرنسية Charles Schefer .

النويرى (٧٣٢ هـ ١٣٣٢ م) أحمد بن عبدالوهاب .

٦٧ — نهاقة الارب فى فنون الأدب (دار الكتب) .

ابن واصل (+ ٦٩٧ هـ ١٢٩٧ — ١٢٩٨ م) جمال الدين ابن واصل .

٦٨ — مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب . مخطوط بدار الكتب المصرية .

ياقوت (٦٢٦ هـ ١٢٢٩ م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى

٦٩ — معجم البلدان (القاهرة ١٣٢٣ هـ) .

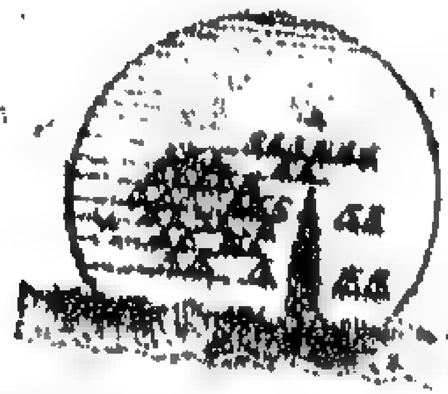
٧٠ — إرشاد الاريب إلى معرفة الاريب (طبعة الرفاعى) .

يحيي أبى طى (٦٣٠ هـ ١١٣٢ م) .

٧١ — كنز الموحدين فى سيرة صلاح الدين (نصوص هامة منه فى الروضتين) .

٧٢ — Esicyclopiedia of Islam.

٧٣ — الترجمة العربية لدائرة المعارف الإسلامية .



فهرس

